

أصداء

مسقوط الخلافة الإسلامية

في الشعر العربي الحديث

١٩٢٤ - ١٩٩٤

الدكتور

ماجد إبراهيم سلحج العامري



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اصداء سقوط الخلافة الإسلامية

في الشعر العربي الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق محفوظة
لِلنَّاشِرِ

٢٠٠٥ هـ - ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٤ / ٤ / ٨٨٧)

٨١١,٠٩

العامري ، ماجد

أصداء سقوط الخلافة الإسلامية في الشعر العربي
الحديث ١٩٢٤-١٩٩٤م / ماجد العامري . - إربد: دار
الكتاب الثقافي، ٢٠٠٤.

(...) ص.

ر.أ (٨٨٧ / ٤ / ٢٠٠٤)

الواصفات: / الشعر العربي // النقد الأدبي // التحليل

الأدبي // التاريخ الإسلامي // الخلافة // الإسلام //

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٠٠٤/٣/٧٢٥)

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٥ م. لا يُسمح بإعادة

نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو
حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من
استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي
جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون
الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار الكتاب الثقافي

للطباعة والنشر والتوزيع

الأردن / إربد

شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢١١٦١٦)

فاكس

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)

ص.ب (٢١١-٦٢٠٣٤٧)

Dar Al-Ketab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (211-620347)

E-mail:

DarALKetab@Excite.com



دار المتن للنشر والتوزيع

الأردن - إربد - تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

أصداء

سقوط الخلافة الإسلامية

في

الشعر العربي الحديث

١٩٢٤-١٩٩٤م

الدكتور

ماجد إبراهيم سلحب العامري

دار الكتاب الثقافي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الوصايا

- إلى كل الناطقين بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله
- إلى جميع الناهيين والمصلحين والدعاة من أفراد أمتنا الإسلامية
- إلى كل من وضع نصب عينيه وحدة هذه الأمة وسلامة عقيدتها والنهوض بها إلى مراقي الفلاح لتقود العالم من جديد
- إلى والديّ وزوجتي وأولادي
- اهدي هذا الكتاب

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، المنزل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء : ٩٢)

أما بعد

فإن الناظر في أحوال أمتنا الإسلامية في عصرنا الحاضر يرى انقسامها إلى أمم عديدة وإلى دويلات مختلفة، ويلمس تفرق كلمتها واختلاف نظمها ومذاهبها، ويحز في نفسه هذا الانقسام، ويؤثر في وجدانه وكيانه هذا التباين وعدم الانسجام.

وهذه الأوضاع السيئة والظروف القاسية التي ألمت بأمتنا قد لحقت بها نتيجة إلغاء الخلافة الإسلامية في بداية هذا القرن العشرين، في الوقت الذي كانت تجمع فيه شتاتها، وتؤلف بينها، وتفرض هيبتها وشخصيتها وتبرز مكانتها كقوة كبرى في العالم.

ولما كان الشعر هو وجدان هذه الأمة، وديوان العرب، وعنوان الأدب كما يقولون، وأنه أيضاً نافذة الإنسان على العالم يلعب دوراً كبيراً وهاماً في حياة العربي المسلم، وحيث إن القرآن الكريم - دستور المسلمين - جاء باللسان العربي، وأن اللغة العربية إضافة إلى ذلك - هي لغة أهل الجنة ويفترض أن تكون اللغة الأساسية لجميع المسلمين، فإن الشعر العربي ظل بأخيلته وصوره وأحاسيسه على مدار التاريخ مثار الإعجاب والانبهار والدافع القوي والحافز الملهم لإثارة الهمم ودفع النفوس إلى معالي الأمور ونفائس الأفعال، حيث كان العربي في معظم حالاته وأوقاته لا يعبر عن تجاربه وانفعالاته إلا بالشعر.

ولما كان وقع سقوط الخلافة الإسلامية شديداً على النفوس، وكان بمثابة صدمة قوية على مشاعر المسلمين بشكل عام، قام الشعر بأداء دوره في هذا المجال، فرثى الخلافة، وندد بالذين ساهموا في سقوطها سواء كان ذلك من قريب أو بعيد، وحتى هذا الوقت ما زال الكثير من الشعراء يستشرفون ويتطلعون إلى إحياء هذه الخلافة والدعوة إلى توحيد أمتنا الإسلامية تحت راية واحدة، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، لتقود العالم مرة أخرى إلى ما فيه خير البشرية جمعاء.

كان هذا وغيره هو ما دعاني للتفكير في هذا الموضوع وجعلني أستخلص منه هذا البحث الذي اخترته موضوعاً لهذه الرسالة الجامعية، وجعلت عنوانه:

"أصداء سقوط الخلافة الإسلامية في الشعر العربي الحديث" أو بالمعنى المقصود "رثاء الخلافة الإسلامية والحنين لها في الشعر العربي الحديث".

وهنا لا بد من التنويه على أن المقصود بالرثاء في الشعر هو الخلافة العثمانية الإسلامية، أما المقصود بالحنين والاستشراف فهو الخلافة الإسلامية بشكل عام تحت أية قيادة كانت وبأي شكل توحدت.

ومنذ بداية نمو فكرة البحث في ذاكرتي منذ عدة سنوات إثر حصولي على شهادة الماجستير من جامعة البنجاب في مدينة لاهور بدولة الباكستان الشقيقة سنة ١٩٨٧م، وأنا أجمع ما يتيسر لي من المراجع والمصادر المتعلقة بالبحث. علماً بأنني لا أزعم أنني قد استقصيتها جميعاً - ورغم ذلك فقد تجمع لدي منها مادة وفيرة، مما دعاني إلى اعتماد الانتقاء والاختيار وذلك لئلا يطول البحث لو استقصيتها جميعاً، وليكون من جانب آخر أكثر دقة وتركيزاً، وقد حاولت قدر الإمكان التقيد بدراسة النصوص المتعلقة برثاء الخلافة الإسلامية بعد إلغائها، أو تلك التي تدعو إلى إحياء الخلافة الإسلامية أو الوحدة الإسلامية، ولم أغفل بالطبع تلك النصوص التي تنادي بالوحدة العربية ولكن شريطة أن تكون من خلال الوحدة الإسلامية الشاملة وتحت مظلتها، وأغفلت الأشعار الوجدانية الأخرى التي لا تلتزم هذا المنهج ولا تدخل في صلب الموضوع.

ونظراً لتوفر الكثير من مواد البحث لدي ، كما ذكرت ، حيث إن الفترة الزمنية التي تؤرخ له والممتدة ما بين ١٩٢٤م - ١٩٩٤م حسب ما حددناه لها تعتبر فترة حديثة نسبياً وفي متناول يد الباحث، ولم تطوها يد النسيان بعد، فإنه لم تعترضني والحالة هذه صعوبات تذكر، اللهم إلا ما تكبدته من مشاق السفر وعناء البحث والتتقيب في ثنايا المكتبات العامة والخاصة، والقراءات المتأنية والمتشعبة للعديد من دواوين الشعر والدراسات المتعلقة بالموضوع والتي استغرقت مني جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً ولكنها كانت سهلة وميسرة بحمد الله وتوفيقه.

أما بالنسبة للدراسات السابقة عن موضوع البحث، فلم أجد حسب معرفتي المتواضعة دراسة مشابهة لهذه التي قمت بها، ومن ثم استوعبت مثل هذه المساحة الزمنية له (١٩٢٤م - ١٩٩٤م). اللهم إلا ما وجدته في بعض الكتب من أبواب أو فصول محدودة تتعلق بالموضوع بصورة غير مباشرة وليست بحثاً قائماً بذاته.

وقد عالجت النصوص الواردة في البحث بالتمهيد لها وشرح معناها الإجمالي ثم التعقيب والتعليق عليها على إبراز الغايات التي تخدم الموضوع، وقد أرجأت الدراسات البلاغية والنقدية إلى الباب الثالث والأخير الذي خصصته لهذا المجال، وذلك باستثناء بعض النصوص التي تستدعي التفاعل معها واستعراض ما فيها من عناصر القوة والبيان.

هذا وقد أقمت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، تناولت في الباب الأول المقدمات التاريخية وقسمته إلى فصلين:

الفصل الأول: ويبحث في تعريف الخلافة والخليفة وشروطهما وواجباتهما.

الفصل الثاني: تناولت فيه بصورة ميسرة ووجيزة مراحل تطور الخلافة الإسلامية من بدايتها كخلافة إسلامية راشدة سنة ١١هـ الموافق ٦٣٢م وحتى إلغائها وسقوطها كخلافة إسلامية عثمانية سنة ١٣٤٣هـ الموافق ١٩٢٤م.

وفي الباب الثاني وهو أوسع الأبواب قمت بدراسة شعر الأصدااء دراسة تفسيرية، وقسمته إلى توطئة وستة فصول:

التوطئة : تناولت فيها الشعر مفهومه ووظيفته العامة.

الفصل الأول: رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها.

الفصل الثاني: الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار.

الفصل الثالث: الصورة الزاهية للخلافة ورموزها.

الفصل الرابع: أسباب سقوط الخلافة.

الفصل الخامس: آثار ونتائج سقوط الخلافة.

الفصل السادس: الحنين إلى إحياء الخلافة الإسلامية والدعوة إلى الوحدة

الإسلامية وكل ذلك من خلال النصوص الشعرية التي تحمل هذه المعاني.

أما الباب الثالث والأخير: فقد تناولت فيه الظواهر الفنية والبلاغية لشعر الأصدااء، وهو دراسة نقدية للأشعار الواردة في البحث من حيث العاطفة والتعبير والصور الشعرية والنكت البلاغية.

أما الخاتمة فهي تختصر بشكل موجز الأسباب والنتائج الرئيسة للموضوع، ومن ثم الخروج ببعض النصائح والتوصيات، وتبيان الأساليب والمناهج التي بفضل اتباعها في مستقبل أمتنا الإسلامية لتحقيق خلافتها ووحدتها واستعادة عزتها وكرامتها.

- وأخيراً فإنه يسعدني أن أقدم بهذا البحث المتواضع الذي لا أدعي له الكمال، وأضعه بين يدي القارئ الكريم، آملاً أن يكون له حافزاً ومعيناً في ترسم طريق الوحدة الإسلامية الشاملة، داعياً الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في تحقيق الغاية المرجوة منه، والله من وراء القصد والحمد لله أولاً وآخراً.

الباب الأول

مقدمات تاريخية

الفصل الأول : الخلافة والخليفة :

- تعريفات وشروط وواجبات

الفصل الثاني: مراحل وتطور الخلافة الإسلامية

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الباب الأول

مقدمات تاريخية

تمهيد:

لا شك أن الكتابة عن الخلافة الإسلامية: تعريفها ومقوماتها ومراحل تطورها وتاريخها منذ نشأتها وحتى سقوطها موضوع غزير المادة ومتشعب الأطراف ولا نستطيع في مثل هذا البحث أن نوفيه حقه تماماً كمدخل إلى دراسة الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه وهو "أصداء سقوط الخلافة الإسلامية في الشعر العربي الحديث".

ولكننا سنحاول تسليط الضوء ما أمكن على المعالم البارزة والنقاط المهمة في هذا الموضوع وكذلك إلقاء بعض الظلال الموحية لإيضاح الرؤية حوله وذلك لتعم الفائدة بهذه الدراسة وأن تكون متجانسة ومتكاملة نوعاً ما من الوجهتين التاريخية والأدبية.

وليس من شك أيضاً أن هذه المقدمة التاريخية التي ستركز في متنها على وجوب إقامة الخلافة وتنصيب الخليفة، تهدف من وراء ذلك إلى إبراز أهمية الخلافة، خاصة في مثل هذه الظروف التي تمر بها أمتنا الإسلامية، وأنه لا سبيل للنهوض بهذه الأمة من كبوتها واسترجاع مكانتها وعزتها والتغلب على كل مشاكلها ونقاط ضعفها، ومعوقات نموها ونهضتها، إلا بالوحدة الإسلامية الشاملة أولاً وآخراً، تحت أي مسمى وبأي شكل كان.

والله من وراء القصد.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الفصل الأول

الخلافة والخليفة

تعريفات وشروط وواجبات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الخلافة والخليفة

أولاً- تعريف الخلافة والخليفة :

أ- في اللغة^(١) :

الخلافة كلمة عربية أصلية وهي مصدر من الفعل خلف، نقول:

خلفه في قومه فهو خليفة في أمر ما وبقي عليه بعده، ونقول: استخلف فلاناً من فلان أي جعله مكانه ونياية عنه.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي ﴾^(٢).

والخليفة: فعيل بمعنى مفعول، أي الذي يخلفه من بعده أو بمعنى فاعل: أي

الذي يخلف من كان قبله، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾^(٣) وقوله: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾^(٤).

والخليفة: هو السلطان الأعظم والجمع خلائف وخلفاء، والذي عليه العرف أن

اسم الخليفة يطلق على كل من قام بأمر المسلمين منذ صدور الإسلام حتى انقراضها على يد الأتراك ببيعة أهل الحل والعقد وإما بعهد ممن قبله.

وكان حرص الخلفاء عليه أكثر من حرصهم على الألقاب الأخرى، لأنه في

نظرهم يؤكد صلتهم بالرسول (ﷺ) ويؤيد حقهم في طاعة المسلمين لهم^(٥).

(١) ينظر لسان العرب، والقاموس المحيط.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٢.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٥.

(٤) سورة الأعراف الآية ٦٩.

(٥) د . محمد الصادق عقيقي، المجتمع الإسلامي وأصول الحكم ص ١٢٢.

ب- وفي الاصطلاح:

الخلافة: رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن الرسول (ﷺ) وهي نظام إسلامي لم يوجد عند غير المسلمين، وهو نظام سياسي أساسه الدين. فالخليفة ينظر في مصالح الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والأخروية^(١).

وقد ورد في تعريف الخلافة عدة تعريفات نجتزئ منها ما يلي^(٢):

"الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارح إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا"^(٣).

وهي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص، والأولى أن يقال هي خلافة الرسول في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة بحيث تجب على كافة الأمة^(٤).

- "الولاية العامة على كافة الأمة"^(٥).

- "النيابة عن النبي في عموم مصالح المسلمين"^(٦).

- خلافة شخص من الأشخاص للرسول عليه السلام في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة^(٧).

(١) د . عبد الحميد العبادي وآخرون، الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها.

(٢) د . سليمان أحمد العمري، نظام الحكم في الإسلام هل هو الخلافة

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠.

(٤) الأبجى، المواقف وشرحه ج ٢ ص ٣٤٥.

(٥) القلقشندي، تأثر الانفاة في معالم الخلافة ج ١ ص ٨.

(٦) إبراهيم الباجوري، تحفة المرید على جوهرة التوحيد ٢٤٠ ص ٤٥.

(٧) البيضاوي، حاشية شرح الطوالع ص ٢٨٨.

- رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا وإقامة أحكام الشرع الإسلامي وحمل الدعوة الإسلامية في العالم^(١).

ويرادف كلمة الخلافة دائماً الإمامة:

وتعرف الإمامة بأنها رئاسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا، متضمنة الحوزة (الناحية) ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الحتف والحيف، والإنصاف للمظلومين من الظالمين واستبقاء الحقوق من الممتنعين وإبقاؤها على المستحقين^(٢).

ثانياً - الخلافة: وجوبها وواجباتها:

أولاً - وجوب الخلافة:

الخلافة: واجبة في الأمة الإسلامية بحكم الإسلام حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣)

ويقول الرسول صلوات الله عليه "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية "

ومن السنة الفعلية الإجماع منذ حكومة الرسول (ﷺ) حتى سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، وقد سماها السلف الصالح بالإمامة العظمى بالقياس إلى الإمامة الصغرى - إمامة الصلاة - ليتأكد بذلك وجوبها وأهميتها، وقد جاء في مقدمة ابن خلدون "أن نصب الخليفة واجب وتركه يوجب الإثم بحق المسلمين جميعاً بدليلين:

(١) محمود الخالدي، قواعد نظام الحكم في الإسلام ص ٢٢٩.

(٢) الطريق إلى الخلافة (اختصار غياث الأمم في الثبات الظلم للجويني) محمد حامد الحسني.

(٣) سورة النساء الآية ٥٩.

(١) إجماع الصحابة والتابعين بمبادرتهم فوراً عند وفاة النبي إلى تنصيب خليفة عنه.

(٢) بدونه لا يمكن إظهار شعائر الدين وإصلاح الرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الحدود لحفظ الضروريات الخمس (الدين والنفس والعقل والنسب والمال) ^(١).

ويقول الماوردي: الخلافة موضوعة لخلافة النبوة وموضوعة لحراسة الدين والدنيا وهي نظام واجب بالإجماع، وذلك أن اختصاص الخليفة حفظ الشرع فتعيين الإمام حتم واجب على الجماعة الإسلامية وحيث أن القرآن يوصي بطاعة - ولي الأمر، وإن فمصدر سلطة الإمام هو الله تبارك وتعالى ^(٢).

ويقول الحافظ ابن تيمية "يجب أن بعرق أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين بل لا يقوم الدين إلا بها" ^(٣).

وما قاله ابن تيمية حق فالقرآن الحكيم صرح بأن الغرض من إرسال الرسل هو أن يقوم الناس بالقسط فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ^(٤).

وهناك نصوص من الكتاب والسنة كثيرة توجب المسلمين لزوم الجماعة والسمع والطاعة وتصرح بأن من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

وأما إقامة القسط والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله ودفع الفتن من أرض الله بالقتال في سبيل الله فهذه أمور لا تتم إلا بالقوة.

(١) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة ص ١٣٥.

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي.

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية.

(٤) سورة الحديد الآية ٢٥.

ويؤكد الإمام ابن حزم وجوب الإمامة في قوله:

"اتفق جميع أهل السنة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وإن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة، حاشا النجداث من الخوارج فإنهم قالوا " لا يلزم الناس فرض الإمامة وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم"^(١).

إذن يتبين لنا أن منصب الخلافة أو الإمامة واجب، ليتولى الإمام أداء هذه الواجبات نيابة عن المسلمين.

ويتبين كذلك أن "للدين سيادة على الدنيا وأن تصريف شؤون الدولة جزء من واجبات الخليفة وأن ممارساتها نيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فهي واجبة والتخلي عنها يوجب الإثم الذي يعم المسلمين جميعاً وبذلك يكون المسلمون اليوم آثمون برمتهم لعدم وجود الخليفة الذي يرأس الدولة الإسلامية ويدير شؤون الدين والدنيا نيابة عن الرسول الأعظم (ﷺ)"^(٢).

ثم بعد ذلك فإن في وجوب الخلافة تحقيق العدل الكامل للأمة "إذ أنه لا يتحقق العدل الكامل، ولا تكفل للناس سعادتهم في دنياهم وأخراهم ولا تتم وحدتهم ولا تنتظم الأمور إلا بوجود هذا النوع من نظم الحكم وهو "الإمامة" أي الحكومة الإسلامية القائمة على أساس الدين، إذن إن العدل المطلق إنما هو العدل الإلهي الذي تشتمل عليه الشرائع السماوية، دون القوانين الوضعية وما "الإمامة" إلا تكملة للنسبة "وما هي إلا استمرار لقيادة الأنبياء وهدايتهم للناس وما هي إلا احتفاظ بالمبادئ والعقائد التي دعوا إليها وجاهدوا من أجلها"^(٣).

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٨٧.

(٢) مؤامرة فصل الدين عن الدولة ص ١٣٥.

(٣) د . محمد ضياء الدين الرئيس، النظريات السياسية الإسلامية ص ١٤٠.

ثانيا- واجبات الخلافة - وحقوقها وفروضها:

تكلم الفقهاء على الحقوق وقسموها إلى ثلاثة أقسام:-

- القسم الأول : حقوق الله التي تتعلق بواجبات العبادة أو الصالح العام للأمة، ولا سيما "الحدود" التي شرعها الله لأن عليها يتوقف كيان المجتمع.

- القسم الثاني: حقوق العباد: هي الحقوق التي تتعلق بالحقوق الخاصة أو حقوق الامتلاك للأفراد وهي تكتسب من طريق اعتراف القانون بأنواع معينة من المعاملات.

- القسم الثالث: وهي الحقوق المشتركة بين الله والعباد، ويمكن أن تعرف بأنها ما تجمع بين مصالح عامة للأمة ومصالح للأفراد، والحقوق الخاصة على العموم، من حيث هي ليست لها أهمية سياسية^(١) عليه فيمكن تصنيف الفروض والواجبات المتعلقة بالخلافة إلى ما يلي^(٢):-

الأول - الإمامة نفسها : أي إقامة الدولة الإسلامية الشرعية، لأنها الأصل الجامع وهي الأساس لكل ما عداها الذي يتوقف عليه تنفيذ سائر الفروض أن إقامتها حق لله للأمة لأنها ستنظر في كل الحقوق.

الثاني - القضاء والنظر في المظالم : وهو من أعظم الفرائض التي اهتم بها علماء المسلمين، وغايته - القضاء - إقامة العدل ورفع الخصومات وتنفيذ أحكام الشريعة، وأما "النظر في المظالم: وهو نوع من القضاء العالي يبتكره الإسلام تكون له سلطة أوسع ويتولاه الخليفة نفسه أو كبار القضاة. لأن الغاية أن يحاكم كبار أصحاب النفوذ في المجتمع أو الولاة أنفسهم أو عمال الدولة إذا اعتدوا على الناس.

(١) النظريات السياسية الإسلامية ٣٠١.

(٢) ينظر، النظريات السياسية الإسلامية ص ٣١١ وما بعدها.

الثالث - الجهاد : وهو الدعاء إلى الدين الحق، وهو الفرض الذي يتم به الدفاع عن الدولة والدين والوطن.

الرابع - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هذا أصل جامع، وهو أعظم الفرائض وعليه يتوقف صلاح أمر الدين والدنيا، وقد وردت الآيات والأحاديث متتالية، صريحة في الدعوة إليه وإلزام الأمر به.

من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

وقوله عليه السلام "ما أفر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب محتضر".

الخامس - القيام بعلوم الدين والدنيا : ويقصد بذلك العلوم التي تؤدي إلى زيادة العمران وحفظ الحياة وازدهار الحضارة إلى جانب العلوم التي يتوقف عليها إقامة الدين وحفظ الشريعة وصحة العمل بأحكامها وما يتصل بذلك، كل هذه العلوم واجب على الدولة إقامتها والمحافظة على تعليمها والعمل على تقدمها واتخاذ الوسائل لنشرها حتى يتحقق الانتفاع بها.

السادس - توفير وسائل العمران : وهو من الفروض التي أوجبها الدين أيضاً على الأمة، وعلى الدولة أن تقوم بها - نيابة عنها - إيجاد الوسائل التي بها يتحقق العمران وتوفر أسباب المعيشة للناس، وبها تكثر الثروة وينمو الإنتاج، وهذا مما يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام دين إنشاء وتعمير، وتهمة شؤون الدنيا كما تهمة شؤون الدين.

السابع - التكافل الاجتماعي : من الفروض العامة أو الاجتماعية التي أوجبها الشارع على الأمة فالدولة، التكافل الاجتماعي فيما بينهم حتى لا يمسي أحد

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

بينهم ذا حاجة، ويجد كل فرد مسلماً كان أو غير مسلم قد ر كفايته وهذا مبدأ عظيم سبق الإسلام إلى تقريره كل النظم والشرائع التي يلهج الناس بالثناء عليها في العصر الحديث.

ثالثاً - الخليفة : شروطه وفروضه وواجباته:

تعريف الخليفة: هو الرئيس الأعلى للدولة الذي يلتزم بإقامة الدين وتبدير مصالح الناس اقتداء برسول الله (ﷺ) «(١)» .

وحيث ثبت أن تولية الخليفة أو نصب الإمام واجب بالإجماع نظراً لأنه يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية وأن منزلته من الأمة كمنزلة الرسول (ﷺ) من المؤمنين، وله عليهم حق الولاية العامة والطاعة التامة، ولهم عليه أن يلتزم في إدارته وتشريعاته وأحكامه التي يصدرها بأن تتم وفقاً لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع صحابته، كان لا بد من توفر بعض الشروط، فيمن يتولى هذا المنصب المهم والخطير، وقد اجمع علماء الإسلام على أن شروط منصب الخلافة تتلخص في الشروط التالية:-

أولاً: أن يكون من أهل الولاية الكاملة(٢):

وهي أن يكون: مسلماً .. حراً .. ذكراً .. بالغاً .. عاقلاً.

فالإسلام : لأنه شرط في جواز الشهادة وفي صحة الولاية ولأن الغاية الأساسية من منصب الإمام هي تنفيذ شريعة الإسلام فكيف يمكن تنفيذ هذه الشريعة، أو كيف ترعى مصلحة الإسلام وأهله أن لم يكن متولى هذا المنصب مسلماً.

(١) د . صلاح الدين أيوب، الخليفة توليه وعزله.

(٢) النظريات السياسية الإسلامية.

والحرية : لأن نقص فاقدها عن ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته على غيره^(١) والمملوك لا يحق له شرعاً أن يتقلد رئاسة الدولة على رأي جمهور العلماء.

والذكورة : وذلك لأهمية المنصب وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق من يتولى هذا الأمر فيجب في مثل هذه الحالة أن لا تتعقد إمامة المرأة وذلك للأسباب التالية:-

أولاً: إجماع الأمة على ذلك ونهي الإسلام عن تولي المرأة منصب القيادة العليا وذلك لما يتحتم على الإمام من تولي الأمور العظام والمهام الجسام مثل قيادة الجيش ومحاربة الأعداء ومقارعة الأحداث وسياسة أمور الدولة وتحشم المصالح والمشايق التي لا تتحملها طبيعة المرأة التي فطرت على الرقة والعاطفة والحنان.

ثانياً: قوامة الرجل على المرأة بدليل قوله تعالى:-

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢).

وقوله الرسول عليه السلام: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"^(٣).

وعلى ضوء ذلك لا يجوز أن تتولى المرأة قيادة المسلمين وسياسة أمرهم.

ثالثاً: لا تملك المرأة أمر نفسها في بعض الأمور كالنكاح مثلاً فكيف تتولى أمر غيرها بإسناد الولاية إليها.

ويجوز والحالة هذه أن تتولى المرأة مناصب دون منصب الإمامة عند كثير من الفقهاء.

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٦.

(٢) سورة النساء الآية ٣٤.

(٣)

والبلوغ : لأن الصبي غير مكلف شرعاً لقول الرسول (ﷺ): (رفع القلم عن ثلاث، عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ).

من جهة أخرى فإنه لا عقد لغلام لم يبلغ ولا عقد عليه، والإمامة كما هو معروف تحتاج إلى عقد بين الإمام وبين أهل الحل والعقد.

وهو أيضاً مولى عليه فبطبيعة الحال لا يجوز أن يلي أمر غيره.

والعقل : فيجب أن يكون الإمام عاقلاً مميزاً لأن فاقده العقل غير مكلف شرعاً على أساس ما جاء في الحديث الشريف السابق " رفع القلم عن ثلاث وذكر المجنون حتى يفيق" لهذا لا يجوز ولاية المجنون لأن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب، علاوة على أن فاقده العقل لا يستطيع تدبير أمر نفسه فكيف به أن يقوم في تدبير أمر الدولة، لذلك لا بد أن يتميز رئيس الدولة بعقل راجح وذهن حصيف وإرادة قوية يتمكن من معالجة قضايا الأمة وإيجاد الحلول الشافية والناجعة لها.

ثالثاً- العدالة:

ويقصد بالعدالة الامتناع عن المحرمات والبعد عن الشبهات وهي من الشروط التي يجب أن تتوفر في الإمام أو الخليفة لأنه ينظر في سائر المناصب والوظائف التي تقتضيها مصلحة الأمة كالقضاء والقيادة والولاية والحسبة. وكل هذه المناصب لا بد من توفر العدالة لذويها انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١).

(١) سورة النساء الآية ٥٨.

والعدل كما هو معروف أساس الملك وصلاح العباد والبلاد وهو صمام الأمان الذي يضرب به الحاكم على يد المحكومين لينصف المظلوم من الظالم ويعطي كل ذي حق حقه.

رابعاً- الكفاية :

ويراد بها قوة الشخصية وصحة الرأي وشجاعة في اقتحام المخاطر وتحمل المناصب والقوة على معاناة السياسة والصبر على أساليبها المعقدة، وحيلها العجيبة حتى يتمكن الخليفة من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح^(١).

خامساً- سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل:

وقد أفاض الفقهاء في هذا الشرط وأوسعوه بحثاً ويكفي أن نورد التعريف الذي ذكره ابن خلدون في مقدمته بقوله "أما سلامة الحواس والأعضاء من النفي والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس، وما يؤثر فقده في الأعضاء في العمل: كفقد اليدين والرجلين فشرط السلامة منها كلها لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعله إليه، وإن كان مما يتبين في المنظر فقط كفقد أحد هذه الأعضاء فشرط السلامة منه شرط كمال"^(٢) وهذا الشرط واجب حتى يتمكن الإمام من أداء واجبه على أكمل وجه وأن يسير في طريق سليم وعلى منهج قويم.

سادساً- النسب :

والمراد بذلك النسب القرشي، وهو موضع خلاف بين العلماء، بينما جمهور المسلمين يشترطونه، ويحتجون لذلك بإجماع الصحابة على ذلك في يوم سقيفة بني ساعدة حينما احتج آنذاك المهاجرون على الأنصار لما هموا ببيعة سعد بن عبادة

(١) انظر المقدمة لابن خلدون ص ٣٢٢ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص ١٦١.

وقالوا "منا أمير ومنكم أمير" واعترض الصحابة بقوله (ﷺ) "الأئمة من قريش" وحينئذ عدلوا عنبيعة سعد بن عبادة وباعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

ويقول الإمام الغزالي "نسب قريش لا بد منه"^(١) وفي صحيح البخاري أن رسول الله (ﷺ) قال "لا يزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش".

ويعلل ابن خلدون لهذه السيادة القرشية بقوله "إن قريشاً كانوا عصبه مضر وأصلهم، وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة والكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم، فلو: جعل الأمر في سواهم لتوقع اختلاف الكلمة بمخالفتهم، وعدم انقيادهم، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف"^(٢).

والخوارج لا يشترطون النسب القرشي ويرونها حقاً لجميع المسلمين لا فرق بين عربي وعجمي، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(٣).

وقوله عليه السلام في حجة الوداع "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربيّ على أعجميّ فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد"^(٤).

ويقول القاضي أبا بكر الباقلاني: "لا ينبغي اشتراط القرشية" موافقاً بذلك رأى الخوارج، وذلك لما رآه من تلاشي عصبية قريش واضمحلالها واستبداد ملوك العجم على الخلفاء القرشيين.

ولكن الجمهور بقي على رأيه من اشتراط القرشية في الخلافة.

(١) الأحكام السلطانية.

(٢) أنظر مقدمة ابن خلدون.

(٣) سورة الحجرات الآية (١٣).

(٤) حديث شريف.

رابعاً- واجبات الأئمة الولاية:

قال الفقهاء ومنهم الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية ^(١) إن واجبات الأئمة والولاية تتلخص فيما يلي:-

- ١- حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة وتوضيح الحجة للمبتدعين والزائفين عن الصواب وأخذهم بما يلزم من الحقوق والحدود.
- ٢- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع ما بينهم من الخصومات.
- ٣- حماية البيضة والذبّ عن الحوزة، لينصرف الناس في معاشهم ويسيروا في الأسفار آمنين.
- ٤- إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف أو استهلاك.
- ٥- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الفاعلة حتى لا تظفر الأعداء بغرة فينتهكون بها محرماً، أو يسفكون بها دماً معصوماً.
- ٦- جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة، حتى يسلم أو يدخل في الذمة.
- ٧- جباية الخراج والصدقات على الوجه المشروع.
- ٨- تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير ودفعه في وقته من غير تقديم ولا تأخير.
- ٩- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال والأموال لتكون مضبوطة محفوظة.

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٨.

١٠- أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور، ويتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض متشاغلاً فقد يخون الأمين ويغش الناصح. وإذا قام الإمام بحقوق الأمة، وجب له عليهم حقان:

١- الطاعة.

٢- النصر : وذلك ما لم يتغير حاله فتخرج به عن الإمامة من حيث جرح في عدالة أو نقص في بدنه نحو نقص في الحواس أو في الأعضاء يمنعه من الإمامة.

الفصل الثاني

مراحل تطور الخلافة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الفصل الثاني

مراحل تطور الخلافة الإسلامية

بعد أن فرغنا من تعريف الخلافة الإسلامية وما إليها، فإنه يترتب علينا أن نذكر المراحل والعهود التي مرت بها الخلافة، ونستطيع أن نجزم بأنه من السهل الإحاطة بتلك المراحل التي مرت بها الخلافة، منذ بداية تأسيسها كخلافة راشدة في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ الموافق ٨ حزيران (يونيو) ٦٣٢م وحتى إلغائها كخلافة عثمانية في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ الموافق ٣ آذار (مارس) ١٩٢٤م، وذلك لتوفر المراجع والمصادر بين يدينا والتي تبحث في تاريخ هذه الخلافة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وبادئ ذي بدء أود أن أذكر أن الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها رسول الله (ﷺ) بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة سنة ٦١٧م، قد نهج في إقامتها سياسة الدمج بين السلطتين الدينية والدنيوية. وأن دستورها القرآن الكريم، ورأسها الرسول نفسه عليه السلام ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (١).

فسارت الدولة تنتشر العدل والمساواة والإخاء بين المسلمين في جزيرة العرب وتنتقل إلى الدعوة والجهاد ونشر الإسلام فيما وراء الجزيرة.

وينتقل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى في ١٢ ربيع الأول عام ١١هـ دون أن يعين من يخلفه لحكم المسلمين بل ترك الأمر شورى بينهم تاركاً لهم الحرية لاختيار من يتولى شؤونهم وسياسة أمرهم ولكن المسلمين وهم الحريصون على إحياء سنة رسول الله قد كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في

(١) سورة النجم الآيات ٤ ، ٥.

جماعة^(١) وبالفعل اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعده ليلبحثوا في من يكون إليه الأمر بعد الرسول (ﷺ) وتسامع الناس أن الأنصار يرون الأمر فيهم وسارع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لحسم الخلاف وتأخر دفن الجثمان الطاهر وهو عليهم جد عزيز - حتى انتهوا من أمر الخلافة وانتخبوا أبا بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين.

ومنذ هذا اليوم ولدت الخلافة الإسلامية ونمت وترعرعت وازدهرت وامتدت زهاء ثلاثة عشر قرناً.

يقول عنها الفقهاء "الخلافة هي الأصل الثاني عشر من الأصول الإسلامية وإقامتها واجب على الأمة"^(٢).

وكانت المرحلة الأولى من مراحل الخلافة تسمى بمرحلة الخلافة الراشدة .

أولاً - الخلافة الراشدة:

كان معنى إجماع الصحابة على وجوب إقامة من يخلف الرسول عليه السلام هو إجماعهم على وجوب بقاء واستمرار النظام الذي أقامه الرسول بالاشتراك معهم منذ قدومه إلى المدينة المنورة عقب الهجرة.

وكان هذا الاجتماع اجتماعاً تاريخياً له أكبر الأثر في تاريخ الأمة الإسلامية ففيه تقرر الإجماع على وجوب إقامة الخلافة، وفيه تقرر أيضاً مبدأ له أهمية كبيرة وهو أن اختيار الخليفة بالانتخاب من الأمة"^(٣).

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٧.

(٢) البغدادي الفرق بين الفرق.

(٣) النظريات السياسية الإسلامية ص ١٧٥.

ومرحلة الخلافة الراشدة التي تعتبر أزهى مراحل الخلافة الإسلامية على الإطلاق، وذلك لما تمتاز به من حيث كونها خلافة شورية انتخابية تمت بالمبايعة وليست بالوراثة كما حصل لما بعدها وتمتد من عام ١١هـ الى عام ٤٠هـ. وقد وصفها المؤرخ ابن طباطبا في كتابه الفخري بقوله:-

"أما الدولة الأولى وهي دولة الأربعة فإن ابتداءها كان منذ قبض رسول الله (ﷺ)، وبويع أبو بكر بن قحافة رضي الله عنه" وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة من الهجرة، وانتهأؤها حين قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك في سنة أربعين من الهجرة، وأعلم أنها دولة لم تكن طرز دول الدنيا وهي بلأمر النبوية والأحوال الأخروية أشبه والحق في أن زيتها قد كان زي الأنبياء وهداياهم الأولياء وفتوحها. فتوح الملوك الكبار" (١).

أما خلفاؤها الأربعة: فهم الخلفاء الراشدون:

- ١- أبو بكر الصديق: (١١ ١٣هـ) الموافق (٦٣٢ ٦٣٤م).
- ٢- عمر بن الخطاب: (١٣ ٢٣هـ) الموافق (٦٣٤ ٦٤٤م).
- ٣- عثمان بن عفان: (٢٣ ٣٥هـ) الموافق (٦٤٤ ٦٥٦م).
- ٤- علي بن أبي طالب (٣٥ ٤٠هـ) الموافق (٦٥٦ ٦٦١م).

رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا أعلام هداية ومنارات تقى وضربوا الأمثال الرائعة في الورع والزهد والإتصاف بالعدل والحكمة والبعد عن كل المحاذير والشبهات.

(١) محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطفطفا - الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية ص ٧٢.

وقد ساروا على ما رسمه رسول الله (ﷺ)، واعتمدوا في حكمهم على كتاب الله وسنة رسوله ومشاورة الصحابة بدون تحريف ولا تبديل ولا تحايل ولا انتحال. وتعتبر هذه المرحلة فترة مميزة وعلامة مضيئة في تاريخنا الإسلامي أجمع وذلك لما امتازت به من الحكمة والعدل وحسن النظام، وأدت بها من التنظيمات الرفيعة والأعمال الكبيرة والإصلاحات الجليلة وذلك على الرغم من قصر هذه الفترة في عمر الزمن، والتي نستطيع أن نجمل منجزاتها فيما يلي:-

أولاً: محاربة المرتدين الذين امتنعوا عن أداة الزكاة للخليفة والانتصار عليهم حتى عادت الأمور إلى نصابها، واستتب الأمن والأمان في البلاد كما كان عليه الوضع زمن الرسول عليه السلام.

ثانياً: العناية بالقرآن الكريم وجمعه على قراءة واحدة ونسخه وتوزيعه على الممالك والأمصار الإسلامية المختلفة.

ثالثاً: الفتوحات الإسلامية الواسعة التي قضت على دولتي الروم والفرس حيث اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فاشتملت بالإضافة إلى الجزيرة العربية ببلاد الشام والعراق ومصر وجزء من شمال إفريقيا وبلاد الفرس حتى حدود بلاد ما وراء النهر.

رابعاً: إظهار المهارة في بناء المدن في الأمصار المفتوحة وتجهيز الجيوش وبناء الأساطيل.

خامساً: حسن إتقان التنظيمات السياسية والإدارية التي تمثلت في اختيار الولاة وممثلي الوظائف الإسلامية كالقضاة وأصحاب الشرطة وأصحاب البريد وقيامهم بواجبهم خير قيام، وإنشاء الدواوين المختلفة كديوان الجند وديوان الخراج - بيت المال - وديوان العطاء ودور الحسبة والتي كان من مهامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، وبعض هذه التنظيمات هي من الأوليات التي لم تكن دارجة من قبل والتي استنها الخلفاء الراشدون.

وقد انتهت مرحلة الخلافة الراشدة بعد استشهاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم وذلك بعد صراع طويل مع معاوية بن أبي سفيان والي الشام على عهد الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، حيث نتج عن هذا الصراع موقعتي الجمل وصفين، وقتل فيهما خلق كبير من الطرفين إثر الفتنة التي حدثت بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، في منزلة على يد فئة باغية وعلى رأسهم اليهودي عبد الله بن سبأ، حيث عاثت فساداً واستغلت طيبة الخليفة فراحت تبتث الفتنة بين صفوف المسلمين التي كان من أثرها انتهاء فترة الخلافة الراشدة.

وبذلك طويت صفحة ناصحة من صفحات تاريخنا الإسلامي المشرف "عصر الخلفاء الراشدين" عصر الخلافة الصحيحة الشرعية والكاملة وهي الإمامة التي ينطبق فيها الواقع على المثال^(١).

ثانياً - مرحلة الخلافة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ)

يمكن القول بأن الدولة الأموية بدأت بعد استشهاد آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه إثر موقعة "صفين" وقد آلت الخلافة إلى ابنه الحسن بن علي رضي الله عنه الذي تنازل عنها بعد عدة شهور - لصالح معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ (٦٦١م) بغية إصلاح وحسم النزاع القائم بين المسلمين الناتج عن الفتنة التي حصلت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه كما سبق ذكره.

وقد سُمّي العام باسم "عام الجماعة" لاجتماع المسلمين حول معاوية ومبايعته بالخلافة.

(١) النظريات السياسية الإسلامية ص ١٨٥.

وهكذا قامت الدولة الأموية والتي سميت بهذا الاسم نسبةً لأمية بن عبد شمس بن عبد مناف. الجد الثالث لمعاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول (٤١ - ٦٠هـ) أحد دهاة العرب وخبير السياسة المحنك، الذي حكم قرابة عشرين عاماً، اهتم فيها بإصلاح الأحوال الداخلية للدولة الوليدة، والهيمنة على الوضع المتوتر، حتى استقام له الأمر، فأنجه بعدها إلى الفتوحات الخارجية في أواسط آسيا وشمال إفريقيا، واعتنى بالبحرية الإسلامية، وبنى مراكز لصناعة السفن، وطور الأسطول الإسلامي الذي أصبح يجوب البحار مدافعاً عن بلاد الإسلام ومجاهداً في سبيل الله.

وقد تعاقب على الحكم في عهد الخلافة الأموية - التي استمرت من عام ٤١هـ - ١٣٢هـ - أربعة عشر خليفة: أولهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم.

وظهر من بينهم الخلفاء العظام مثل: عبد الملك بن مروان الذي يعتبر المؤسس الثاني لدولة بني أمية، وولده الوليد بن عبد الملك الذي اشتهر بالفتوحات العظيمة وبناء المساجد، ومنهم عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) الذي يطلق عليه: خامس الخلفاء الراشدين بسبب سيرته العطرة وعدله الشامل والذي كان "المنزل الكامل في التقوى والورع، فأعاد رونق الإسلام، وجدّد حياة الدولة على أساس العدل والعمل لصالح الأمة الإسلامية، فكان عهده غرةً في جبين الدولة الإسلامية"^(١).

وقد أصبحت الدولة العربية في هذا العهد من أقوى وأرقى الدول في العالم أجمع آنذاك.

(١) النظريات السياسية الإسلامية.

أهم المميزات والإنجازات في الدولة الأموية:

بالرغم من قصر عمر الدولة التقريبي الذي لم يبلغ القرن من الزمان إلا أنها أنجزت أعمالاً هامة، وكان لها سجلاً حافلاً بالأمجاد والبطولات والآثار المجيدة نوجزها فيما يلي:-

أولاً - اتساع الفتوحات الإسلامية وامتدادها نحو ثلاثة ميادين مشهورة هي:-

١- ميدان الحرب ضد الروم آسيا الصغرى، حيث شمل حصار القسطنطينية، والوصول إلى جزر البحر المتوسط، التي أصبحت معظمها جزراً عربية إسلامية.

٢- ميدان الشمال الإفريقي: وامتد هذا الميدان على طول دول شمال إفريقيا حتى المحيط الأطلسي، ومنه عبرت الجيوش الأموية مضيق جبل طارق وفتحت الأندلس وواصلت فتحها إلى الحدود الجنوبية من فرنسا

٣- الميدان الشرقي: وقد امتد هذا الميدان وتفرع إلى فرعين، اتجه أحدهما شمالاً إلى بلاد ما وراء النهر التي تقع بين نهري جيحون وسيحون في قلرة آسيا، واتجه الثاني جنوباً إلى بلاد السند وشبه القارة الهندية.

ثانياً - الاهتمام بتحسين الأوضاع الاقتصادية في مجالاتها المختلفة.

الزراعية والصناعية والتجارية، نحو حفر الآبار وشق الطرق وبناء السدود واستصلاح الأراضي وزراعتها بمختلف المحاصيل، وكذلك صناعة المنسوجات، والصناعات الجلدية والجبسية وغيرها، وازدهرت فيها التجارة الداخلية بين الأقاليم، الخارجية وبينها وبين الدول المجاورة.

ثالثاً - الاهتمام بفن العمارة، وبناء المساجد العظيمة وخاصة، توسعة الحرمين الشريفين، والمسجد الأقصى المبارك والمسجد الأموي في دمشق، وكذلك

تشديد القصور على جوانب الصحراء لإحياء تلك المناطق، وبناء الخانات والاستراحات على الطرق وفي الولايات البعيدة لإقامة المسافرين والغرباء.

رابعاً - إنشاء المستشفيات والمصحات، والعناية بالمقعدين والمكفوفين والمرضى، والاهتمام بعلم الطب والكيمياء وقد اشتهر منهم الكثير من العلماء والأطباء.

خامساً - تعريب الدواوين، وتطوير الأنظمة الإدارية، وضرب النقود الإسلامية الخاصة، فصارت للدولة بذلك عملتها النقدية الخاصة بها والمستقلة عن الفرس والروم.

سادساً - ازدهار الحركة العلمية والثقافية :

فقد ازدهرت الحركة العلمية في القصر الأموي في جميع أقاليم الدولة الإسلامية، وفي مختلف التخصصات، كالعلوم الشرعية والعقلية، وبرعوا في علوم اللغة والشعر والخطابة والتاريخ، وقاموا بتشكيل المصحف وتنقيط الحروف العربية.

وقد ظهر الكثير من العلماء والمؤلفين في هذا العهد، وما تزال مؤلفاتهم شاهدة على ما بلغوه من نتاج العلم والمعرفة.

عوامل ضعف الدولة الأموية وانهارها:

بينما كانت حدود الدولة الأموية تتسع وتمتد ذات الشرق، وذات الغرب، وأصبح الأمر يتطلب وجود خلافة منيعة وخلفاء أقوياء ... انعكس الأمر وضعف الخلفاء وخاصة في الفترة الأخيرة من عهد الدولة، وتعلق أكثرهم بالمتع الحسية اللهو والترف، وانصرفوا عن شئون الحكم وتدبير أمر الأمة الأمر الذي أدى إلى ضعف الدولة وبالتالي إلى سقوطها:-

ونستطيع إجمال الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة فيما يلي:-

١- نظام توليه العهد:

كانت ولاية العهد نقطة تحول جديد في نظام الخلافة، حيث دخلت في مبدأ وراثي لم يكن معهوداً من قبل، مما جعلها تنحصر في بيت واحد أو أسرة واحدة، وفي ذلك ظلم ظاهر للرعية من جهة، وللخلافة نفسها من جهة أخرى، وكان أول من فعل ذلك واستنه معاوية بن أبي سفيان عندما عهد لابنه يزيد بالخلافة فأصبحت بدعة متبعة، وأدخلها في متاهات متشعبة لا يزال العالم الإسلامي يقاسي منها حتى اليوم. ومما زاد الأمر إشكالاً أن بعض خلفاء بني مروان صاروا يعهدون إلى اثنين من أبنائهم لولاية العهد واحد يلي الآخر "من غير استثناء الصغير والضعيف الذي لا يقوى على تحمل الأعباء، وهو مما أضعف دولتهم وفسح المجال لتتحدث الألسنة وتسجل الأقلام ما نشاء" (١).

وذلك عندما استفحل الانشقاق في البيت الأموي الحاكم، وتفتتت القوى داخله، نتيجة النزاع على السلطة وتدبير المؤامرات والمكائد ضد بعضهم البعض، الأمر الذي ساهم مع غيره من الأسباب في ضعف الدولة الأموية.

٢- العصبية القبلية:

نهى الإسلام عن العصبية القبلية والتفرقة العنصرية، وحاول قدر الإمكان طمس هذه العادات وإعفاء أثرها عليها وذلك امتثالاً لقوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢)

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ج ٩ ص ١٤.

(٢) الحجرات الآية ١٣.

وقوله عليه السلام عن العصبية "ادعوها فإنها منته".

ولكن بعض الخلفاء الأمويين وولاتهم وقادتهم استغل ضعف الوازع الديني لدى بعض الناس فعمل على إحياء العادة الجاهلية فأصبح يناصر بعض القبائل العربية دون بعضها الآخر، وأحياناً يقوم بإذكاء نار التفرقة والعداوة بين هذه القبائل وخاصة بين القبائل اليمنية والقيسية والمضرية وذلك مما ساعد على إشغال روح العصبية بين هذه القبائل، وتمزيق القوى، وبعثرة الجهود، في الوقت الذي يجب أن تكون فيه سنداً للدولة وعماداً لها.

٣ - ظهور الشعبوية:

كردة فعل على ما أشيع عن الدولة الأموية من أنها تقوم على العصبية العربية وتعتمد العنصر العربي في تولي المناصب الهامة وسياسة أمور الدولة، فقد ظهرت نتيجة لذلك موجة من الانتقاد والتشويش الحادين ضد الأمويين آثارها الموالى - وهم المسلمون من غير العرب - واندفعوا إلى إثارة النقمة وتأييد أي حركة تقاوم الدولة الأموية.

وهذا ما يطلق عليه بالحركة الشعبوية، التي قويت وازدهرت نتيجة تسامح بعض الخلفاء مع هذه الفئات، وإفساح المجال لها للتعبير عن رأيها في بعض الأحيان، الأمر الذي ساهم على إسقاط الدولة، وسوف يكون لهذه الحركة دور كبير في حياة الدولة العباسية، ومن ثم إضعافها والقضاء عليها كما سيأتي.

٤ - موقف الفرق الإسلامية من الخلافة الأموية:

يمكن القول بأن أسباب سقوط الدولة الأموية تتداخل مع بعضها البعض، فبعد أن انتهج الأمويون مبدأ العهد من بداية عهدهم، دبَّ الخلاف بين بعض الفرق الإسلامية مثل الخوارج والشيعة حول الشروط الواجب توافرها في الخليفة، وخاصة فيما يتعلق بولاية العهد التي يعارضها الكثير. وقد ثارت بعض هذه الفوق

ضد الخلافة حيث ترتب على ذلك الدخول معها في معارك كصادمات الأمر الذي دعا بعض القادة الأمويين للتصدي لهم وذلك مما ساهم في إضعاف الدولة.

٥- ضعف بعض الخلفاء المتأخرين واستهتارهم، وانشقاق البيت الأموي على نفسه.

فقد تولى الخلافة في أواخر أيام الدولة خلفاء ضعاف، مالوا إلى حياة السرف والفساد، واستهتروا بالقيم الروحية والتقاليد الاجتماعية مما أدى إلى نقمة الكثير من المسلمين عليهم وعدم الثقة بهم.

٦- ظهور الدعوة العباسية:

وهذا السبب من أهم الأسباب التي قصمت ظهر الخلافة الأموية ، فقد ظهرت الدعوة العباسية نشطة قوية في أخريات أيام الدولة الأموية، وفي مكان بعيد عن مركزها، فاجتاحت الدولة الأموية وقتلت آخر خلفائها وتمكنت من إسقاطها.

"وعندما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ولقى مروان المسكين مصرعه في حلوان بمصر، كان كتاب التاريخ يطوي إحدى صفحاته .. يطويها بعنف لأن أبطالها أرادوا لأنفسهم هذا .. حين راحوا ينفصلون عن ضمير الأمة ووجدانها، ويعزلون أنفسهم عن شعوبهم .. بطبقة من العمال الظالمين الغاشمين^(١).

ثالثاً - مرحلة الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦هـ - ٧٥٠م):

عندما قامت الدولة العباسية، واحتلت مكانها على مسرح التاريخ كبديل للدولة الأموية التي غربت شمسها، فإنها لم تقم من فراغ أو جاءت فجأة وبمحض الصدفة، ولكن كان هناك العديد من العوامل والمقومات التي تشابكت أطرافها وتعاضدت جهاتها وأسهمت مجتمعة في بناء الدولة الوليد، التي ظهرت قوية منذ ساعاتها الأولى.

(١) د . عبد الحليم عويس. أوراق ذابلة من حضارتنا.

فبالإضافة إلى الدعوة السريّة التي نجح في تنظيمها محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) الذي كان يسعى من خلالها لإسقاط الدولة الأموية، وما تبعها من تنظيم "الجمعية السريّة" التي تألفت سنة ١٠٠هـ على يد: محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في بلدة "الحمية" الواقعة جنوب بلاد الشام والتي انتهجت منذ بدايتها الدعوة إلى الرضا من آل محمد وتأييد آل البيت وما تروثيه من أحقيتهم بالخلافة، ثم ما تبع ذلك من الدعوات الجهرية التي ارتفع خطّها البياني عام ١٢٩هـ عندما أعلن "أبو مسلم الخرساني" أحد دعاة العباسيين وقائدهم إعلان التمرد والطغيان على الأمويين في قرية من قرى "مرو"^(١) وتحصن بها ورفع الراية السوداء إعلاناً لبدء المصادمة المسلّحة مع الأمويين. الذين كانت تتناوبهم عوامل ضعف شديد كان لها أكبر الأثر في إسقاط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

وهكذا قامت الدولة العباسية التي ورثت عن الأمويين دولةً مترامية الأطراف، شاسعة المساحات حدها الشرقي على حدود الصين، وحدها الغربي على شواطئ الأطلسي، وحدها الشمالي شواطئ بحر قزوين، والجنوبي أواخر بلاد النوبة بين مصر والسودان.

وقد سميت الدولة العباسية بهذا الاسم: نسبة إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي صلى الله عليه وسلم، ووالد عبد الله بن عباس الصحابي الجليل .. الجد الثالث لمؤسس هذه الدولة: "أبو العباس السفاح" الذي بويع له بالخلافة سنة ١٣٢هـ في الكوفة بالعراق، وقد تعاقب على الخلافة سبع وثلاثون خليفة أولهم "أبو العباس السفاح" المذكور وآخرهم "المستعصم بالله" الذي بويع له بالخلافة سنة ٦٤٠هـ وانتهت فترة حكمه سنة ٦٥٦هـ وبموته انقضت دولة بني العباس بعد أن عمرت قرابة ٥٢٤ سنة.

(١) محمود شاكر التاريخ الإسلامية / مرجع سابق.

برز من خلفاء بني العباس عدد لا بأس به من الخلفاء الأقوياء الذي كان لهم دور كبير وأثر بارز في التاريخ الإسلامي ككل، وأولهم أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨) ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية "الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس، واخترع أشياء، وهو الذي بنى مدينة بغداد" (١) التي جاءت على أحسن نسق وأجمل تنظيم وأصبحت من ذلك الحين منارة من منارات الحضارة الإسلامية.

ومنهم هارون الرشيد (٧٠ / - ١٩٣هـ) الذي أثبت بأعماله وحسن تدبيره بأنه أنضج عقلية في بني العباس، وهو الذي حارب الروم وفتح الفتوحات وكان يحج عاماً ويغزو عاماً وقد نكب البرامكة، وقلص بذلك من دور الشعوبية التي استشرت في البلاد وانتشرت.

وبرز منهم أيضاً المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) رجل العلم والحكمة والترجمة، وصديق العلماء والأدباء، وقد كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال، وله فضل كبير على الدولة والرعية، وقد قال بخلق القرآن وحصلت بذلك فتنة كبيرة بين المسلمين.

ومنهم المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) فاتح عمورية وقاهر الروم الذي كانت أيامه فتوح وحروب وهو الذي بنى مدينة سرمن رأى (سامراء) وأصبحت عاصمة له بدل بغداد.

ثم المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي كان مولعاً بالعمران وإحياء الأرض الموات، وقد عهد من بعده بالولاية إلى ثلاثة من أبنائه وهم:-
المنتصر، المعتز، والمؤيد، وقسم الدولة فيما بينهم سنة ٢٣٥هـ.

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية.

وقد قتل الأتراك سنة ٢٤٧هـ بعد أن حاول أن يفتك بهم، ومنذ هذه الحادثة أصبح الأتراك هم المتصرفين في شؤون الدولة.

وانتهى بذلك العصر الأول من دولة بني العباس، والذي يطلق عليه المؤرخون، عصر الخلفاء الأقوياء.

وبعد ذلك تعاقب على الخلافة مجموعة من الخلفاء الضعفاء، لم يكن لهم دور يذكر في إدارة شؤون الدولة حتى سقطت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ، وذلك عندما هاجم التتار بقيادة هولكو "بغداد" وقتلوا الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين.

وقد قسم المؤرخون المرحلة التاريخية التي مرت بها الدولة العباسية خلال تاريخها الطويل إلى أربعة أدوار وهي:-

١- دور الخلفاء الأقوياء: ويبتدئ بتولي السفاح سنة ١٣٢هـ وينتهي كما ذكرنا بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ حيث أصبح القادة الأتراك هم المشرفين على إدارة الدولة تماما والموجهين للخليفة في كل شيء ولم يبق للخليفة سوى الاسم فقط.

٢- دور نفوذ الأتراك: ويبتدئ منذ سنة ٢٤٧هـ إلى ٣٣٤هـ وفي هذا الدور انفصلت كثير من الولايات عن بغداد.

٣- دور نفوذ بني بوية: ويبتدئ منذ سنة ٣٣٤ - ٤٤٧هـ وهم من الفرس دعاهم الخلفاء لتخليصهم من سيطرة القادة الأتراك، وقد شجعوا الحركات الأدبية والعلمية.

٤- دور نفوذ السلاجقة الأتراك: ويبتدئ منذ سنة ٤٤٧هـ - ٦٥٦هـ وقد دعاهم الخلفاء لتخليصهم من البويهيين - وينسبون إلى سلجوق أحمد

زعمائهم في بلاد تركستان، وفي عصرهم تعرض العالم الإسلامي لغزوتين خارجيتين هما:-

- (١) الحملات الصليبية على بلاد الشام.
- (٢) الغزوات المغولية والاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م.

أهم المميزات والإنجازات في الدولة العباسية

نظراً لاتساع مساحة الدولة العباسية التي ورثتها عن الدولة الأموية وصعوبة الاستمرار في التوسّع والفتوحات خارج حدودها فقد اهتم الخلفاء العباسيون بالمحافظة على حدود الدولة والاستغلال بتطوير التنظيمات الداخلية في مختلف المجالات، مع الاهتمام الزائد بالجوانب العلمية والثقافية وإيرازها إلى الوجود، وفيما يلي نقدم بعضاً من هذه المظاهر بصورة موجزة:-

(١) الاهتمام بالعلم والأدب وتشجيع العلماء والأدباء وحضهم على التأليف والكتابة في مختلف العلوم والفنون، ومن اهتمامات الخلفاء بالعلماء تقديم الرواتب الدائمة لهم، وتقدير مؤلفاتهم حتى إن بعضهم كان يقدم وزن هذه الكتب من الذهب جائزة لها، ونتيجة لهذا الاهتمام ظهرت أول جامعات في العالم في كل من بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها.

(٢) الاهتمام بالعمارة والبناء في شتى الميادين وخاصة في عمارة المدن، حيث بنى السفاح هاشمية الأنبار وبنى المنصور بغداد، وبنى المعتصم سامراء، وبنى المتوكل المتوكلية. كذلك اهتموا ببناء المساجد وتجديد القديم منها وخاصة الحرمين الشريفين كما اهتموا ببناء الحصون والقلاع الحربية في ثغور وعواصم الدولة.

(٣) إحداث منصب الوزير لأول مرة في الدولة الإسلامية حيث كان هذا المنصب الذي هو المنصب الثاني في الدولة يساعد الخليفة في إدارة شئونها

وأول وزير في هذه الدولة هو "أبو سلمه الخلال" وكان يلقب بوزير آل محمد.

(٤) العناية بالدواوين وإدخال التحسينات عليها وإضافة دواوين جديدة كديوان الزمام، وديوان الأكرة الذي يهتم بأحوال المزارعين والصناع، وديوان الأحداث، والشرطة وغيرها من الدواوين.

وفي ختام الحديث عن هذه الدولة لا بد أن نذكر أنها أنجبت حضارة عريقة كان لها أثر كبير في الحضارات التي جاءت بعدها إلى يومنا هذا.

ضعف الدولة العباسية ونهايتها وأسباب ذلك

تضافرت عوامل عدة لتقويض وإسقاط الخلافة العباسية أهمها كثر أصحاب النفوذ الذين خرجوا على الخلافة وتناحروا فيما بينهم على السلطة، فقد أصبح الخليفة العويبة في أيديهم ليس له إلا الاسم في أفضل الحالات، فعم الفساد وكثرت المخالفات وطمع بها الأعداء، فجاء الصليبيون من الغرب وأحرزوا بعض النصوص، وجاء المغول من الشرق واستطاعوا بقيادة هولاكو أن يدخلوا بغداد، وبذا سقطت الدولة العباسية، ويمكن إسناد الضعف للعوامل التالية:-

١- ولاية العهد:

مثلما حصل للأمويين من الآثار السيئة التي ترتبت بسبب تولية العهد بشكل عام، ولأكثر من واحد بشكل خاص - فإن الأمور تعقدت أكثر لدى العباسيين نتيجة هذه العادة، وحدثت من جرائها فتن هوجاء وعواقب وخيمة، وذلك كالفتنة التي حدثت بين الخليفين الأخوين: الأمين والمأمون وأنصارهما وجرت على الدولة العواقب السيئة التي ساهمت في إضعافها والقضاء عليها فيما بعد.

٢ - العناصر الطارئة على الدولة:

في بداية العهد العباسي قامت بعض الأجناس غير العربية الطارئة على الدولة مثل الفرس بمساعدة العباسيين على تولي الحكم فقلدهم العباسيون المناصب العالية سواء المدنية منها أو العسكرية، ولكن هؤلاء أخذوا يستغلون هذه المناصب لمصلحتهم الخاصة ولإعادة أمجاد الفرس القديمة، وحاولوا طمس الجنس العربي وحجبه عن التفاعل مع الأحداث ولكن الخلفاء تنبهوا لهم وقضوا على طموحاتهم هذه، ومن ثم القضاء عليهم، ثم حاول الترك أن يلعبوا نفس الدور فاستغلوا نفوذهم أسوأ استغلال، وأشرفوا على شؤون الدولة حتى أصبح بيدهم تولية الخليفة أو عزله. مما أضعف هيبة الخلافة وأضاع لها مكانتها، خاصة أنه لم يكن هناك الجيش النظامي المتكامل للحكومة الذي يمكنه تصحيح الأوضاع في حالة جنوح طائفة من طوائف الدولة عن الجادة المستقيمة وإعادة الأمور إلى نصابها.

من جهة أخرى كان "لظهور حركات التمرد الديني كالقرامطة والحشاشين دور كبير في ضياع "الوحدة العقائدية" ضياع كثير من مثل الإسلام الصافية خلال هذه العصور، وفي خلق جوٍّ من الفوضى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية"^(١).

كذلك فقد أثر الصدام المرير والصراع الدامي بين المذاهب الإسلامية المختلفة وخاصة المذهبين السني والشيعة تأثيراً كبيراً على الدولة مما أفسح الفرصة للطامعين بخيراتها والمتربصين بها للقضاء عليها، وهذا ما حصل بالفعل عندما هاجمها التتار وقضوا عليها.

٣ - اتساع رقعة الدولة الإسلامية :

أدى هذا الاتساع إلى وجود مصاعب جمة في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها، وخاصة في العصر العباسي الثاني عندما أخذ الخلفاء إلى الراحة والترف،

(١) د . عبد الحليم عويس. أوراق ذابلة من حضارتنا.

واتصفوا بالإسراف والتبذير مما أوقع الدولة في حالة تدهور اقتصادي أفقدها عنصراً من عناصر قوتها وتماسكها. الأمر الذي أدى إلى انفصال بعض الأقاليم عنها، واستقلالها استقلالاً داخلياً، ثم تحول هذا الاستقلال إلى استقلال شبه تام أو استقلال تام. وانقسم العالم الإسلامية الذي كان يعيش في ظل خلافة واحدة إلى ثلاث خلافات:-

١- العباسية في العراق. ٢- والفاطمية في مصر. ٣- والأموية في الأندلس وقد كانت كل خلافة تسعى لإضعاف الأخرى والقضاء عليها.

٤- أطماع الدول الخارجية:

إن الضعف الذي أصاب الدولة قد أطمع فيها الأعداء، فجاء الصليبيون من الغرب وأحرزوا بعض النصر، وجاء المغول من المشرق تحت تأثير النعمة والسلب وتشجيع الصليبيين واستطاع هولاكو من دخول بغداد بسبب خيانة بعض سكان البلاد وبذلك سقطت الدولة العباسية.

٥- أسباب أخرى:

كان للأسباب السالف أثر كبير في القضاء على الخلافة العباسية وسقوطها "بيد أن أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين إهمالهم لركن هام من أركان الإسلام .. وهو (الجهاد).

فبعد المعتمد المتولي أمور الدولة سنة (٨٨٣م) لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يعد مبدأ "الجهاد الدائم" حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف .. أحد أركان السياسة العباسية.

لقد تفوقوا في مشاكل الدولة الداخلية، فحصرتهم مشاكلها وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو "الجهاد" ضد الصليبيين لتغير أمر الحركات الهدامة

التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد، والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية ويذيب المعدن الرخيص. لقد كانت حاجة الخلافة الإسلامية ملحة في رفع راية الجهاد، وكانت تحتاج إلى هذا الصمام من جو السكون والاستسلام^(١).

رابعاً- العهد المملوكي (٦٥٨ - ٩٢٣هـ)

حمل المماليك في مصر المسؤولية، وكانوا أشقاء للسيف، والرمح هو هويتهم، وهو مؤهلهم للحياة والبقاء .. وعلى امتداد تاريخهم كان السيف مقروناً بهم وكانوا عضد الدولة الإسلامية في كثير من المواقف، وكانوا حمايتها من أعدائها، ولقد شكلوا مجتمعاً ذا هوية خاصة، له أسلوبه الخاص في الحياة، وله تربيته الخاصة، وله فكره الخاص .. لقد كان مجتمعهم أشبه ما يكون بالمجتمع العسكري أو المجتمع البحري الذي يعيش للبحر أو الجندية، فالجندية عقله وهي عاطفته ولا ولاء عنده لسواها ..^(٢)

وقد سار سلاطين المماليك البحرية والبرجية على وتيرة أسلافهم وسادتهم الأيوبيين سواء بالنسبة للنظم الإدارية، أو توجيه عنايتهم إلى العلوم والفنون والتقدم في ميدان العمارة كبناء المساجد والمدارس والرباطات وغيرها، كما رفعوا لواء الجهاد منذ استيلائهم على الحكم، وتمكنوا من وقف المد المغولي، ثم الانتصار عليه، وقد نصبوا خليفة في القاهرة، من أسرة بني العباسي، كان صورة لهم، وهم يتصرفون باسمه ويحملون لقب سلطان.

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ومن أشهرهم السلطان برقوق والظاهر بيبرس - قائد معركة عين جالوت ضد الصليبيين - وقانصوه الغوري الذي سقط تحت سنايك خيل السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧م.

ولقد لعب المماليك في تاريخنا دوراً لم تقم به إلاّ دول قليلة في التاريخ، فقد صدوا غارتين حضاريتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخنا وتاريخ الإنسانية.

كانت الأولى يمثلها زحف هولاءكو حيث وقفوا أروع وقفاتهم في صده في معركة عين جالوت الشهيرة رافعين راية وإسلاماه.

ثم كانت الثانية في معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذي تهاوت قلاعهم أمامهم، وطوي على أيديهم آخر صفحات الغزو الصليبي، والذي استمر قرناً من الزمان.

ولقد تضافر على إنهاء الدور الذي قام به المماليك ظروف عالمية كاككتشاف رأس الرجاء الصالح، وظروف إسلامية كبروز الأتراك، ثم محمد علي، وظروف داخلية كانقسامهم على أنفسهم، وكان أكبر الأسباب التي هوت بهم وزحزحتهم عن مكانتهم في التاريخ، هو نسيانهم الرسالة التي عاشوا من أجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها، وحين الجهاد فقد نسوا السيف، وتبدلوا عند أسلوب معين، ولم يطوروا أنفسهم، بل إنهم انقلبوا من حماية الأمة إلى متسلطين عليها، يمنعون حركتها وتطورها.

وبذا فقدوا دورهم في التاريخ وسقطوا بعد أن أدوا للحضارة الإسلامية الكثير وأنقذوها من أكبر خطرين عالميين هما التتار والصليبيين.

خامساً- العهد العثماني:

توطئة:

تعرض تاريخ العثمانيين من قبل أعداء الإسلام ومن جاراتهم من المفرطين من أبناء العرب والمسلمين إلى كثير من الدس والتحريف كما لم يتعرض له تلريخ دولة أخرى في العصر الحديث، بل لقد حاول الكثير من هؤلاء المؤرخين وبشتى الوسائل تشويه تاريخ الخلافة العثمانية، والإساءة إلى سمعة الخلفاء والسلاطين، وغمطهم كثيراً منهم حقوقهم ومكتسباتهم.

لكن هذا التاريخ وخاصة في الآونة الأخيرة، لم يعدم بعض المنصفين من المؤرخين، الذين كشفوا عن نصاعته ودوره الكبير في الدفاع عن حوزة المسلمين ومقارعة أعدائهم والطامعين بهم أو.

ونحن هنا لسنا في موقف الدفاع عن العثمانيين وتاريخهم إلا بقدر ما يهمنّا من تلمس طريق الحق والصواب وسط ذلك الضباب الكثيف والتعميم المريب الذي حفّ بهم وألصق بتاريخهم، ولعل من الإنصاف هنا أن نذكر بأن العثمانيين بشر كغيرهم من خلق الله يصيبون ويخطئون، يقوون ويضعفون، وقد أثبت لنا التاريخ أنه ظهر منهم العديد من الخلفاء الأقوياء الذين خدموا الإسلام والمسلمين وكانوا غرة ناصعة في جبين التاريخ الإسلامي المجيد، وكذلك ظهر منهم الخلفاء الضعاف الذين حادوا عن جادة الصواب، ولم تسعفهم الظروف في احتذاء حذو أسلافهم ونظرائهم من الخلفاء الأقوياء، ولعلنا نكون محقين إذا اعتبرنا أن الإغراءات التي تعرض لها هؤلاء الخلفاء والمؤامرات التي حيكت ضدهم من أعداء الإسلام كانت فوق قدرتهم واحتمالهم، فسقطوا أمام هذه المغريات، وكان سقوطهم كارثة على الدولة، ساهم مع العديد من الأسباب في إضعاف ومن ثم إسقاط الدولة العثمانية.

وعلى كل حال ففي الصفحات التالية سوف نذكر من تاريخ العهد العثماني ما يلقي الضوء بشكل مبسط ومختصر على هذا العهد الطويل - بإيجابياته وسلبياته، منذ بداية كقبائل بدائية تتلمس طريقها في هذا الوجود، وحتى سقوطها ونهايتها كأخر خلافة إسلامية، مع التركيز على الأسباب والعوامل التي أدت إلى هذا السقوط.

العهد العثماني

عندما سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة ٦٥٨هـ تولى الأمر المماليك المصريون الذين تصدوا للمغول ورفعوا راية الجهاد واستأثروا بالحكم كسلاطين تحت ظل الخلافة العباسية التي انتقلت إلى القاهرة ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان، حتى كانت نهايتهم سنة ٩٢٣ هـ على يد السلطان العثماني سليم الأول الذي تسلم مقاليد الخلافة من العباسيين بعد ما تنازل له عنها آخر خليفة عباسي وهو محمد المتوكل على الله.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٣٤٢هـ الموافق ١٩٢٤م. يطلق على هذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي العهد العثماني، أو مرحلة الخلافة العثمانية.

والعثمانيون الذين تسمى الخلافة باسمهم يرجعون في نسبهم إلى قبائل الغزو التركية في بلاد تركستان، الذين غادروا هذه البلاد برئاسة زعيمهم "أرطغرل" وذلك بعد احتياج المغول لها بقيادة "جنكيزخان" واستقروا بين ظهراي الأتراك السلاجقة على هضاب آسيا الصغرى جنوب القوقاز. وكان ذلك في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، الثامن الهجري على عهد السلطان علاء الدين السلجوقي (سلطان قونية) حيث انضموا إليه في حربه ضد البيزنطيين، فكافأهم بأن منحهم منطقة أسكي شهرة على حدود الدولة البيزنطية، وبذلك يكون قد تحدد الموقع الجغرافي للإمارة

العثمانية، وكان من نتيجة ذلك أن تمكنت هذه الإمارة من الاستيلاء على الدولة البيزنطية، ومعظم البلقان قبل أن تتمكن من بسط نفوذها على شبه جزيرة الأناضول، وإخضاع الإمارات التركية الأخرى لها.

وعندما توفي "أرطغرل" سنة ١٢٨٨م خلفه ابنه "عثمان" الذي تنسب الدولة العثمانية إليه وعلى يد "عثمان" هذا تحولت الجماعات العثمانية من أسلوبها القبلي إلى أسلوب الدولة، فقد تمكن من الاستيلاء على مدينة "وقره حصار" واتخذها عاصمة له.

وخلف عثمان ابنه "أورخان" الذي هاجم أملاك الدولة البيزنطية فاستولى على "بروسه"، واتخذها عاصمةً له، كما استولى على "أنقره" و "نيقية" و "نيقوميديا" وفي آخر عهده أنشئ نظام "الانكشارية".

واستمر ملوك العثمانيين في الفتوحات في بلاد البلقان والأناضول وشرق أوروبا حتى تمّ لهم تتويج هذه الفتوحات بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بقيادة السلطان محمد الثاني. أو "محمد الفاتح" أعظم السلاطين العثمانيين - الذي اتخذها عاصمة للدولة العثمانية، منهياً بذلك عصوراً طويلة من الصراع السياسي والعسكري والمذهبي، بين الدولة البيزنطية والعالم الإسلامي.

وتعاقب على الدولة التركية عدد من السلاطين كانت حياتهم تتراوح - بين مد وجزر وانبساط وانقباض حتى استولى السلطان سليم الأول بن بايزيد على الحكم، سنة ١٩١٨ - ٩٢٦ (١٥١٢ - ١٥٢٠) يعتبر عهده نقطة تحول في تاريخ العثمانيين، وبه ابتدأ عهد الخلفاء الذين عبروا مرحلة جديدة امتازت بالاهتمام بلمر الأمة الإسلامية والعمل على توحيدها والوقوف أمام القوى المعادية لها صفاً واحداً. ذلك أن العثمانيين وجدوا أنفسهم أقوى دولة إسلامية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي بالمقارنة مع الدولة الصفوية في إيران وقسم من العراق، ودولة المماليك

في مصر وسوريا والجزيرة العربية، إضافة إلى بعض الإمارات والسلطنات الصغيرة في شمال أفريقيا.

ونظروا حولهم فوجدوا أن هناك قوى خارجية تتهدد الوطن العربي المتآخم لحدودهم، سواء من شماله أو جنوبه، متمثلة في البرتغال وأسبانيا وفرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط، بالإضافة إلى قوة البرتغال البحرية في المحيط الهندي ومداخل الخليج العربي والبحر الأحمر، وإزاء هذا الوضع كان لا بد لواحدة من القوى الإسلامية الثلاث أن تفرض وجودها على المنطقة بكاملها.

ولما كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه في جهة الغرب، وحيث وجدت نفسها الأقوى بين الدول الإسلامية المعاصرة لها اتجهت أنظارهم إلى الشرق متوخية زيادة رقعتها العمرانية وبسط سلطاتها على مساحات أوسع من جهة والتصدي للأعداء المحيطين بها من جهة أخرى.

وكانت أول محطة لها إزاء هذا الوضع الاستيلاء على سوريا، بعد أن انتصر العثمانيون بقيادة السلطان "سليم الأول" على المماليك بقيادة "قانسوه الغوري" في موقعه "مرج دابق" قرب مدينة حلب في شمال سوريا سنة ١٥١٦ ثم أكمل الاستيلاء على باقي مدن سوريا واحدةً بعد الأخرى.

بعد ذلك تم له الاستيلاء على مصر بعد مقتل "طومان باي" - نائب الغوري - إثر موقعة الريدانية - قرب القاهرة - سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧هـ.

وبذلك انتهت الدولة المملوكية التي طالما دافعت عن الشرق الإسلامي أخطار الصليبيين والمغول، وكان لها دور بارز ومميز في التاريخ الإسلامي ككل.

وهكذا أصبحت مصر بعد الشام ولاية عثمانية، ثم ضمت الحجاز تلقائياً إلى العثمانيين لكونها تابعة لمصر، وأعلم شريف مكة ولاءه للسلطان سليم، وأرسل ابنه إلى القاهرة حاملاً مفاتيح الحرمين الشريفين فأكرم السلطان وفادته، وأعطاه لوالده

بالبقاء في الحكم والاحتفاظ بمكانته الدينية كشريف لمكة وجعل مصر تمتد الحجاز
بالمال والمؤن سنوياً.

وبسقوط مصر في أيدي العثمانيين انتقلت الخلافة العباسية من القاهرة إلى
القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية. حيث اصطحب السلطان سليم معه إلى دار
السلطنة آخر خليفة عباسي، وهو المتوكل على الله الذي تنازل له عن الخلافة،
وبقي هناك حتى أعادة السلطان سليمان القانوني ابن سليم إلى مصر سنة ١٥٤٣م
وتوفي بها، وبذلك انتهت الخلافة العباسية رسمياً وأصبحت الخلافة عثمانية.

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على شبه جزيرة العرب وعلى العراق ومعظم
أقطار المغرب العربي.

وهكذا دخل الوطن العربي برمته "باستثناء مراكش" تحت حكم الدولة
العثمانية وقد ساعد على ذلك عدة عوامل منها:-

- ١- قوة العاطفة الدينية لدى العرب الذين رأوا في الدولة العثمانية دولة إسلامية
قادرة على تخليص الوطن العربي من الأخطار الخارجية التي هددته في
السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر.
- ٢- حالة الضعف التي عاشها الوطن العربي بسبب الحروب الطويلة والتفكك
السياسي.

- ٣- لم يقاوم العرب الضم العثماني لأن حكم بلادهم لم يكن بأيديهم بل كان
بأيدي عناصر غير عربية كما في سوريا والعراق^(١).

وقد ترتب على انضمام الوطن العربي إلى العثمانيين عدد من النتائج
الإيجابية والسلبية سواء فيما يخص العرب أو فيما يخص العثمانيين وأهمها فيما
يخص العرب ما يلي:-

(١) د . حسن ريان ومحمود طوالة. مذكرة في تاريخ العرب الحديث.

- ١- أعاد العثمانيون للوطن العربي وحدته السياسية وبالتالي أفسح له فترة من الهدوء والاستقرار النسبي كان بأمس الحاجة إليها.
- ٢- استطاع أن يدفع الاستعمار الأوروبي عن الوطن العربي حتى أواخر القرن الثامن عشر.
- ٣- فرض العثمانيون العزلة السياسية والاقتصادية والحضارية عن الوطن العربي خوفاً من الاستعمار الغربي، فحالفوا بينه وبين العالم الخارجي، مما أوجد فجوة حضارية واسعة بين أوروبا والوطن العربي.
- ٤- بقي الوطن العربي على حالة الضعف والإعياء التي وجدها العثمانيون عليه مما سهل وقوعه فرسية في يد الغرب عند ضعف الدولة العثمانية.
- ٥- انتقلت عاصمة الوطن العربي إلى خارج الوطن وأصبحت لغته الرسمية غير اللغة العربية.

أما ما يخص العثمانيين فأهمها ما يلي :

- ١- ترتب على ضم العثمانية للوطن العربي إليه أن صبغت الدولة العثمانية بالصبغة الشرقية.
 - ٢- اتسعت حدود الدولة العثمانية اتساعاً عظيماً مما أوجد لها كثيراً من المشاكل السياسية مع الدول المجاورة المنافسة.
 - ٣- إن انتقال الخلافة إلى العثمانيين، قد حمل الدولة العثمانية مسؤولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين في كل مكان.
- والباحث في تاريخ الدولة العثمانية لا بد له أن يضع نصب عينيه تدوين الملامح العامة لشخصيتين سياستين كان لهما أثر بارز في مجريات الأمور لحياة هذه الدولة إن سلباً أو إيجاباً ولعباً دوراً هاماً في تاريخها الحديث، وهاتان الشخصيتان هي:-

١- السلطان عبد الحميد خان الثاني.

٢- مصطفى كمال اتاتورك.

والسلطان عبد الحميد الذي لم ينصفه عصره، ولقي من أمته بشكل عام ومن الكثير من المؤرخين بشكل خاص. كل الحجود والنكران، وتعرضت سيرته سواء أثناء حياته أم بعد موته - إلى كثير من الدسّ والتحريف والهضم، في الوقت الذي أثبتت في الدراسات الحديثة والمخطوطات المكتشفة نصاعة سيرة هذا الخليفة الصالح، ويكفيه فخراً أنه تصدى للمؤامرات اليهودية ورشاًويهم، ومنعهم من الهجرة إلى فلسطين حيث ذهب ضحية هذا الدور المشرف وضحية الظروف العامة السيئة للدولة العثمانية التي سبقت تقلده منصب الخلافة.

فمنذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي بدأ الضعف يدبُّ في جسم الدولة العثمانية، وقد أخذت الأمور تسير بسرعةٍ فائقةٍ لمصلحة الغرب وفي مختلف النواحي العسكرية والسياسية والعلمية، وراحت الكثير من الولايات العثمانية المسيحية تسقط بيد الأوروبيين وتستقل استقلالاً تاماً عن جسم الدولة.

وهنا يبرز دور السلطان عبد الحميد الذي تقلّد أمور الدولة في شعبان ١٢٩٣هـ الموافق سبتمبر ١٨٧٦م، واستلم مهام عمله بهمة ونشاط، وأظهر للوزراء رغبة في إصلاح الأمور، ونتيجة للأحوال السيئة التي سبقت ولايته وتكالب الدول الأجنبية على الدولة العثمانية رأى أن يتجه نحو العالم الإسلامي علّه يظفر بمساعدة المسلمين له، ولاسيما من كان منهم تحت سيطرة الدول الأوروبية المناوئة للعثمانيين. وقد رمى السلطان عبد الحميد بهذه الحركة إلى إيجاد رابطة قوية بين المسلمين، على أن هذه السياسية لم تصادف النجاح المطلوب وذلك لعدم مهارة رسله إلى البلاد الإسلامية، وجهلهم لغاتهم، وتمسك أهل السنة بوجوب قيام الخلافة في قریش، ووقوع بعض الأمم الإسلامية تحت نفوذ الدول الغربية، مما

جعل توحيد المسلمين أمراً بعيد الاحتمال، وأخيراً ثار على هذا السلطان الأحرار الأتراك سنة ١٩٠٨ وخلعوه من السلطة.

وساءت حالة الدولة العثمانية بعد ذلك، واحتل الحلفاء سواحل "بحر مرمره" و "اسطنبول" وفي أكتوبر سنة ١٩٢٢ عقدت هدنة "مودانيا" التي نصت على جلاء الحلفاء عن هذه البلاد، ثم أعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية، وأعلنت الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها كأول رئيس للجمهورية.

ومصطفى كمال هذا. أصله من يهود الدونمه - أي المتظاهرين بالإسلام - وهو صنيعة غربية، خططت له الصليبية العالمية واليهودية والماسونية وجهازته للإطاحة بالخلافة الإسلامية، ومن ثم الاستيلاء على الحكم، حيث تسنى له ذلك وحكم تركيا وحده حكماً مطلقاً لا ينافيه فيه أحد حكماً دكتوريا يقوم على السحق والإبادة والدم والأشلاء^(١).

وقد ساعد الصليبية في تنفيذ مخططاتها الاستعماري، حيث استغل هؤلاء الفرصة بعد أن تم لهم الاستيلاء على أجزاء من تركيا بما فيها إسطنبول وعقدوا معه صلحاً أسفر عن هدم الوحدة الإسلامية، وبموجب معاهدة "لوزان" التي تمت بين الطرفين وضعت إنجلترا عدداً من الشروط وأكدت فيها على عدم الانسحاب من أراضي تركيا إلا بعد تنفيذ هذه الشروط وهي:-

١- إلغاء الخلافة الإسلامية. وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.

٢- أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٣- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

(١) الدكتور عبد الله عزام. المنارة المفقودة.

٤- أن تختار لها دستوراً مدنياً بدلاً من دستورها الذي هو مستمد من أحكام المسلمين.

٥- إلغاء المحاكم الشرعية والمدارس والأوقاف وأحكام الميراث.

٦- جعل الأذان باللغة التركية بدلاً من اللغة العربية.

٧- استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية.

٨- جعل العطلة الرسمية يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة.

إلى غير ذلك من شروط الهدم والتدمير للإسلام والمسلمين^(١).

وسقطت الخلافة الإسلامية، وترك سقوطها أثراً سيئاً في الأمة الإسلامية

أبرزها:-

١- التركة الموروثة: حيث وجدت الصليبية العالمية والاستعمار الغربي،

الدول الإسلامية والعربية لقمة سائغة.

٢- زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي.

الحالة الإدارية والاجتماعية

كانت الدولة العثمانية إمبراطورية مترامية الأطراف، تضم على أرضها

رعايا من أجناس وبلدان شتى: من ترك وعرب وأكراد وبربر وأرناؤوط وأرمن

وسلاف وبنان وغيرهم، وكانوا مختلفي الديانات متعددي اللغات، ولكن ذلك لم

يمنعهم من ضبط الأمور بفضل سياسة الحكم الإسلامي التي انتهجوها .. وكذلك

بفضل سياسة التسامح التي سلكوها فقد دأبوا منذ البداية على عدم التدخل في

الشئون الداخلية للشعوب التي خضعت لسلطانهم، فتركوا لهم حرية ممارسة

(١) د . فؤاد علي مخيمر. الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها.

طقوسهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم المحلية، وإن جعلوا اللغة التركية لغة رسمية للدولة وذلك بجانب اللغة العربية كلغة للدين والثقافة.

كان الطابع العام والجوهر الشامل للدولة عسكرياً جهادياً، - امتاز بالجد والانضباط وخاصة في مرحلة البناء والتشييد، وكانت مصلحة الدولة تقدم على مصلحة الرعية وذلك خلال ما يسمى بقرون القوة التي عاشتها الدولة في سائر ولاياتها، وتمتعت بأنظمة ممتازة من خلال حكومة مركزية، مركزها عاصمة الخلافة في "الأستانة" تتألف من السلطان - الذي يتمتع بسلطات مطلقة، فهو الرئيس الأعلى للدولة، وخليفة المسلمين الذي لا يجوز الخروج عليه أو تحدي سلطانه، وهو أيضاً القائد الأعلى للجيش - وتتألف أيضاً من مجلس الوزراء الذي يرأسه الصدر الأعظم - ومهمته: تصريف الشؤون العامة للدولة، وديوان سلطاني مكون من وزراء وكبار الموظفين، والقضاء الذي يرأسه شيخ الإسلام، بالإضافة إلى عدد من النواب عن الجيش.

أما في الولايات فكان يتولى أمر كل ولاية والي "الباشا" الذي يعين من قبل الخليفة - ويعاونه في أعمال إدارة الولاية "الديوان"، أما القضاء فكان يتولاه "قاضي القضاة" وقاضي العسكر، وقد قسمت الولايات إدارياً إلى "سناجق" عين لكل منها حاكم سمي "بالسنجق" مهمته الإشراف على شؤون الأقاليم، والحفاظ على الأمن وجمع الضرائب، وفي كل ولاية كان هناك حاكم عسكري وحامية عسكرية تساعد الباشا على حفظ النظام والأمن^(١).

والمجتمع العثماني ينقسم بشكل عام إلى طبقتين رئيسيتين ويتفرع عن هاتين الطبقتين، وخاصة الطبقة الثانية طبقات متعددة ولكنها تؤلف فيما بينها مجموعة واحدة:-

(١) انظر: د . عبد الحليم عويش. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص ١٨٤.

١ - الطبقة الأولى:

الحكام الأتراك وهم: العائلة العثمانية الحاكمة (عثمانلي) وحاشيتهم والمحسوبون عليهم، وكان بيدهم معظم السلطات السياسية والعسكرية والإدارية، وكان لهذه الطبقة بروتوكولاً خاصاً بها، ونظماً معيناً بالقصر "والحرملك" وغير ذلك من العادات والتقاليد.

٢ - الطبقة الثانية:

طبقة الرعية المحكومة: وهم شعوب المجتمعات الخاضعة للدولة العثمانية بما فيهم الفلاحين من الشعب التركي، وتكاد ظروف هذه الطبقة الحياتية والاجتماعية تتشابه في كثير من الأمور، اللهم إلا في ما يتعلق بالرواسب الاجتماعية التي تميز جماعة عن جماعة.

ولما كانت البلاد العربية تعتبر جزءاً من الدولة العثمانية بل وأكبر أجزائها وولاياتها، وأن العرب ومنذ انضمامهم للحكم العثماني - وطيلة فترة قرون القوة - قد رحبوا بالوحدة الإسلامية العثمانية ولم يعارضوها، حيث وجدوا في العثمانيين إخوانهم في الدين والعقيدة وذلك يؤلف قوةً ودفعاً كبيرين، وقد أكد الباحثون والمؤرخون "أن هذا الالتقاء بالعرب في ظل الدولة العثمانية، قد حمى العالم الإسلامي أكثر من أربعمئة عام من الغزو الصليبي الذي لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية^(١).

فقد تكونت فيها على مر السنين عدد من الطبقات الاجتماعية التي نجلها فيما يلي:-

١ - طبقة الحكام وكبار الموظفين، ومعظم هؤلاء من الأتراك.

(١) انظر: أنوار الجندي، تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث ص ٢٤.

٢- طبقة الإقطاعيين: وقد نشأت هذه الطبقة من أصحاب الإقطاعات العسكرية الذين حولوها مع الزمن إلى قطاعات مدنية، يضاف إلى ذلك أن بعض الملتزمين كانوا بمثابة إقطاعيين يلتزمون مناطق معينة مدى الحياة ويورثون التزامهم إلى أبنائهم.

٣- أصحاب العصبية: وهم الزعماء والأمراء ورؤساء القبائل الذين أقرتهم الدولة على مقاطعاتهم عند احتلالهم للبلاد، وكانوا يقدمون للدولة أموالاً مفروضة على مقاطعاتهم، كما كانوا يقدمون لهم الجنود وقت الحرب.

٤- طبقة الشعب: وهم (الفلاحون ، الصناع ، والتجار) أو الطبقة المنتجة العاملة، وقد تأخرت أحوال هذه الطبقة بتأخر الأحوال الاقتصادية والعوامل الجوية وفترات الحروب، وما يترتب عليها من فرض الضرائب المرهقة لهم في كثير من الأحيان، مما أدى إلى إهمال الزراعة والصناعة والتجارة، وكان ذلك من أسباب ضعف الدولة.

٥- هيئة العلماء: وقد تم إعفاء هؤلاء من الضرائب، ومع أنهم لم يتقاضوا رواتب من الدولة، إلا أنهم كانوا يأخذون مخصصاتهم من عائدات الأوقاف.

٦- الطوائف غير الإسلامية: كان لهذه الطوائف نظمها وتقاليدها الخاصة، كما كان لها رؤساؤها الذين يمارسون عليها سلطتهم ويجمعون منها الضرائب، وقد أعفيت هذه الطوائف من الخدمة العسكرية.

وإذا ما خالصنا إلى وصف الحالة الاجتماعية في الدولة العثمانية وولاياتها وخاصة أيام الضعف الذي ساد الدولة في عهدها الأخيرة ، وذلك بعد أن تكالبت عليها الدول الاستعمارية ولم تستطع المقاومة ، وأقلت الزمام من يد معظم الخلفاء، فقد ساء النظام الإداري، وبدأت المظالم تنتشر من الولاة ، وفرضت الضرائب الباهظة، وظهر الجهل بسبب إهمال التعليم، وشاعت الخرافات والأهواء والبدع بين الناس، فعمت الفوضى، وانتشر قطاع الطرق وكثر الغزو، وانهار الاقتصاد في

البلاد، وساءت الحياة الاجتماعية، وماج الناس في الفتن والاضطرابات، وأثار حكام الولايات الشعب ضد الخلفاء، وكثرت معاول الهدم، فاهتز مركز الخلافة مما ساعد على ضعفها وسقوطها.

الحالة الفكرية والثقافية

بعد أن سيطر العثمانيون على البلاد العربية والإسلامية أصبحت الآستانة مركز الخلافة وقاعدة الإسلام الأولى، وأضحت بمآذنها الشاهقة مؤئلاً للثقافة الإسلامية وداراً لطباعة المصحف الشريف، ومقراً لشيوخ الإسلام، وقد نقل إليها السلاطين أعداداً كبيرة من نفائس المخطوطات والمؤلفات العربية والإسلامية المختلفة من الكثير من العواصم العربية والإسلامية، كما اختاروا أفاضل العلماء وكبارهم بقصد الانتفاع منهم ومن علمهم، فنشطت حركة التأليف في اللغات التركية والعربية والفارسية، وخاصة باللغة العربية التي تعتبر لغة الدين والثقافة، وقد تأثرت اللغة التركية بهاتين اللغتين، وأخذت عنهما الكثير من الكلمات والأساليب اللغوية والأدبية، وظلت كذلك حتى تم استبدالها بالحروف اللاتينية من قبل مصطفى كمال بعد إلغاء الخلافة العثمانية.

وقد أكد العثمانيون منذ البداية أنهم لا ينتمون إلا للإسلام ولتراث الإسلام وحضارة المسلمين "وقد كان للعثمانيين من الثقافة الراقية والأدب الأخاذ ما جعل الترجمة منها إلى اللغات الأوروبية ملحوظة، وكانت اللغة العربية سواء قبل الفتح العثماني للبلاد العربية أو بعده هي لغة الثقافة والأدب والعلوم، فقد كتبوا كل شيء من كتب الفقه أو الفتاوى، واصطلاحات العلوم العثمانية كانت كلها عربية، كما كتبوا بها التراجم النعمانية "لطاشكبر" زاده" وغيرها، وقد قرر العثمانيون اللغة العربية لغة أولى في جميع المعاهد التعليمية ودرسوا بها كافة العلوم واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة"^(١).

(١) انظر: محمد حرب عبد الحميد، مجلة العربي العدد ٢٤٤.

كما درج العديد من الخلفاء والولاة أو الشعراء والأدباء العثمانيين على التأليف في اللغات الفارسية والعربية، وحاولوا تقليد الشعراء الفرس والعرب في منظوماتهم الشعرية بمختلف أنواعها^(١).

أما عن التعليم خلال هذا العهد بما فيه البلاد العربية فيمكن اعتباره امتداداً للعصور الإسلامية السابقة، وخاصة العصر المملوكي، المعاهد التي كان يشع منها العلم ويتعلم الدارسون^(٢):-

١- المسجد: فقد توسع المسلمون في مهمته فهو بالإضافة إلى كونه مكاناً للعبادة فإنه مكان لإدارة شؤون الدولة ومجلس للقضاء ومنطلق للجهاد ومكان للعلم بمختلف فروع الشرعية والأدبية والعلمية كالطب والفلك والحساب وغيرها.

ومن أشهر مساجد التعليم خلال هذا العهد - الأزهر الشريف وجامع الزيتونة والجامع الأموي والحرمين الشريفين والنجف الأشرف وغيرها التي كان يؤمها الطلاب من مختلف الأقطار العربية والإسلامية.

٢- الكتاب: ويدرس فيه الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ويتعلمون حفظ القرآن الكريم.

٣- المدرسة: فقد انتشرت المدارس في العديد من المدن الإسلامية والعربية ولم يكن في نظام التدريس امتحان أو شهادة، وجل ما في الأمر إجازة يمنحها الشيخ لتلميذه فيصبح أهلاً للتعليم.

(١) د . عمر موسى باشا: تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني.

(٢) د . بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني.

٤- المكتبات العامة والخاصة: وقد لعبت دوراً ملموساً في نشر الثقافة في البلاد الإسلامية ظهر العديد من الشعراء والعلماء الذين تتقنوا ثقافة ذاتية أثمرت العديد من الكتب والمؤلفات.

أما في مجال الأدب والأدب العربي بشكل خاص، فقد هبط مستواه عما كان عليه في العصر العباسي، وظهر عليه التكلف والصناعة اللفظية، وخاصة في العصور المتأخرة لهذا العهد، فجمدت القرائح وتدنّى الفكر، وكثرت السرقات الشعرية، وانعدم الإبداع والابتكار.

وفي مجال التأليف قل إنتاج العلماء وصار علمهم في الغالب مقتصرًا على شرح المختصرات، أو التعليق عليها، أو إيجاز المطولات، كما تفشى الجهل بينهم فقل التحري والتوثيق، وشاعت الروايات غير المأثورة، علاوة على المبالغات والأخطاء الكثيرة.

هذا ولم تمنع هذه الأحوال أو الظروف من ظهور بعض العلماء والمؤلفين الذين لا تنطبق عليهم أحكام عصرهم، ومنهم شهاب الدين الخفاجي وأبى وحاجي وعبد القادر البغدادي والصبان وغيرهم.

أسباب سقوط الخلافة العثمانية

لم تكن الدولة العثمانية أول دولة على وجه هذه البسيطة يعترىها الذبول والسقوط، ولن تكون آخرها بالطبع.

فمنذ العصور المغرقة في القدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كانت هناك دول تقوم ودول تهوي، وحضارات تسود وأخرى تتبدد، وهذه سنة الله في خلقه ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١).

والخلافة العثمانية التي هي الحلقة الأخيرة من سلسلة الخلافة الإسلامية الغابرة، لم تسقط تماماً عندما أعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغائها سنة ١٩٢٤ م ولكنها بدأت رحلة السقوط حين أعلنت نفسها ومنذ بداية عهدها حاملة لواء الجهاد الإسلامي ضد البيزنطيين، ومن ثم أخذت تتوغل داخل البلاد الأوروبية حتى طرقت أبواب "قيينا" ووقفت بعدها سداً منيعاً في وجه الأوروبيين الطامعين بخيرات الشرق، الأمر الذي نبه هؤلاء للخطر القادم إلى عقر ديارهم، فوقفوا صفاً واحداً يقاومون هذا الجسم الوافذ الذي بدأت عوامل الضعف تدب في أطرافه منذ بداية القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، وعند ذلك أخذوا يطلقون عليه اسم "الرجل المريض" الذي أوشك في حينه على السقوط لولا الخلافات التي نشبت بين الدول الأوروبية على اقتسام ممتلكات العثمانيين.

وفي نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٨م) غزت فرنسا مصر بقيادة نابليون - بونابرت ففتحت أعين الناس هناك على الفرق الشاسع بين الحضارة الأوروبية المتقدمة وبين التخلف العلمي والحضاري الذي تعيشه البلاد العربية في ظل العثمانيين، فقامت ثورات مسلحة بجانب الثورات الفكرية المتلاحقة، للاقتباس من

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٢.

علوم الغرب الأوضاع الاجتماعية السائدة، ونشطت الحركات السياسية والعسكرية ومحاولات الاستقلال، وظهرت فكرة القومية العربية مقابل القومية التركية.

"وهنا نشطت مشاكل المسألة الشرقية. وأصبحت سبباً في خلافات دولية وحروب، وساهمت فيها الدول الأوروبية المهتمة كبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا، وكانت تركيا هي الخاسرة على الدوام بالرغم مما كان يبدو في ظاهر المعاهدات التي تنهى لوقت محدود هذه المشاكل أو بعضها، إذ كانت الدول الأوروبية تعمل في كل مناسبة على اقتطاع جزء من أملاك العثمانيين، وتمكنت فرنسا أن تظفر بحصة الأسد في شمال أفريقيا العربي، فاحتلت الجزائر (١٨٣٠م) وسيطرت على تونس (١٨٨١م) ومراكش (١٩١٠)، بينما احتلت بريطانيا "مصر" (١٨٨٢م) وبعض سواحل الجزيرة العربية، واقتطعت إيطاليا ليبيا (١٩١١م)، وكان نصيب روسيا والنمسا من تركة الرجل المريض - تركيا - أملاكاً أوروبية غير عربية، واكتفت ألمانيا الإمبراطورية بالنفوذ المباشر على سلاطين آل عثمان، ونيل الامتيازات الاقتصادية والعسكرية، حتى إذا انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء .. أطبق هؤلاء على بقية البلاد العربية وخاصة القسم الآسيوي منها، فاحتلت فرنسا سوريا ولبنان، وبريطانيا فلسطين والأردن والعراق وسواحل الجزيرة العربية"^(١).

وهكذا ومع بداية القرن العشرين وقبل نهاية الربع الأول منه لفظت الخلافة الإسلامية العثمانية أنقسامها الأخير.

جملة من الأسباب الداخلية والخارجية التي اتصلت حلقاتها وتشابكت خيوطها وخطوطها، قد ساهمت في إضعاف الدولة العثمانية وأدت بالتالي وكنتيجة طبيعية لاستفحال مثل هذه الأسباب والعوامل إلى سقوطها ومن ثمَّ إلى إلغاء آخر خلافة

(١) تاريخ العرب والإسلام: أنور الرفاعي.

إسلامية كانت رمزاً للوحدة الإسلامية، وكتيبة الإسلام الأولى ضد الأطماع الصليبية والصهيونية، وظلت قرابة خمسة قرون تؤدي دورها في حماية الإسلام والمسلمين.

هذا وقد زخرت كتب التاريخ والمراجع التي تؤرخ للموضوع بدراسة أحوال ضعف الخلافة العثمانية وتحليلها وإرجاعها إلى عدد من الأسباب التي قد تقترب من الهدف أحياناً، أو تبتعد عنه أحياناً أخرى، وفقاً للأفكار والمعتقدات والأيدولوجية التي يحملها هؤلاء الباحثون والمؤرخون، ونستطيع أن نستخلص من هذه الدراسات والتحليلات، الأسباب الأساسية والفعالة التي أودت بالخلافة الإسلامية العثمانية - مع الأخذ بعين الاعتبار عدم إغفال العوامل الثانوية التي ساهمت أيضاً بدورها سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في إسقاط هذه الخلافة ويمكن إجمالها كما يلي:-

أولاً - الخلافات السياسية والعصبية والصراع العنصري وتنازع الرئاسة والجاه.

وذلك رغم التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام، والتزاهيد في الإمارة، ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَإِنْ عَشَرْتُمْ سَقَطُوا وَفِى كَيْدِكُمْ لَاقِئَةٌ﴾ (١) ومع الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده في القول والعمل، والتفكير من حب الشهوة والجاه (٢).

ويندرج تحت هذا السبب النزاع على العرش، ونظام ولاية العهد، حيث لجأ بعض السلاطين العثمانيين إلى قتل منافسيهم على العرش مبررين ذلك بالحرص على سلامة الدولة، وعدم تقسيمها بين المتنافسين، كذلك لم يكن نظام ولاية العهد

(١) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٢) الطريق إلى حكم إسلامي، محمد عليّة ضناوي ص ١١٦.

محددًا تمامًا في الدولة العثمانية، مما أوجد مجالاً واسعاً للتنافس على العرش والصراع على السلطة بين الأبناء والإخوة.

هذا بالإضافة إلى ما كان يفرض على وليّ العهد من الإقامة بمعزلٍ عن الناس، فلا يختلطون به، فقد ترتب على ذلك أن ارتقى العرش سلاطين لا يعرفون من السياسة شيئاً، ولا يهتمون بمصالح الدولة والشعب.

وكذلك نستطيع أن ندرج تحت هذا السبب نقطة القوميات المختلفة في الدولة العثمانية، إذا اشتملت الدولة على شعوب وقوميات غير متجانسة، ومع انتشار مبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والإخاء والمساواة وما أعقبت ذلك من تحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية، تَمَثَّلَ في حركة الانقلاب الصناعي وظهور المبادئ والأفكار والحركات القومية في أوروبا، تأثرت القوميات الخاضعة للدولة العثمانية بهذه المبادئ والأفكار، فأخذت تتحرك مطالبةً بالتحريم من الحكم العثماني".

وقد كان لظهور الحركات القومية ومطالبتها بالاستقلال عن جسم الدولة العثمانية، وما تبع ذلك من حروب طاحنة ومداخلات دولية معقدة أثر كبير في إضعاف الدولة العثمانية وتفككها. كما كان لتعصب الحركة الطورانية ممثلة بحزب "الاتحاد والترقي" الذي حكم الدولة العثمانية منذ سنة ١٩٠٨م أثر كبير في دفع القوميات الشرقية إلى المطالبة بالاستقلال، كما هو الحال بالنسبة للقومية العربية^(١).

ثانياً - **الخلافات الدينية والمذهبية**، والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول (ﷺ)، والجمود والتعصب للآراء والأقوال، والولع بالجدل والمناظرات والمراء،

(١) مذكرة في تاريخ العرب الحديث. د . حسن ريان ومحمود طوالبه.

وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي حتى قال رسول الله (ﷺ) "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"^(١).

والمتتبع لتاريخ الخلافة الإسلامية يجد بوضوح أن بقاء الدولة قوية مهابة الجانب مرهون بتطبيق شرع الله عز وجل في هذه الأرض، لأنه شرعية بقاء هذه الدولة إنما هو بتطبيقها هذا الشرع الذي اكتسبت به ولاء المسلمين وقيادتهم.

ولقد مرت على الدولة الإسلامية عهود تتكبد فيها الحكام والولاة جادة الصواب والهدى، وحل الظلم والجور والتفرق محل العدل والإنصاف والوحدة، وقد تتعطل بعض الأحكام الشرعية لظروف يمر بها المجتمع المسلم أو كيف في التطبيق إلا أن هذا التعطيل ظل تعطيلًا جزئيًا سرعان ما يلتئم ويعود إلى وضعه السليم، الأمر الذي جعل ولاء المسلمين القلبي لهؤلاء الحكام والخلفاء مستمرًا رغم تلك المنعطفات الخاطئة، إلا أن تعطيل شرع الله عز وجل كلية بحيث يصل الأمر إلى الفصل بين الدين والدولة ويصبح الخليفة روحًا فقط للمسلمين - وتتولى اختصاصاته دولة كافرة، فإن ذلك لم يحدث في تاريخ الخلافة الإسلامية إلا في أواخر خلافة آل عثمان في عهد السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز.

ثالثًا - المكر الصليبي واليهودي والماسوني:

ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل التي ساعدت على سقوط الخلافة العثمانية، فمنذ أن تم فتح القسطنطينية، والدولة العثمانية تخوض غمار الحروب الخارجية، وتتعرض للمؤامرات الداخلية، ثم أصبحت تقاسي الأمرين من النقاء أطماع وأحقاد النصارى، بأطماع وأحقاد اليهود والماسونيين بالاشتراك مع يهود الدونمة - الذين يحملون الجنسية العثمانية ويتسترون بالإسلام - وقد كانت باريس في فرنسا وسالوفيك في تركيا .. مركزا لهذا التعاون المشبوه، ومسرحا لذلك المكر والتخطيط.

(١) حديث شريف.

ونتيجة لهذه الأطماع الاستعمارية السافرة، والمؤامرات اليهودية الماكرة، وحالة الضعف التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، وعدم مواكبتها للنهضة العلمية التي كانت مزدهرة في أوروبا، وذلك بسبب انغلاق الدولة على نفسها حذرا من تسرب الأفكار الغربية والمبادئ الهدامة إليها، فقد تكونت الجمعيات السرية والعلنية منها مثل جمعية "الاتحاد والترقي" في باريس، والتي تسيرها اليهودية والماسونية، واستطاعت أن تدبر ثورة شرسة خلعت فيها السلطان عبد الحميد الثاني عن الخلافة، وكانت هذه البادرة نقطة تحول فاصلة في القضاء على الخلافة الإسلامية.

٤- سوء الأحوال الداخلية والخارجية:

إن أحوال دولة الخلافة لم تكن مرضية في كثير من النواحي، فالإنقسام في الأقطار الإسلامية كان على أشده، وانشغال الأساتنة بأحوالها وتدبير شؤونها أمام المؤامرات والدسائس، شغلها عن بقية الأقطار فساءت الإدارة داخل الأساتنة وخارجها، وفي الولايات التابعة لها، وقد تفرد كثير من حكام الولايات بحكم مطلق، فلم تكن هناك رقابة أو متابعة، وظهرت أمارات الترف على طبقة الحكام، وساءت أحوال الرعية، فلا عناية بصحة أو تعليم، وكثرت الديون الخارجية، وتدهورت الأحوال الاقتصادية، وثارَت فتنة القوميات بين شعوب وجنسيات الدولة المختلفة مطالبة بالاستقلال. وظهر البون الشاسع من حيث الحركة العلمية والثقافية والتقدم العلمي بين الدولة العثمانية مقارنة بالدول الأوروبية، الأمر الذي زاد أطماع هذه الأخيرة تجاه دولة الخلافة، استفادوا من ضعف الدولة العثمانية والتأخر العلمي في بلادها والقوة الأوروبية والنهضة العلمية فيها مع دعم الفئات النصرانية المقيمة في البلاد العثمانية والأقليات الأخرى، مع من استغرب من المسلمين وقلد النصراني ورغب في السير على منهجهم، وهذا ما أثر على نفسية السكان، وبدأت الهزيمة تظهر وتتسع مع الزمن وتزداد الدولة ضعفا والعلم تأخرا، وتزداد أوروبا قوة والعلم تقدما حتى الحرب العالمية الأولى، فهزمت أوروبا الدولة العثمانية، ودخل

الصلبيون أجزاء منها بعد أن تقاسموها حتى وصلت إلى الحضيض، فساعد هذا في إلغاء الخلافة^(١).

٥- الامتيازات التي كانت تمنح للأجانب اعتباطاً، وسخاء وكرم لا مبرر لهما - بل كانت تمثل التفريط بحق الوطن في أفصح صورة، فقد منحت الدولة امتيازات لدول أجنبية كتأسيس البنوك ومد السكك الحديدية، وإقامة الموانئ، ومد خطوط الهاتف والكهرباء، وتأسيس المدارس التبشيرية، وأعطتها الفرصة للإشراف المباشر على هذه الامتيازات، وتدخل السفارات والقناصل بهذه الأمور.

٦- إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهي المصدر الرئيسي للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة بسبب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها الاهتمام البالغ حيث كان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يجيدون التركية وهم من أبنائها، وفي هذا جهل لأن اللغة العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين والخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية واهتموا بالعلم الشرعي، إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب، وأقل ما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلموا العربية ويشجعوا عليها. ومع عدم تعلم اللغة العربية قل الفهم الصحيح وساد الجهل في الأمصار التي تتكلم العربية وأثر هذا على الضعف والتأخر العلمي^(٢).

٧- زواج السلاطين بالأجنبيات:

وتسلط هؤلاء الأجنبيات على عواطف أزواجهن، وتصريفهم في سياسة بلادهم الأصلية، وتحكمهن بمقدرات الدولة.

(١) أنظر / تاريخ الدولة العلية العثمانية / محمد محمود حرب.

(٢) المرجع السابق.

أ- وقد كثر تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي كان الأجانب والحكام يقدمونهن هدية للسلطان، مما نتج عنه حصول العديد من المشاكل من جراء الزواج بهؤلاء الأجنبيات، وأدى بالتالي إلى تفكك روابط الأسرة السلطانية، علاوة على تدخل نساء القصر بالسياسة لدى أزواجهن السلاطين برفع الخدم إلى منصب الوزارة، أو إيصال المتزلفين إلى مراتب الحل والعقد، كرئاسة الوزراء وقيادة الجيش، وفي كثير من الأحيان لا يكون لهؤلاء الرجال من ميزة يمتازون بها إلا هذه الصفات المذكورة.

٨- أسباب أخرى:

إضافة إلى الأسباب السابق بيانها، والتي ساهمت في إضعاف الدولة العثمانية وبالتالي إلى سقوط الخلافة، فهناك ثمة أسباب أخرى تعرض لها المؤرخون وكانت لها آثار واضحة في هذا الشأن نستعرض منها:-

أ- غرق السلاطين والأمراء في الترف والملذات، وتبذير بعض الملوك حتى بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان ثلث واردات الدولة.

ب- خيانة الوزراء: إذ إن كثيرا من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالإسلام ويدخلون في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس حتى يصلوا إلى أعلى المراتب ومنها رئاسة الوزراء، وبهذا الخصوص قال مبعوث أنقرة في المجلس العثماني "لو رجعنا إلى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية وارتكبوا السيئات والمظالم باسم الشعب التركي لوجدنا تسعين في المئة منهم ليسوا أتراكا"^(١).

ج- ضعف الجيش العثماني وتدهور الروح العسكرية:

(١) المرجع السابق.

كان الجيش العثماني يعتمد على ثلاثة أنواع من القوة العسكرية هي:-

- الجنود الإقطاعيون، والإنكشارية، والجند الخاص المرتزقة.

أما الجنود الإقطاعيون لقد فقدوا روحهم العسكرية مع الزمن فارتبطوا بالأرض وأخذوا يتهربون من الاشتراك في الخدمة العسكرية، فلم تعد الدولة تعتمد عليهم، وأما الإنكشارية فقد فقدوا انضباطهم العسكري وأخذوا يتمردون على السلاطين والولاة، بل ويعزلونهم أحيانا، وكثرت تعدياتهم على السكان، وتخلوا عن واجبات الجندية، وعجزوا عن حماية الأمن والتصدي للغزوات الخارجية، وتحولوا إلى قوة هدم بعد أن كانوا قوة بناء.

وإزاء انهيار الإنكشارية اعتمد الولاة على الجند الخاص من المرتزقة الذين لم يكونوا قادرين على دفع الأخطار الخارجية والاشتراك في الحملات العسكرية. وهكذا أصبحت القوات العثمانية عاملا من عوامل ضعف الدولة وسببا من أسباب انهيارها.

الباب الثاني

شعر الأصداء

تمهيد الشعر: مفهومه ووظيفته العامة

- توطئة:

الفصل الأول :- رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها.

الفصل الثاني :- الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار

الفصل الثالث :- الصورة الزاهية للخلافة ورموزها.

الفصل الرابع :- أسباب سقوط الخلافة.

الفصل الخامس :- آثار ونتائج سقوط الخلافة.

الفصل السادس :- الحنين إلى إحياء الخلافة والدعوة إلى

الوحدة الإسلامية.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

تمهيد:

الشعر ... مفهومه ووظيفته العامة:

مسألة تعريف الشعر مسألة صعبة وشائكة، وعملية تحتاج إلى كثير من التروي والبحث، وقد اضطربت آراء العلماء والنقاد حول هذه المسألة، فلم يستقروا على تعريف جامع مانع له، نظرا لصعوبة تحديد ذلك، بسبب أن الشعر عملية ذهنية تتأبى على الضوابط والقوانين وتعلو على القواعد والمعايير، لأنه وليد الشعور وحليف المعاناة، ومجاله هو العواطف والأحاسيس.

ولكن ورغم تلك الصعوبات فإن هناك بعض التعريفات المختارة التي نستعرض منها ما يلي:

((الشعر منظوم القول غلب عليه لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أي يعلم، وشعر الرجل يشعر شعرا وشعرا، وشعر قال الشعر، وشعر أجاد الشعر، ورجل شاعر والجمع شعراء، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: ((إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر فإنه عربي))^(١).

أما ابن خلدون فإنه يعرف الشعر بأنه ((الكلام البلاغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به))^(٢).

(١) لسان العرب ج ص

(٢) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٧٤٣.

وَيَعْرِفُ الشَّعْرُ كَذَلِكَ بِأَنَّهُ ((الكَلَامُ الْموزُونُ الْمُقْفَى الْمُعَبَّرُ عَنِ الْأَخِيلَةِ
الْبَدِيعَةِ، وَالصُّوَرِ الْمُؤَثِّرَةِ الْبَلِغَةِ، وَقَدْ يَكُونُ نَثْرًا كَمَا يَكُونُ نِظْمًا، وَالشَّعْرُ أَقْدَمُ
الْآثَارِ عَهْدًا، لِعِلَاقَتِهِ بِالشُّعُورِ وَصِلَتِهِ بِالطَّبْعِ، وَعَدَمِ احْتِيَاجِهِ إِلَى رَقْيِ الْعَقْلِ أَوْ
تَعَمُّقِ فِي الْعَالَمِ أَوْ تَقَدُّمِ فِي الْمَدِينَةِ))^(١).

وَيَعْتَبَرُ الشَّعْرُ مِنَ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ الرَّاقِيَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَرْقَاهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ،
وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ تَسْتَمْتِعُ بِنِظْمِهِ وَمُوسِيقَاهُ، وَالْفِكْرُ يَتَلَذَّذُ بِأَخِيلَتِهِ وَصُورِهِ، عِلاوَةً
عَلَى الدَّورِ الَّذِي يَلْعَبُهُ فِي تَعْرِيفِ الرِّغَابِ الْمَكْبُوتَةِ وَالْعَوَاطِفِ الْمَحْبُوسَةِ فِي
قَرَارَةِ النَّفُوسِ.

وَالشَّعْرُ - كَمَا يَصِفُهُ النِّقَادُ - سِلَاحٌ مِنَ أَسْلِحَةِ الْأَدَبِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ حَيَادِيَّةٌ
بِذَاتِهَا، إِنْ أُسْتُخْدِمَتْ فِي الْخَيْرِ كَانَتْ خَيْرًا وَإِنْ أُسْتُخْدِمَتْ فِي الشَّرِّ كَانَتْ شَرًّا.

هَذَا وَقَدْ وَاكَبَ الشَّعْرُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بِصُورَةٍ عَامَةٍ مِنْذُ أَرْتَقَاهُ فِي عَالَمِ الْبَشَرِيَّةِ
وَتَفَاعَلِهِ بِالْحَيَاةِ فِي مَخْتَلَفِ مَسْتَوِيَاتِهَا وَأَنْمَاطِهَا الْمَعِيشِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ لَعَبٌ دَوْرًا هَامًا
وَبَارِزًا فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ سِوَاءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَدْ كَانَ الشَّعْرُ لَدَيْهِمْ
يُسَمَّى عَنَوَانُ الْأَدَبِ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ، وَكَانَ أَيْضًا مَخْزَنَ مَعْلُومَاتِهِمْ، وَلِسَانَ حَالِهِمْ،
وَسِجِلَّ مَفَاخِرِهِمْ، وَالْمَصُورَ لِأَلَامِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، وَقَدْ أُوْدِعُوهُ وَقَائِعَهُمْ وَذِكْرِيَاتِهِمْ، وَكَانَ
لَهُ فِي نَفُوسِهِمْ مَنْزِلَةٌ أُخْرَى؛ لِأَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَنِ الْمَشَاعِرِ وَالْأَحَاسِيْسِ وَخَوَالِجِ النَّفْسِ
الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ لُغَةٌ الْعَاطِفَةِ وَالْوُجْدَانِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لُغَةً الْعَقْلِ وَالْعِرْفَانِ.

وَكَانَ لِلشُّعْرَاءِ مَكَانَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَهُمْ، فَالشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ هُوَ صَوْتُ الْقَبِيلَةِ، وَلِسَانُ
الْقَوْمِ، وَالْمَدَافِعُ عَنِ الشَّرَفِ وَالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ، وَالنَّاطِقُ بِمَجْدِهِمْ، وَالْمَصُورُ
لِمَفَاخِرِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْقَابِ وَالصِّفَاتِ.

(١) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي ص ٤٨.

الإسلام والشعر:

ولما جاء الإسلام، لم يذم القرآن الكريم الشعر بإطلاقه، كما لم يذم الشعراء بعامتهم، ولكن الذي فعله القرآن الكريم هو تقسيم الشعراء إلى فريقين: فريق مع الله إيماناً وطهراً وصدقاً وتضحية، وفريق مع الشيطان كفراً وفجوراً وزيفاً وضياعلاً، وميز في الشعر اتجاهين: أحدهما يدعو إلى الشر وإثارة النعرات، ويشهر بالأعراض، ويفتح المنكرات، والآخر يدعو إلى الخير، وينشر السعادة، وينتصر للمظلومين، وينافح عن عقيدة الدين.

كما أن الرسول (ﷺ) وجه الشعراء الذين أسلموا وجهة جديدة وجعل للشعر وظيفة نبيلة هي المنافحة عن الحق والرد على أعدائه، والوقوف في طريق أولئك الذين أطلقوا ألسنتهم افتراء على الله ورسوله (ﷺ) والمسلمين. إذن فقد اهتم الإسلام بوظيفة الشعر ودوره الكبير في حياة الإسلام والمسلمين، واعتنى بتوجيه مضمونه، فأراد بذلك أن يسمو بالشعر والشعراء وأن يجعلهم أداة بناء وسعادة بعد أن كانوا من قبل أداة هدم وشقاء^(١).

ثم حصلت بعض التطورات على الشعر والشاعر وهذه سنة الله في الكون، ولكننا لا نستطيع أن نستقصي مجالات هذا التطور ومراحله في هذا التمهيد الموجز، اللهم إلا فيما يمس هدف الشعر ووظيفته، وذلك أن الشعر كان يعتبر من أبرز وسائل الاتصال بين القبائل العربية ويلعب دوراً إعلامياً أشبه بما تمثله الصحافة في هذا العصر.

وبعد أن انحسر دوره الإعلامي نسبياً، وذلك لما طرأ على الساحة واستجد من وسائل الإعلام المختلفة السمعية وبصرية والمقروءة، أصبح الشاعر في وضع

(١) أحمد عبد اللطيف الجدع، حسني أدهم جرار/ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ج ١.

جديد ودور جديد، فما هو دور الشاعر اليوم؟ وما هو هدف الشعر؟ وهل ما يزال يؤدي دوره كما كان يفعل من قبل؟

لا شك أنه لا يزال للشاعر دور، ودور مميز أيضا، ولا يزال كذلك للشعر دور كبير، وله هدف ووظيفة فاعلة ومؤثرة شأنه شأن الفنون الكبرى والإبداعات العظيمة.

وظيفة الشعر وقائدته:

وظيفة الشعر هي وظيفة الأدب الملتزم، وعلى ذلك (فإن الشعر والفن بصورة عامة يجب أن يكون صورة للحياة وتطور البشرية الحضاري، وليست صورة محدودة للبيئة الضيقة؛ لأن أوجاع الإنسانية ومشكلاتها النفسية تكاد تكون واحدة، فالألم والحب والبغض، والثورة على الظلم، والاحتجاج على الطغيان، والعودة إلى الخير ومحاربة الشر، تتغلل الشاعر من عالمه المحدود إلى عالم واسع، ويصبح مضمونه الشعري أكثر فهما وأعمق أثرا في النفوس متى خرج من المحيط الضيق إلى العالم الرحيب، ولأن الشاعر المبدع ينبع صافي الماء فمتى وصف بعاطفته الموارد المعاناة الإنسانية سيطور المضمون ويأخذه إلى الحياة الحقيقية^(١).

والالتزام بشكل عام كما جاء في المعاجم الأدبية هو ((حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأيد الداخلي إلى التعبير الخارجي عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار، وتكون هذه الآثار محصلا لمعاناة صاحبها، وإحساسه العميق بواجب الكفاح، والمشاركة الفعلية في تحقيق الغاية من الالتزام))^(٢).

(١) التجديد في الشعر الحديث، بواعثه النفسية وجذوره الفكرية، د/ يوسف عز الدين.

(٢) المعجم الأدبي، جبور عبد النور.

أما مفهوم الالتزام الإسلامي فهو ((أنه يستمد مقومات وجوده من الإسلام ذاته، فينطلق من قاعدته العريضة ويسير فوق منهجه المستقيم، فبقدر وضوح أصول الإسلام الثابتة لدى المسلم، وبقدر إدراكه لحكم الإسلام العظيمة ومقاصده السامية، يكون الالتزام ذا وضوح أكثر، وذا سمت مميز، وعكس ذلك صحيح))^(١).

إذن فوظيفة الشعر عند الشعراء الملتزمين ليست أقل من أن تعكس الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية بجانبها الفكري والعاطفي، تمتزج فيها الرؤية المتعمقة والنظرة الشاملة، مع مسحة عالية من الإحساس الغامر والشعور الفياض، مزاجا بين الواقع والمثال؛ لنقل فكرة، أو موضوع واقعي أو متخيل، لتصبح صورة طبق الأصل عن الشاعر والكون ولتذوب مشاعر الذات في وجدان المجتمع، وعلى الشاعر أن يتحسس مشكلات مجتمعة وأن يتفاعل مع هذا المجتمع لمعالجة هذه المشكلات بكل صدق وموضوعية وذلك بعرضها بطريقة فنية توحى ولا تقول، وتلمح ولا تصرح، حتى تؤدي دورها بكل توافق وانسجام.

هذا ويرى الشاعر محمد حسن عواد^(٢) أن وظائف الشعر تتمثل فيما يلي^(٣):

- ١- تعميق فهم الحياة الإنسانية بصفة عامة.
- ٢- تبسيط هذا المعنى للآخرين، والصمود بالتفكير الإنساني فلسفيا إلى مستوى أرقى.
- ٣- تصوير الحياة نفسها بالصورة التي يريد الشاعر لها أن تعيش في نفوس الآخرين.
- ٤- نقل التصوير الإنساني والأفكار الإنسانية من اتجاه لآخر.
- ٥- تجسيد عطاء الطبيعة لتزداد به متعة الإنسان.

(١) الالتزام الإسلامية في الشعر، ناصر بن عبد الرحمن الخنين.

(٢) محمد حسن عواد.

(٣) الرؤية الإبداعية في شعر العواد.

أجل فهذه بعض وظائف الشعر وليست كل وظائفه بالطبع، ولما كان الشعر هو أحد أركان الأدب الأساسية، فإن وظيفته هي وظيفة الأدب عينه كما ذكرنا آنفاً، وأقصد بذلك الشرع الملتزم الهادف، وعليه فإن من وظائف الأدب أيضاً ما يلي^(١):

١- تهذيب الإنسان وتصوير ما في نفسه من فكرة وعاطفة، أو حادثة هامة لها مغزاها.

٢- النهوض بعبء الثقافة العامة والعمل على إسعاد الإنسانية، ورفعها من وهدة عميقة مظلمة إلى شاطئ عال مرتفع مليء بالنور والحياة.

٣- حمل رسالة الدعوة، وإشاعة الفضائل الدينية، وإذاعتها في نفوس البشر عن طريق العواطف الصادقة والأخيلة الجميلة.

٤- والأدب عماد النهضة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، يسجلها ويسايرها ويغذوها ويأخذ بيدها إلى سبيل النجاح.

وللشعر أيضاً رسالة، وما دام الشعر فناً فرسالته هي رسالة الفن نفسه، ورسالة الفن هي تعميق الحياة - والحياة هنا هي الحياة العامة وليس الحياة الإنسانية وحدها - وإنما ثروتها في النفوس، والصمود بالأدمية إلى أفق سام من آفاق الخلود.

والشعر كذلك نافع ومفيد في حياة الإنسان، ويهدف إلى إشاعة الخير وتزيينه في أوساط المجتمع، ويحارب البدع المنكرة، والأفكار المنحرفة، والعادات السالطة بين الناس. لأن الشعر كما ذكرنا رسالة إنسانية ((وبدهي أن هذه الرسالة الإنسانية تقتضي من الشاعر الفنان أن يتضمن فيه قيماً سامية ومثلاً رفيعة تستحق الوصف بأنها إنسانية؛ ذلك لأن المبدع الحق هو الذي يتبنى قيماً إنسانية رفيعة))^(٢).

(١) أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب ط ٧ ١٩٦٤ بتصرف.

(٢) مجلة الأمة القطرية.

وللشعر أيضا فائدة عظيمة، ونفع كبير في حياتنا الاجتماعية، وذلك لإثارة النفوس عند الحاجة في هيجانها، لتحصيل كثير من المنافع في مقاصد الإنسان، فيما يتعلق بانفعالات النفوس وإحساساتها في المسائل العامة، من دينية أو سياسية أو اجتماعية، أو في الأمور الفردية ويمكن تلخيص أهم فوائده في الأمور التالية:

- ١- إثارة حماس الجند في الحروب.
 - ٢- إثارة حماس الجماهير لعقيدة دينية أو سياسية، أو إثارة عواطفها لتوجيهها إلى ثورة فكرية أو اقتصادية.
 - ٣- تأييد الزعماء بالمدح، وتحقير الخصوم بالذم والهجاء.
 - ٤- هيجان لذة الطرب، وبعث السرور والابتهاج لمحض الطرب والسرور كما في مجالس الغناء.
 - ٥- إهاجة الحزن والبكاء والتوجع والتألم كما في مجالس العزاء.
 - ٦- إهاجة الشوق إلى الحبيب، أو الشهوة الجنسية كالتشبيب والغزل.
 - ٧- الإلفاظ عن فعل المنكرات وإخماد الشهوات، أو تهذيب النفس وترويضها على فعل الخيرات كالحكم والمواعظ والآداب^(١).
- وبعد فما هو الشعر الذي نريده في مثل الظروف الراهنة التي تعيشها أمتنا؟ وهل هو رسالة هادفة أم أنه ترف ذهني محض؟
- والجواب على ذلك أن الشعر المطلوب ليس هو الشعر الممسوخ - الذي يقلد التيارات الغربية - عن مجتمعنا العربي والإسلامي، المندرج تحت مقولة (الفن للفن)، الغارق في النظريات المحدودة والحكم الجافة، النابع بالغواية والخطيئة، المثير لغرائز الإنسان، الحافل بالعبث والفوضى والفساد، وإنما الشعر المطلوب هو الشعر الأصل الهادف والملتزم، الباعث للفائدة والمنفعة والمتعة، الداعي إلى مجد

(١) الشيخ محمد رضا المظفر، المنطق ط ٢ ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م ص ٤٢٥.

وكرامة الإنسان، الغائص في جذور التراث، المترجم لوجدان الأمة وأحلامها وطموحاتها ووحدتها، والحامل لرسالة إنسانية سامية تتير الطريق لأجيال المستقبل، وتضع لهم النقاط على الحروف.

توطئة:

لم يكن إلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية سنة ١٩٢٤م مفاجئاً للأمة الإسلامية بشكل عام، وللمفكرين والأدباء والشعراء بشكل خاص، وذلك بسبب الظروف القاسية التي مرت بها دولة الخلافة، وكثرة المعاول التي تهدم جدارها المهزوز، ولكن المفاجأة كانت أن يأتي هذا الإلغاء على يد القائد التركي الكبير - كما كان يبدو حينذاك - مصطفى كمال أتاتورك، الذي كان قبل سنوات بل شهور قليلة ملئاً السمع والبصر، وأدى من الانتصارات على أعداء الخلافة التقليديين ما جعل أبناء الأمة الإسلامية، ومنهم الشعراء، يلهجون بذكره ويشيدون ببطولته، وهذا ما حدا بالشاعر الكبير: أحمد شوقي أن يقرنه بالقائد الإسلامي الشهير: خالد بن الوليد (رضي الله عنه)، في شجاعته وإقدامه وانتصاراته وذلك في قصيدته التي يقول فيها^(١):

يا خالد الترك .. جدد خالد العرب	الله أكبركم في الفتح من عجب
فيه القتال بلا شرع ولا أدب	حذوت حرب الصرحيين في زمن
بآية الفتح .. تبقى آية الحثب	تحية أيها الغازي .. وتهنئة

(فهذا القائد المظفر هو في نظرة مبعوث العناية الإلهية لإقالة عثرة الخلافة، وإحياء مجد الإسلام، فمقامه من الترك هو مقام خالد بن الوليد من العرب، كلاهما قد قاد جيوش المسلمين متنقلاً بها من نصر إلى نصر، ثم هو يشبهه في جهاده

(١) ديوان شوقي ط

جيوش النصرانية بصلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية إذا قورنت شهامته وإنسانيته بوحشية الجيوش الأوروبية وانتهاكها للحرمات^(١).

وكذلك الشاعر محمد عبد المطلب^(٢)، ينبري بشعره لتسجيل انتصار الترك على أعدائهم معتبرا أن انتصارهم كان انتصارا للمسلمين جميعا فيقول على لسان الأتراك^(٣):

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أعمادها من بعد ما ظفرت بخير مقلم
ضحك الهلال له الغداة وربما أجرت مدامعه شؤون غرام

هذا ولم تكن الأحداث والحروب بين الدولة العثمانية وأعدائها متتابعة على نمط واحد، ولكنها كانت سجالا بينهما، وإن كانت كفة النصر تميل كثيرا نحو جهة الأعداء، وهذا ما جعل الشعراء والمفكرين يستشعرون ويتوقعون قرب سقوط الخلافة، وذلك منذ أن بدأت أطرافها تنحسر ومدنها تتساقط الواحدة إثر الأخرى في يد الأعداء والطامعين.

وما هو شوقي يرثي مدينة (أدرنة)^(٤) التي كانت من أمهات المدن العثمانية في (مقدونية)^(٥) إثر غلبة (البلغار)^(٦) عليها في الحرب سنة ١٩١٢م، يقول شوقي في قصيدته بعنوان (الأندلس الجديدة)^(٧):

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام

(١) د/ محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٦/٢.

(٢) محمد عبد المطلب.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

(٤) أدرنة.

(٥) مقدونية.

(٦) البلغار.

(٧) ديوان شوقي ٢٨٧/١.

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت .. وعم العالمين ظلام
صبرا أدرنة .. كل ملك زائل يوما ويبقى المالك العلام

وكأنني به وهو يخاطبها بأخت أندلس - فردوس العرب المفقود - إنما ينعيها
نعي الشعراء من قبل قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، من مدن الأندلس الشهيرة،
ويدعوها إلى الصبر والاحتساب مطمئنا إياها أن كل ملك صائر إلى الزوال ولا
يبقى إلا الله المالك العلام.

ولا أطيل هنا الحديث عن الوقائع التي حلت بالدولة العثمانية قبل إعلان إلغاء
الخلافة رسمياً، وما قام به الشعراء في ذلك الوقت من مشاركات وتفاعلات تجاه
هذه القضايا، فإن في شعر الأصدقاء، وما أفرغته مواهب الشعراء، إثر سقوط
الخلافة وإلى اليوم ما يسد الحاجة، ويقوم بالمهمة المرجوة خير قيام.

وقبل أن نرصد انفعالات الشعراء حيال تلك المأساة التي هزت العالم
الإسلامي، وجوت عليه من الأحداث ما يزال يتجرعها إلى اليوم .. فإننا نذكر طرفاً
من ردة الفعل التي ظهرت على أفراد الأمة الإسلامية بشكل عام.

يقول الدكتور إحسان حقي^(١): (فلما ألغى أتاتورك الخلافة سنة ١٩٢٤م هاج
العالم الإسلامي وماج، وقام كثير من الناس في كل البلاد الإسلامية يستكثرون هذا
العمل، ويدافعون عن الخلافة، ويطالبون بإحيائها، وذلك لما كانوا يدركون ما لها
من تأثير على العالم الإسلامي أولاً، ثم على العالم المسيحي ثانياً، ولولا أن الذي
ألغى الخلافة كان مسلماً لما تجرأ أحد على ذلك. ضج العالم الإسلامي من هذا
العمل، ولكن لم يكن في العالم الإسلامي بلد واحد مستقل بكل معنى الكلمة ليدافع
عن الخلافة، ولذا فإن صوت الاحتجاج لم يصل إلى بعيد، ولعل الهند كانت أكثر
البلاد الإسلامية حماية للخلافة، وتشكلت في الهند جمعية باسم (جمعية الخلافة)
برئاسة الأخوين: مولانا محمد علي ومولانا شوكت علي، وقد اتخذوا لنفسهما شعاراً

(١) د/ إحسان حقي، آراء في محاضرات، مؤسسة الرسالة ط ١٩٨٥م ص ٨٧.

هو الهلال العثماني الذي كانا يضعانه على لباس الرأس، وقاما يطالبان بإعادة الخلافة في الشرق وفي الغرب حتى في عصابة الأمم، وعملاً كثيراً لهذه الغاية، ولكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح لأن الذي ألغاهما لم يلغها لكي يعيدها، والدول الغربية كانت تحرص على هذا الإلغاء للتخلص من كابوس إسلامي كان يجثم على صدورهم).

وهكذا يتضح أن وقع سقوط الخلافة الإسلامية على المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية كان شديداً ومؤثراً، وقد انبرى الشعراء للتنديد بأولئك الذين عبثوا بمصير الخلافة، فراحوا يرثونها ويتغنون بمآثرها وذكرياتها ويرسمون ملامحها وصورها الزاهية، أو يبينون ما أمكنهم - بالتمليح أحياناً وبالتصريح أحياناً أخرى - الأسباب التي أدت إلى ضعف الخلافة وانهيارها، ثم آثار هذا الانهيار والسقوط على العالم الإسلامي ككل، أو يتطلعون ويستشرفون إلى إحياء الخلافة الإسلامية والدعوة إلى الوحدة الإسلامية الشاملة.

هذا وقد قمت باستحضار الأشعار التي أسفرت عنها قرائح الشعراء بعد سقوط الخلافة وحتى هذا التاريخ - علماً بأنني لا أزعم أنني قد استقصيت كل ما قيل في هذا الموضوع للعديد من الأسباب الموضوعية والفنية - ثم عمدت إلى تقسيم الباب ستة فصول وهي كالتالي:

الفصل الأول: رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها.

الفصل الثاني: الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار.

الفصل الثالث: الصورة الزاهية للخلافة ورموزها.

الفصل الرابع: أسباب سقوط الخلافة.

الفصل الخامس: آثار ونتائج سقوط الخلافة.

الفصل السادس: الحنين إلى إحياء الخلافة، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الفصل الأول

رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها

توطئة:

الرثاء موضوع هام وأساسي من مواضيع شعرنا العربي، وهو قديم قدم الشعر نفسه، ومتنوع كتنوع أساليبه وأهدافه، وللرثاء أنواع مختلفة: فهناك رثاء الأموات بمختلف الأجناس والأنواع، وهناك رثاء المدن، وكذلك رثاء الدول والأوطان.

والرثاء بشكل عام هو المدح إلا أنه في ميت، نحو تعداد مناقبه، وتبيان مآثره، أما رثاء المدن فيكون بالبكاء والتفجع الشديدين عليها، وخاصة حين تنزل بها الحوادث القاصمة، أو تتعرض للنهايات المؤلمة فيندبها الشعراء بقلوب محزونة ونفوس مكلومة، فقد يستغيثون ويستصرخون ويستنهضون همم أبنائها، أو من يرون فيه النجدة والعون لها، والخلافة الإسلامية التي تعرضت للسقوط وتم إلغاؤها سنة ١٩٢٤م كما أسلفنا، رثاها الشعراء وتحسروا على مجدها الغابر، وبكوا على ماضيها الجامع لشتات هذه الأمة والموحد لكيان أوطانها وبلدانها، كما أنهم عددوا وأوضحوا ما أسفر عنه هذا السقوط من ضياع هويتها، وتمزق أقطارها، وتكالب الدول الاستعمارية عليها وطمعهم بخيراتها.

وفي هذا الفصل سأقوم - بمشيئة الله تعالى - بإيراد النماذج الشعرية السابقة في هذا المجال وهو (رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها) محاولا شرحها شرحا أدبيا مستوفيا، ومسلطا الضوء على ما تحمله في ثناياها، وتنطوي عليه بين سطورها من مضامين وأفكار، ثم معقبا ومعلقا على ما ترمي إليه من مقاصد وأهداف، تاركا مجال النقد ورصد الظواهر الفنية والبلاغية إلى الباب الثالث والأخير، وسوف ينطبق منهجي هذا على كل الأبواب والفصول في هذه الدراسة والله من وراء القصد.

رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها

بادئ ذي بدء أود أن أقول أنه قد ظهر عدد من الشعراء كان لهم قصب السبق في رثاء الخلافة الإسلامية، وكان لشعرهم الأثر الكبير في إحياء مشاعر الأمة التي هالها الحدث وفجعها النبأ، وأثر وما زال يؤثر على من جاء بعدهم من الشعراء.

في مقدمة هؤلاء الشاعر الكبير أحمد شوقي حيث نظم قصيدته (خلافة الإسلام) " يرثي فيها الخلافة وينبه ممالك الإسلام إلى إساءة النصح لهذا الرجل (مصطفى كمال)؛ لعله يبني ما هدم وينصف من ظلم " (١) يستهل الشاعر قصيدته بالدخول إلى الموضوع مباشرة دون اللجوء إلى التمهيد أو المقدمات، ناعيا الخلافة نعيًا مريرًا وحاملاً على مصطفى كمال - والذي طالما تغنى بمدحه وترنم ببطولاته - إلغاؤه الخلافة، ولكن كل شيء بحساب ولكل مقام مقال...

يتخيل الشاعر الخلافة (عروساً ماتت فجأة فتبدل العرس مأتماً، والفرح حزناً) (٢) فيقول:

ونعيت بين معالم الأفراح	عادت أغاني العرس رجع نواح
ودفنت عند تبلج الإصباح	كفنت في ليل الزفاف بثوبه
في كل ناحية وسكرة صاح	شيعت من هلع بعبرة ضاحك

وبعد أن يفرغ الشاعر من وصف حالة الخلافة عند سقوطها ورسم الصورة المفجعة التي آلت إليها، يتحول فجأة إلى تصوير حال الأقطار الإسلامية ((وقد

(١) الشوقيات ١ / ٢٠٦.

(٢) د/ عبد العزيز الثنيان، الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث ١٤١.

هالها الأمر وأمضها الخطب فلبست على الخلافة ثوب الحزن وأقامت لفقدها
المآثم))^(١) يقول:

ضجت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة .. ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع ساح ^(٢)
والشام تسأل والعراق وفارس	أمحى من الأرض الخلافة ماح
وأنت لك الجمع الجلائل مأتما	فقعدن فيه مقاعد الأنواح ^(٣)

بعد ذلك يتجه الشاعر بالخطاب إلى رجال الأمة الإسلامية، نادبا الخلافة،
مستشيراً همهم، طالبا نجدتهم، وناعيا على الذين غدروا بها وخلعوا عن أعطافهم
أجمل حلية وأثمن وشاح، يقول:

يا للرجال لحرة موودة	قتلت بغير جريرة وجناح ^(٤)
إن الذين أسدت جراحك حربهم	قتلتك سلمهم بغير جراح ^(٥)
هتكوا بأيديهم ملأه فخرهم	موشية .. بمواهب الفتاح ^(٦)

((ولقد أبدى الشاعر عجبه من هدم هذا المجد العظيم بهذه السرعة، ونبذ تلك
الرابطه الوثيقة التي تجمع القلوب وتوحد الصفوف))^(٧). فيقول:

حسب أتى طول الليالي دونه	قد طاح بين عشية وصباح ^(٨)
وعلاقة فصمت عرى أسبابها	كانت أبر علائق الأرواح

-
- (١) الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث.
 - (٢) الوالهة: الحزينة أو التي ذهب عقلها حزنا، ساح: كثير السح وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.
 - (٣) الجمع: واحدة جمعه، الأنواح: النوائح.
 - (٤) الموودة: التي تدفن حية في التراب، الجناح: الإثم.
 - (٥) أسدت جراحك: دواتها، السلم: الصلح والسلام.
 - (٦) هتك الستر ونحوه: خرقة، موشية: منقوشة منمنمة.
 - (٧) الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث.
 - (٨) طاح: ذهب.

جمعت على البر الحضور وربما جمعت عليه سرائر النزاح^(١)
 نظمت صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جمعة ورواح
 بعد ذلك يحمل الشاعر على مصطفى كمال ((الذي عبث بالشرع، وأثار فتنة،
 وأتى ضلالا، وجاء بكفر بواح، ثم يبدو له أنه قد ناقض نفسه فكم مدح هذا الذي
 يهجو اليوم، ولكنه كان يرى أنه لا يمدح ولا يلوم إلا على الحق، فذلك الذي أحيا
 الجماعة هو نفسه الذي ألغى الخلافة وأمات في الجماعة أقوى الروابط))^(٢) يقول:
 بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عرييد القضاء وقاح^(٣)
 أفتى خز عبلة .. وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد براح^(٤)
 إن الذين جرى عليهم فقهمه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
 إن حدثوا نطقوا بخرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصك رماح
 أستغفر الأخلاق لست بجاحد من كنت أدفع دونه .. وألا حي^(٥)
 مالي أطوقه الملام .. وطالما قلدته المأثور من أمداحي؟
 هو ركن مملكة وحائط دولة وقريع شهباء وكبش نطاح^(٦)
 أقول من أحيا الجماعة ملحد وأقول من رد الحقوق إباحي
 الحق أولى من وليك حرمة وأحق منك بنصرة وكفاح
 فامدح على الحق الرجال لمهم أو خل عنك مواقف النصاح
 ومن الرجال إذا انبريت لهدمهم هرم غليظ مناكب الصفاح^(٧)
 فإذا فذفت الحق في أجلاده ترك الصراع مضعزع الألواح^(٨)

(١) البر: الصلة والرفق. النزاح: البعيد، جمع نازح.

(٢) د/ ماهر حسن فهمي، شوقي (شعره الإسلامي) ص ١٣١.

(٣) العرييد: الشرير، الكثير العريضة. الوقاح: ذو الوقاحة وهي قلة الحياء.

(٤) الخز عبلة: الفكاهة والمزاح. براح: بين وجهار.

(٥) أدفع دونه: أرد عنه بالحجة. ألا حي: من الملاحاة وهي الملاعنة.

(٦) القريع: الغالب في المقارعة. الشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.

(٧) مناكب: الجوانب والنواح. الصفاح: حجارة عريضة رقيقة.

(٨) الأجلاذ: جسم الإنسان.

ويتابع الشاعر قصيدته متوجهاً بالخطاب إلى أهل النصيح والمشورة من أبناء المسلمين، وإلى أهل الحل والعقد منهم، ليقدموا النصيحة (لمصطفى كمال) لعله يرتدع عن طيشه وغروره ويعود إلى رشده وصوابه فيقول:

أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح	إن الجواد يثوب بعد جماح ^(١)
إن الغرور سقى الرئيس براحه	كيف احتياك في صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقرى	والناس، نقل كتائب في الساح ^(٢)
تركته كالشبح المؤله أمة	لم تسل بعد عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم	حتى تناول كل غير مباح
غرته طاعات الجموع ودولة	وجد السواد لها هوى المراتح
وإذا أخذت المجد من أمة	لم تعط غير سرا به اللماح ^(٣)

ويبدو أن شوقي هنا أراد أن يدافع عن نفسه في هذه الأبيات، ويبرز موقفه بسبب تناقض بعض المواقف التي أجبرته على مدح الكماليين تارة عندما ظهر منهم ما يوجب المدح، ومهاجمتهم عندما تغير موقفهم، وأنه وإن انخدع فيهم مرة، فلا يجب أن يبقى منخدعاً بهم على الدوام، فهو يعريهم ويكشفهم للملأ، وخاصة زعيمهم مصطفى كمال الذي شبهه بشبح أو صنم تسلق سدة الحكم في ظروف مشبوهة، استطاع أن يغرر بأمة شبه أمة، مجدته وأعطته أكثر مما يجب، فبغى وطغى واستطاع أن يقلب الموازين، ويبيح الحرمات ويطيح بخلافة إسلامية دامت قرابة خمسة قرون، سيما وأن هذه الخلافة في نظر شوقي ومعظم شعراء العربية في ذلك الوقت شيء مقدس لا يصح المساس به، وأنه لا يصح لمصطفى كمال - ولا لغيره - أن يفتي في الدين فيبقي الخلافة أو يلغيها، كما كان يفتي في الحرب، لأن الحرب شيء آخر غير عالم السياسة^(٤).

(١) جماح: تقور

(٢) الساح: جمع ساحة والمراد ساحة الحرب.

(٣) اللماح: اللماح.

(٤) أنظر: دولة الخلافة وشعر الوطنية. د/ عبد الرشيد عبد العزيز سالم.

بعد ذلك يخلص الشاعر إلى إظهار ما في نفسه من تمجيد لمحامد الخلافة وتعظيم لرجالها، كيف لا وهو المتغني بأمجادها، الغيور على مصالحها، الدائر في فلکها والمناهض لمن يعاديها، وأنه سوف يبقى محباً لها، مخلصاً لأيامها وذكرياتها حتى آخر لحظة من حياته، وها هو أخيراً (يحذر المسلمين من المحن والمصائب والفتن التي ستحل ببلاد المسلمين حين يتصارع الملوك على الخلافة وحين يصبح هذا الرمز الديني العظيم مطمحاً لمن يستحق ومن لا يستحق)^(١) فيقول:

من قائل للمسلمين مقالة	لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة في أول دأب	عن حوضها بيراغ نضاح ^(٢)
حب لذات الله كان ولم يزل	وهوى لذات الحق والإصلاح
إني أنا المصباح لست بضائع	حتى أكون فراشة المصباح
غزوات (أدهم) كللت بدوابلي	وفتوح (أنور) فصلت بصفائح ^(٣)
ولست سيوفهما .. وبان قناهما	وشبا يراعي غير ذات براح ^(٤)
لا تبدلوا برد النبي لعاجز	عزل .. يدافع دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحه	واليوم مد لهم يد الجراح
فلتسمعن بكل أرض داعياً	يدعو إلى (الكذاب) أو لساج ^(٥)
ولتشهدن بكل أرض فتنة	فيها يباع الدين بيع شامح
يفتي على ذهب المعز وسيفه	وهوى النفوس وحقد الملاح ^(٦)

-
- (١) دولة الخلافة وشعر الوطنية ص ١٨٨.
(٢) الذائد: الحامي، الدافع. النضاح: الدافع أيضاً.
(٣) الذوابل: صفة للرماح. الصفاح: جمع صفيح وهو عرض السيف. أدهم وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام.
(٤) القنا: جمع قناة. الشبا: جمع شباه وهو حد كل شيء. البراح: الزوال.
(٥) الكذاب: مسيئة الكذاب. ساج: امرأة كانت قد أدعت النبوة.
(٦) المعز: هم المعز لدين الله الفاطمي في مصر، والمراد بذهبه وسيفه المال الذي كان يبذله لمن أطاعوه والعقاب الذي كان يصيب من خالفوه.

وهكذا قام شوقي في تأدية رسالته الدينية والشعرية على أكمل وجه وعبر عن شعوره الإسلامي الفياض أجمل تعبير، واستطاع أن يرثي الخلافة الإسلامية الملغاة أبلغ رثاء بأسلوب قوي وعاطفة جياشة يكاد ينفطر فيها أسى ولوعة على تراث المسلمين الخالد وجامعتهم التليدة، منددا بأوثل النفر الذين استغلوا ثقة المسلمين الكبيرة بهم وأعطوهم فوق حقهم من الثناء والتقدير، ولكنهم استكروا لكل القيم الإسلامية والأعراف الإجتماعية، وقاموا بهدم الخلافة التي كانت الدوحة الوارفة التي تظل المسلمين. وشوقي وإن كان إحساسه بشكل عام إحساسا انطباعيا، وأسلوبه وصوته يتغير بتغير المواقف والتجارب التي تعترض سبيله، والذي استطاع أن يوظف شعره وعبقريته في العديد من القصائد التي قد لا تنم عن تجربة جيدة وإحساس صادق، إلا أنه كان موفقا في هذه القصيدة وخرج فيها عن تجربة عميقة وإحساس صادق وفن رائع أصيل.

أما الشاعر أحمد محرم فقد أنشأ أيضا قصيدة في رثاء الخلافة الإسلامية بعنوان (الخلافة الإسلامية ونكبة آل عثمان)^(١) يصور فيها المأساة التي حلت بالأمّة، ويجسد الواقعة بعمق ومرارة راسما بواقعية مبدعة شدة الصدمة عليه وعلى كل من هاله نبال السقوط.

في مطلع القصيدة يسأل الشاعر (فروق)^(٢) عن نبال الخلافة - وهي بالطبع أدري منه بما حصل فيها - وهذا هو سؤال العارف إذ أنه سرعان ما يجيبها عما حل بالخلافة من الخطوب الجسام والأمور العظام، ويذكرها بالمجد الباذخ والجاه العظيم الذي انتظم البلاد والعباد، ثم زال هذا المجد عنها بزوال الخلافة، ثم يطلب إليها أن تبر وتوفي الجميل.

(١) ديوان محرم / السياسيات ج ٢ ص ٢١ نشر مكتبة الفلاح - الكويت.

(٢) فروق: اسم من أسماء الأستانة.

لهؤلاء الخلفاء الراحلين بل ويريد منها أن ترحل معهم، ولكن أني لها ذلك؟

فيقول:

أعني خطب الخلافة تسألينا؟	أجيبني يا (فروق) فتى حزيناً
هو العرش الذي استعصمت منه	بركن الدين واستعليت حينا
فأين البأس يقتحم المنايا	ويلتهم الكتائب والحصونا
وأين الجاه يغمر كل جاه	وإن جعل السماك له سفينا ^(١)
تدفق يأخذ الأقطار طرأ	وينتظم القياصر أجمعينا
مضى الخلفاء عنك فأين حلوا؟	وكيف بقيت وحدك؟ خبرينا
ولو أوتيت برأ أو وفاء	إذن لظننت إثر الظاعيننا

بعد ذلك يتوجه الشاعر بالخطاب إلى (يلدز) - قصر الخلافة الشهير - والذي أصابه ما أصاب عاصمة الخلافة من كوارث ونكبات، إذ تبدلت القوة ضعفاً والنور ظلاماً، والمنعة ذلاً، ثم يطلب إليها أن تذرف الدموع الغزار على الماضي المشرف، والشرف العظيم الذي ذهب أدراج الرياح، غير أنه سرعان ما يرفع عنها مغبة اللوم والعتاب معللاً أن ما حل بها هو من تقدير الله العظيم الذي يعز من يشاء وينزل من يشاء، وأن الدنيا يوم لك ويوم عليك ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢).

(١) السماك: السحاب.

(٢) سورة آل عمران، الآية/ ١٤٠.

يقول:

رماك، فهذه سؤددك المكي
حمى الخلفاء يأبى أن يديننا^(١)
يفيض على شعوب المسلمين^(٢)
تقلب في جوانبك العيون^(٣)
وتخشى أن تذل وأن تهونا^(٤)
لقد ظننت حوادثه الظنونا
وسلوى عن فطينك أو حنيننا
وأصدق ذمة .. وأجل ديننا
ولا تدعي التوجع والأنياس^(٥)
أصابك في ذوبك الأولينا
إذا نطقوا وكان لهم يميننا
وينتزع العروش وما ولينا
جوانبها .. وكانوا الموسعين
وكانوا للممالك منكربينا
وما زالت عروش المالكي
أهان العز والشرف المصونا
فما تغني شكاة الجازعينا
بأقدار يرحن ويقتديننا
وراحوا سوقة مستضعفيننا

أ (يلدز) ما دهاك؟ وأي رام
خفضت له الجناح وكنيت قدماً
وجللك الظلام وكنيت نوراً
تزاورت الكواكب عنك ولهي
وتجفل تتقي عقبى الليالي
تحير فيك هذا الدهر حتى
فصبراً إن أردت أو التياحاً
ظلمت هواك أنت أبرّ عهداً
أفيض الدمع توكافاً وسحاً
لقد فجع المروءة فيك دهر
أليس الدهر كان لهم لساناً
تمرد ينفض التيجان عنهم
تولوا في البلاد تضيق عنهم
إذا وردوا الممالك أنكرتهم
عجبت لهم يزول الملك عنهم
أذل جبالهم حدث ذميم
رويداً إنها الدنيا وصبراً
تعالى الله محدث كل أمر
أناهم أمره .. فغدوا ملوكاً

(١) يديننا: يذل.

(٢) جللك: غطاك.

(٣) تزاورت: مالت.

(٤) تجفل: جفل القوم .. هربوا مسرعين خوفاً وفاقاً.

(٥) توكافا: من وكف الدم إذا سال قطرة قطرة. والسح: من سح الدمع إذا سال واشتد انصبابه.

وبعد أن يصور الشاعر فداحة الخطب الذي حل بالخلافة والخلفاء، وأنهم أصبحوا من عامة الناس، وأن الدنيا قد غدرت بهم، يتحول نحو السياسة فيصفها بأنها ليس لها مبدأ ونظام مستقر تسير عليه، بل إنها مجموعة من النقائص والمتناقضات، وأنها تتلون بتلون أصحابها ومحترفيها ... فيقول:

ولم أر كالسياسة في أذاها وفي أذارها ترجي مئينا^(١)
تغير على الأسود فتحتويها وترغم أنها تحمي العرينا
تريد فتضيق الأصباغ شتى وتبتدع الطرائق والفنونا
وتتخذ الدم المسفوك ورداً تظن ذعافه الماء المعينا^(٢)
أداة الغدر، ما حفظت ذماما ولا احترمت خليطاً أو قرينا

وبعد أن تتفتح لنا فلسفة الشاعر في ما يتعلق بالسياسة وخاصة المنحرفة منها والخادعة، وما يكتنفها من الغموض والالتواء وما ترتديه من ثياب المكر والذهاء، ويبين لنا كيف أبدى شديد ضيقه على ما تقوم به وتؤديه من أدوار مغرضة وتلعبه من أساليب غير منهجية؛ لتحقيق أهدافها ومآربها.

بعد ذلك يتوجه الشاعر بالخطاب للعثمانيين، مسدياً لهم النصيحة، ويدعوهم للتحلي بالصبر والرضى بقضاء الله وقدره، ثم ما يجب عليهم فعله في مستقبل الأيام عند مواجهة مثل هذه المصائب والأحداث، وذلك ريثماً تستقر الأمور، وتتضح الرؤيا، وتستبين نوايا أتاتورك على حقيقتها، فيكون - بنظر الشاعر - معذوراً فيما قام به وأقدم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ...

يقول:

(بني عثمان) إن جزعاً فحق وإن صبراً فخير الصابرينا
أعدوا للنوائب ما استطعتم من الإيمان وأدرعوا اليقيناً^(٣)

(١) ترجي : تحرك.

(٢) الورد: الماء الذي يورد. الذعاف: السم الذي يقتل من ساعته. المعين: الجاري.

(٣) أدرع: لبس الدرع.

حياة الملك ضمن بها أبيّ يخاف عليه كيد الخائنين
له عذر الأمين فإن رضيتم فخير الناس من عذر الأمينا
قضى (الغازي) الأمور فلا تعيبوا أمور الملك حتى تستبينا

ولا شك أن الأمور اتضحت والنوايا استبانَت، وأثبتت الأيام أن ما قام به (مصطفى كمال) من إلغاء الخلافة الإسلامية، وما ترتب على إلغائها من تفتيت وحدة المسلمين وتكالب الدول عليهم، كان جريمة نكراء لا تغفر بحق الإسلام والمسلمين.

وبعد أن يسوق الشاعر ما يراه من وجهة نظره الخاصة، مبرراً لما أقدم عليه مصطفى كمال، أخذ يواسي نفسه ويقنعها بعدم جدوى مثل هذه الخلافة التي ستصبح غير ذات شأن، بسبب المؤامرات التي حيكت ضدها من أبناء المسلمين أنفسهم وتحالفهم مع المستعمرين أعداء دينهم على الرغم من المواقف المشرفة التي وقفتها الخلافة معهم، حيث يذكر من هذه الأسباب التصدي للأعداء والمستعمرين، وإغاثة المنكوبين ونجدة المحتاجين ... فيقول:

وما نفع (الخلافة) حين تمسي حديث خرافة للهازلينا
ثوت تتجرع الأيام شتى على أيدي الدهاة الماكرينا
تغيث المسلمين إذا استغاثوا وتنصرهم على المستعمرينا
فلما جدّ جدّ الحرب كانوا قوى الأعداء ترمي الناصرينا
منعنا الظلم أن يطغى عليهم فخانونا .. وكانوا الظالمينا
نصاب لأجلهم .. ونصاب منهم فإن تعجب .. فذلك ما لقينا

وهكذا نجد أن الشاعر في خاتمة القصيدة يلقي باللائمة على الشعوب الإسلامية التي تنكرت للعثمانيين وتحالفت مع أعدائهم، في الوقت الذي كانت هذه الخلافة تظلم بظلمها العميم، وتمدهم بكل أسباب القوة والمنعة والنماء، ولعل الشاعر أراد أن يعبر في هذه القصيدة على أن التكر للقيم والمبادئ ومخالفة الأعداء هو

سبب رئيس ومباشر لسقوط الدول وخراب العمران، وهو ما حصل بالعطل للدولة العثمانية، وهذا مصداقاً لقوله تعالى في النهي عن موالة غير المسلمين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(١) وهذا يعني أن السواء والبراء لا يكون إلا الله سبحانه وتعالى.

ويشارك الشاعر التونسي محمد الشاذلي الخزنه دار الشعراء الذين رثوا الخلافة الإسلامية بقصيدة مؤثرة بعنوان (الانقلاب الكمالي) يستهلها باستتكار العمل الذي قامت به الحكومة التركية - ممثلة برئيسها مصطفى كمال - من إلغاء الخلافة، مشيراً إلى أن مثل هذا العمل تأباه الشعوب الإسلامية بما فيها الشعب التركي، وهي التي كانت في الوقت نفسه تأمل من هذه الحكومة الكمالية كل معاني النصر وأمارات الخير، وذلك بعد ما لمسوه من انتصاراتها على أعداء الدولة العثمانية، ويعتبر هذا الصنيع من أفدح الأمور وأعجب الأعاجيب ... فيقول:

لا الترك ترضى بما أجرت حكومتها في المسلمين وحاشاها ولا العرب
كنا نؤمل منها الخير فانقلبت تلك الأمانى ولما يسكن الغضب
هذا الزمان أرانا من حوادثه شتى العجائب حتى ينقضي العجب

بعد ذلك يفند الشاعر مزاعم الكماليين ودعاويهم من أن الخلافة كانت عليهم وبالأول وعبئاً ثقيلاً، بل إنه يذكر فضلها عليهم وأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تسنم سدة الحكم إلا بسببها وتحت ظلالها، ثم يندب أمجاد آل عثمان، ويتعنى على الكماليين ثنائية عدم مراعاتهم لحرمان الخلفاء، وخاصة محمد الفاتح الذي سطر من الأمجاد ما لا يحويه الدهر، ويذكر أخيراً ما لهؤلاء الخلفاء في أعناق الأمة الإسلامية الأمر الذي يجب الاعتراف به وتأدية حقوقه، فيقول:

قالوا الخلافة عبء قد أضر بهم لولا الخلافة ما نالوا الذي رغبوا

(١) سورة المائدة آية (٥١).

ألقوا بها بين أيدينا مدرجة
في آل عثمان بان المجد مندرساً
هلا رعوا فيهم المفضال فاتحها
لآل عثمان في أعناقنا ممن
عار على الأمة السمحاء إضاعة من
واستصغروا الفعلة الشنعاء وانقلبوا
بيكي لأعظم مأساة وينتحب
يرعاك في حسب من عنده الحسب
حق إليهم نؤديه كما يجب
كنا لدولتهم بالأمس ننتسب

وبالطبع فإن مثل هذه الدعوة التي يطلب فيها الشاعر إحقاق الحق لأصحابه، لا يصدر فيها عن شعور ذاتي، وإنما يصدر عن شعور العديد من المسلمين.

وهذه قصيدة أخرى للشاعر أحمد شوقي نظمها في أحد المؤتمرات العامة المطالبة بإحياء الخلافة الإسلامية، فعندما انفرط عقد الخلافة الإسلامية العثمانية سنة ١٩٢٤م كما هو معروف، وبعد عامين من هذا الحدث حاول عدد من رؤساء المسلمين وعلمائهم عقد مؤتمر في القاهرة لإحياء الخلافة الإسلامية، وقد سجل الشاعر أحمد شوقي قصيدته بهذه المناسبة بعنوان (الخلافة) نشرتها مجلة السياسة في ٧ يونيو ١٩٢٦م^(١)، وقد مهدت المجلة للقصيدة بمقدمة قالت فيها ((منذ أقصى الأتراك الخليفة من الأستانة وأقاموا في أنقرة جمهورية زمنية، فكر المسلمون في مسألة الخلافة والخليفة تفكيراً جدياً، والمسألة كثيرة الشعب دقيقة، لوقوع كثير من الدول الإسلامية تحت نفوذ غير إسلامية، واستقلال كل بشؤونها استقلالاً يحول دون تمكن الخليفة من أن يكون أميراً للمؤمنين بالمعنى الشرعي، ولما كانت الخلافة تحتاج عدا كل ما تقدم إلى قوة مسلحة لتدود عن حياض المسلمين فإن كلا من الدول الإسلامية تفكر كثيراً قبل أن تقبل إقرار الخلافة فيها، وقد أحاط أمير الشعراء شوقي بك بهذه الشؤون إحاطة دقيقة وأبدى فيها من صائب الآراء ما يحسن بكل مسلم أن يعنى بالوقوف عليه أتم العناية...))

(١) الشوقيات المجهولة ٢٠٠/٢.

يستهل شوقي قصيدته بالحديث عن المؤتمرين لإحياء الخلافة الإسلامية وينعى عليهم عدم ملائمة الظروف لإقامة هذه الخلافة بسبب سوء أحوال لمسلمين وضعفهم وعدم اجتماع كلمتهم وأنه لا سبيل إلى إقامتها إلا بتوفر المنعة والقوة الكفيلة بحمايتها والحفاظ عليها...

فيقول: (١)

أين المباع بالإمام ينادي	بعثوا الخلافة سيرة في النادي
لم يلق غير خلافة الصياد ^(٢)	من بات يلتبس الخلافة في الكرى
بين القواضب والقنا المياد ^(٣)	ومن ابتغاهما صاحباً فمحلها
يفري السماء بجنة مراد ^(٤)	أوفي جناحي عبقرى مراد
تغني ولا بيض الضبا بعتاد ^(٥)	اليوم لا سمر الرماح بعودة

بعد ذلك يتساءل الشاعر عن الفائدة المرجوة من اجتماع هؤلاء القوم، وما الغاية من التقاء دول عفا عليها الدهر وأخنى عليها الزمان، فكيف تستقيم لهم الخلافة وهم ضعاف متشتتون ولم تستقم أمورهم، وهم بكامل قوتهم واجتماعهم، يقول شوقي:

يبيغون من دول لحقن بعداد	قل: فيم يأتمر الرجال؟ وما الذي
أخنى عليه تطاول الآباد	ما لم يبد منها على يد أهله
هل تستقيم .. وهم بغير عماد	لم تستقم للقوم خلف عمادهم

بعد ذلك يغوص الشاعر في ذاكرة التاريخ ويستعرض ما لحق بالخلافة من مآسي وما تعرضت له من نكبات على يد أبنائها منذ عهد الراشدين وحتى يومها

(١) المرجع السابق...

(٢) يشير إلى قصة خليفة الصياد في كتاب ألف ليلة وليلة.

(٣) القواضب: السيوف. القنا: الرماح.

(٤) مراد: جمع مراد. ويفري السماء يشقها ... يشير في البيت كله إلى سلاح الطيران.

(٥) الضبا: جمع ضبة وهي حد السيف.

الأخير، ثم يأخذ بإبراز دوره في ذكر محاسن الخلافة والتغني بأمجادها يوم كان لها أمجاد وراثتها عندما سقطت وأصبحت خبراً من الأخبار .. يقول:

غلبوا عليها الراشدين وخرجوا	أم الكتاب بجبهة السجاد ^(١)
وبنوا على الدنيا (بخلق) ركنها	وعلى عتو الملك في بغداد ^(٢)
جعلوا الهدى سلطانها ودعوا لها	من لا يسد به مكان الهادي ^(٣)

* * *

وأنا الذي مرضتها في دائها	وجمعت فيه عواطف العواد
غنيتها لحناً تغلغل في البكا	يا رب باك في ظواهر شادي
ونصرتها نصر المجاهد في ذرا	(عبد الحميد) وفي جناح (رشاد) ^(٤)
ودفنتها ... ودفنت خير قصائدي	معها وطال بقبرها إنشادي

نعم فطالما تغنى الشعراء بالخلافة والخلفاء ودبجوا القصائد الطوال في مدحهم والإشادة بمواقفهم وأمجادهم.

وأخيراً يلتفت الشاعر مرة أخرى إلى المؤتمرين محذراً إياهم من سوء نوايا المتربصين والمتصيدين في الماء العكر، ثم ينصحهم بانتهاء سبل الإصلاح وجمع الكلمة وعدم الجمود والتفوق داخل حلقة مفرغة.. فيقول:

فاشفوا الممالك من قضاة صرید	قعدوا لصيد ولاية أو زاد
وتداركوها من عمائم صادفت	مرعى من الأوقاف والأرصاد
وخذوا سبيل المصلحين وأقبلوا	روح الزمان هوامد الأجساد

(١) السجاد: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) خلق: دمشق.

(٣) الهادي: النبي صلى الله عليه وسلم.

(٤) الذرا: الملجأ. رشاد: السلطان محمد رشاد.

ردوا إلى الإيمان أجمع عليه وإلى مرأشده أضل سواد^(١)
أمم كملوم القطيع ترى لهم شمل الجميع وفرقة الآحاد
يدعون أبناء الزمان وإنما جمدوا وليس أبوهم بجماد

وبهذه الخاتمة يكون الشاعر قد أفرغ ما في نفسه من معان تقزع الآذان
وتستثير العواطف والوجدان، منبهاً فيها المسلمين من الوقوع في الزلل والأخطاء،
ومحذراً إياهم بعدم تسليم الخلافة لمن يطلبها ممن هب ودب، من الذين لا يصلحون
لها بل يعتبرونها مغنماً من مغنم هذه الدنيا الفانية، وأن عليهم التأنّي والتريث في
ذلك، ريثما يهيء الله لها الرجال المصلحين القادرين على حملها والإرتقاء بها ممن
يقومون بالحمل خير قيام، ويؤدونه أجمل أداء.

وللشيخ محمد الخضر حسين قصيدة مؤثرة في رثاء الخلافة الإسلامية
مطلعها:

ما خطب قوم طالما وصلوك واعتز باسمك عرشهم هجروك؟
حرسوك أحقاباً وحلق صبتهم في الخافقين لأنهم حرسوك
حيث يستنكر الشاعر على أهلها هذا الجفاء والهجران الذي انتاب الخلافة،
وهم الذين طالما تفيئوا ظلال العز والمجد بسببها وبسبب حراستهم لها، والحفاظ
على حرمانها، ثم يرسم الشاعر لها عدداً من الصور الزاهية .. فنصفها بأنها كانت
مثالاً للأمن والأمان، ورمزاً للبطولة والفداء والنصر، وأنها وإن تخلى هؤلاء القوم
عنها فما زال هناك من أمم الإسلام من يفديها بالنفس والنفيس والغالي
والرخيص...

(١) عليّة القوم: جلتهم.

فيقول:

كنت الوقار على وجوه غزاتهم والأمن إن نظروا بعين ضحوك
كنت البطولة تزدرى نار الوغى والنصر يعقد بالقنى المشبوك
ما زلت سمط قلادة خرزاتها أمم بأغلى فدية تفديك

وبعد هذا الوصف الجميل الذي خلعه الشاعر على الخلافة يدلف إلى تأنيب مصطفى كمال ويلومه على فعلته الشنيعة التي قصمت ظهر المسلمين، وفرقت جميعهم، وشتت كلمتهم، عندما قام بإلغاء الخلافة وجنى عليها، وهو الذي لم يسطع نجمه يعلوا مقامه إلا بسببها وإلا لكان نسيا منسيا ... يقول الشاعر وهو يتحدث عنه:

ناطوا به أمل النهوض بدولة رمت الثرى بجناحها المفكوك
نهض الزعيم وما رعى عهد النبي لولا اسمها ما صال صول ملوك

وأخيراً يلجأ الشاعر إلى إطلاق حكمة تهم المسلمين في كل عصر ومصر وهي أن سعادة المسلمين وعزتهم لا يتأتيان إلا بالتمسك بأهداب الدين والنهل من المعين النبوي العذب، وإذا حادوا عن الطريق المستقيم فقد اقتحموا الصعاب ويمموا شطر المهالك والأخطار ... يقول:

والقوم قوم محمد إن زحزحوا عن هديه اقتحموا شعاب النوك

وليس من شك أن في بيت الشعر هذا من الحق والصواب ما لا يخفى على أحد، ذلك أن التاريخ الإسلامي وخلال مسيرته الطويلة قد أثبت أن المسلمين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من العز والمنعة إلا بفضل التمسك بأهداب هذا الدين، وتطبيق الشريعة الإسلامية على أفضل وجه، وأنهم لم يتعرضوا للمصائب والنكسات إلا عندما حادوا عن الطريق المستقيم، وأن وضعهم الحالي وما يتعرضون له من تكالب الدول عليهم وهوانهم على الأمم والشعوب لخير دليل على ذلك.

ومن الشعراء الذين عزفوا على وتر العروبة في وقت مبكر، ونادوا بأحقية العرب للخلافة .. الشاعر أبو الفضل الوليد الذي طالما تغنى في قصائده بأمجاد العرب، معتبراً أن الخلافة هي إحدى مكتسباتهم، وأنها قامت على أكتافهم وترعرعت بين ظهرانيهم، ولهم عليها ذمة وعهود توجب العودة لهم، وفي قصيدة له بعنوان (الجهادية) ^(١) يحنّ فيها الشاعر ويتحسر على الخلافة العربية التي غابت شمسها بعد عصر العباسيين، ورأى بأم عينه سقوط الدولة العثمانية، وما تبع ذلك من تكالب الدول الإستعمارية على بلاد المسلمين ومنها البلاد العربية، واقتسام هذه البلاد فيما بينهم، فالشام والعراق وفلسطين والقدس هي من ضحايا هذا الاقتسام الذي ذهب ضحيته أيضاً الكثير من مدائن الإسلام الأخرى ومقدساته ورموزه، وأصبح المسلمون في حالة من الضعف والهوان لا يحسدون عليها ... يقول الشاعر:

الشام يقهر والعراق يضام	فالיום لا عرب ولا إسلام
أين العروبة والخلافة منهما	والمسلمون بلادهم أقسام
لبنى أمية أو بني العباس في	تلك الربوع أمانة وذمام
ذهبت خلافتهم وضاع سريرها	فبكى عليها منبر وحسام
إن الخلافة بان عنها ربها	فالمؤمنون جميعهم أيتام
شق الحجاب فلا حجاب لقدسها	فأهانها زرق العيون طغام
رحفت جحافلهم إلى أرض الهدى	فالجيش من كل الجهات لهم

ثم يتساءل الشاعر بمرارة وأسى - وهو في قمة انفعاله وشدة اندهاشه - عن مصير مكة والمدينة بعد ما ضاعت بلاد الشام والعراق بين الفرنسيين والإنجليز، وسقطت فلسطين بما فيها من المقدسات بيد اليهود، ثم يحتدم السؤال في نفسه ويرتفع خطه البياني مستذكراً وضع هؤلاء المسلمين العام تحت هذه الهيمنة

(١) ديوان أبو الفضل الوليد.

الاستعمارية البغيضة خاصة وهم ليسوا بعبيدين عن مثنى الرسول (ﷺ) وماذا
سوف يقوله لهم عليه السلام في يوم العرض أمام الملك الواحد القهار .. يقول:

ما حال مكة والمدينة بعدما	سقطت دمشق وحرّم الإحرام؟
أو هل تصح خلافة وإمامة	حيث الفرنجة واليهود قيام
الشام نهب والعراق غنيمة	وعليهما يتكالب الأقوام
والحق يصرخ قائلاً في ضعفه	أهل البلاد العرب لا الأعجام
سقطت دمشق ولم تقف لسقوطها	بين الأعراب فتية وخصام
الجامع الأموي فيه جنازة	والمسجد الأقصى عليه ظلام
ومضاجع الخلفاء زال وقارها	والأولياء قبورهم أردام
وقف العلوج بها وداسوا تربها	ولأهلها فوق النجوم مقام
فالأرض تشكو شدة من وطئهم	وسلاحهم .. وكأنها مسقام
المسلمون تساقطت أعلامهم	فكانهم بين الشعوب سوام
لا دولة فيهم ولا ملك لهم	إن الممالك بالملوك ضخام
هل ينبت الإسلام بين ضلالة	وخلاعة .. حيث الهوان يسام
الدين لا يعتز ما لم يحمه	ملك بناه باسل وهمام
ماذا يقول نبيهم وجواره	فيه لطاغية العدى استحكام
الشام أرهقه الفرنسيين الأول	هم مجرمون بهم طحا الإحرام
والإنكليز على فلسطين ارتموا	وهي الفريسة فوقها الهمهام
وتبكلوا أرض العراق فأصبحت	ملكاً لهم منه جداً وزمام

ثم يختتم الشاعر قصيدته صارخاً بأعلى صوته ومستغيثاً بجموع المسلمين
الذين أمّوا بيت الله العتيق والعاكفين حول زمزم والحطيم^(١) أن يهبوا لنجدة إخوانهم

(١) الحطيم: جدار الكعبة

المستضعفين، داعياً إياهم إلى الجهاد المقدس موحدين صفوفهم وجامعين كلمتهم وقوتهم، فأما النصر والعز والسؤدد وإما الشهادة والجنة والخلود .. يقول:

يا عَكْفًا حول الحطيم تحطموا	غيظا وكل في الوغى حطام
هلا بطشتكم بطشة كبرى لها	تحرر الأوطان والأحرام
فإلى الجهاد إلى الجهاد تصارخ	وعلى الجهاد على الجهاد زحام
صفوا كتائبكم وروضوا خيلكم	ونفوسكم فالظافر العزام
وتعاونوا متعارفين برأية	حفت بها الأملاك والأعلام
في ظلها نيل الشهادة والعلال	وأمامها الجنات والإكرام
الحسنيان .. وقد علمتم نصرة	وشهادة فالمؤمن المقدام

ولا شك أن الشاعر يتطرق في هذه الأبيات لأمر هو من أمس الواجبات والفروض التي تهم أمر المسلمين - ولكنهم للأسف عطلوه - ألا وهو الجهاد في سبيل الله، الذي يعتبر بحق ذروة سنام الإسلام وأعلى درجاته؛ وذلك لما فيه من البذل والتضحية وحماية ممتلكات المسلمين وأعراضهم والدفاع عن حرياتهم وأوطانهم، وفي هذا إيقاظ للروح القتالية الجهادية لدى المسلمين لدفع الظلم الواقع بهم واسترداد عزتهم وكرامتهم، والحقيقة أن هذه الأبيات الثرية بالعواطف والأحاسيس والتي هي في مجموعها صرخات ونفثات يدعو فيها الشاعر المسلمين لإعداد الجهاد وضم الصفوف، فإنها تجمع بين الوجدان العاطفي والحس الوطني الذي ملك على الشاعر حواسه وانفعالاته.

وعلى هذا الغرار من رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر على مجدها الضائع وعزها الغابر، والدعوة إلى إقامة الدول العربية الموحدة التي ترص فيها الصفوف وتوحد بها القلوب والأهداف، قصيدة جديدة للشاعر أبي الفضل الوليد بعنوان (المكية)^(١) ومطلعها:

(١) ديوان أبو الفضل الوليد ص ٨٥.

برزت وقد شقت حجاب الأعصر بنت النبي الهاشمي الأكبر
يقول فيها:

كل المحاسن والمكارم عرضة بعد الخلافة للسفيه المفتري
كان الخلائف يحفظون عهودها وهي المهانة عند علج يزدرى
بأن الله أيتها الخلافة جمعي شمل البنين التائمين النضر
قد كنت عقداً .. للجواهر ناظماً فأنحل .. واسفاه عقد الجوهر
وأقول هذي أمتي أو دولتي وأنا القوي أنا العلي أنا الجري

ثم يمضي الشاعر مركزاً على الدور العربي في توحيد الأمة العربية ويدعو إلى جمع الكلمة ولمّ الشمل، وأن يكون المسلمون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، مستلهمين رموز هذه الوحدة من معالم الدين الحنيف ومعاني اللغة العربية الخالدة، وسوف يصبحون والحالة هذه من القوة والمنعة بحيث لا يتسلل إليهم عدو ولا ينفذ إليهم طامع...

فيقول:

الدولة العربية الكبرى بكم ولكم تعود على العجاج الأكر
توحيدكم لله منه وحدة لجموعكم فخذوا برأي مدبر
وتجمّعوا أمماً وصيروا أمة فالملك أعظم بالعديد الأكثر
كونوا كبنين يشدّ بعضه بعضاً فيأمن كل ريح صرصر
لا شيء يفصلكم وهذا دينكم ولسانكم فتمسكوا بالجوهر

ونحن إذا تأملنا البيت الأخير من القصيدة سوف نلاحظ الحكمة الباهرة التي قصدها الشاعر وهي أهمية تماسك عرى الدين وروابطه بين كافة شعوب المسلمين، وكذلك أهمية انتشار اللغة العربية واللسان العربي بين أفرادهم وجماعاتهم...

فالدين هو ما يتدين به الإنسان من حيث أنه ((وضع إلهي يرشد إلى الحق من الاعتقادات والخير في السلوك والمعاملات)) واللغة التي ((هي مجموعة من الألفاظ والقواعد التي تتعلق بوسيلة التخاطب والتفاهم بين جماعة من الناس، وهي تعبر عن واقع الفئة الناطقة بها، ونفسياتها وعقليتها وطبعتها، ومناخها الاجتماعي والتاريخي)) ...

هذان المصطلحان يشكلان قضيتان مصيريتان من قضايا المسلمين في العصر الحاضر؛ نظراً لما لهما من صلة وثيقة بوحدة أمتنا الإسلامية، ويلعبان دوراً بارزاً في سبيل استعادة عزتها وكرامتها.

ومن القصائد التي قيلت في رثاء الخلافة الإسلامية القصيدة التي نشرتها صحيفة الفتح القاهرية بعنوان (دمعة على الخلافة) ^(١) لشاعر لم تذكر اسمه ومطلعها:

رحمة الله علينا أجمعين قد أضعنا الدين والدنيا معل

حيث نعى فيها الشاعر نفسه كما نعى جميع المسلمين جراء ما فعلوه بالخلافة حين لاذوا بالصمت عندما تم إلغاؤها من قبل الكماليين، ثم يترحم عليهم ويقرر أنهم أضاعوا دينهم ودنياهم، ثم يخلص الشاعر إلى الموضوع الرئيس للقصيدة وهو رثاء الخلافة الإسلامية، فيندبها بحزن بالغ وأسف عميق آخذاً على المسلمين وحاملاً عليهم نهاونهم بحقها ولائماً عدم اكترائهم بما جاء في كتاب الله الكريم وسنة رسوله المطهرة من معاني الوحدة والاعتصام بحبل الله الوثيق، ومن نبذ للتفرق والعنصرية والتمزق .. فيقول:

يا لقومي يا لديني .. ضربوا أمرة الإسلام في مقتلها
صيروها شعبتين انقلابوا يهدمون الأصل من معقلها

(١) الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث عن صحيفة الفتح (٨٦) ٩ / رمضان / ١٣٤٦ هـ.

زعموها بدعة قد كذبوا فرية منهم لا نقبلها
 طردوا عنهم أمير المؤمنين لا عصياً .. لا ولا مبتدعا
 ألغوا الإمرة لا مكترئين بكتب الله أو ما شرعا

ثم يختتم قصيدته بالتحذير من سوء العاقبة التي تنتظر المسلمين من مغبة العمل الذي اقترفوه بحق الخلافة الإسلامية، ثم بعد ذلك يعترف الشاعر بمرارة وأسى ويقرر أن العالم الإسلامي أصبح مطية للغرب تابعاً له وتحت سيطرته، وأنه لن يسترد مكانته ويستعيد دوره القيادي إلا بالرجوع إلى الله وتطبيق شريعته والتمسك بكتابه وسنة نبيه (ﷺ) يقول:

ويل لنفسي ويل قومي من لنـد ما رأى التعذيب إلا قد أتانـا
 عالم الإسلام أعياه الضنـى داؤه الغرب خضوعاً واقتسامـا
 إن نعد لله عوداً حسنـاً فسينجينا .. كما أنجى سوانـا
 سنة الله مضت في الأوليـن لن ترى من دونها متسعـا
 قد تخلى الله عن أمر الديـن صار دين الله فيهم ضائعـا

وهكذا فإننا نلاحظ في القصيدة شعور الانتماء لدى الشاعر إلى جماعة المسلمين، وتحذره بلسانهم بكل مرارة وأسى عن هذا المصير المؤلم وهذه الأوضاع السيئة التي فرضها عليهم الغرب والذي يعتبره بحق أصل كل داء وبلاء، وأنه لا فكاك من هذه الأوضاع إلا بالرجوع إلى دين الله القويم وتطبيق شريعته المطهرة، وهذه سنة الله في خلقه والله في خلقه شؤون.

وروح الفكرة الاتحادية لأمتنا والتطلع إلى راع يقودها ويأخذ بيدها إلى مراقي الفلاح، ويعود بالإسلام إلى منابعه الصافية وأيامه الخالدة، ما فتئت تراود العديد من الشعراء الإسلاميين وتشكل علامة بارزة في تطوراتهم وتطلعاتهم ...

ومن هذا المنطلق قصيدة للشاعر محمود غنيم بعنوان ((وقفة على طلي))^(١)
يصف الشاعر فيها سوء حالته ويذكر أن عينيه أصبحتا لا تألفان النوم بسبب ما
يؤرقه ويقض مضجعه من الحالة المفجعة التي آلت إليها أمتنا العربية، وأصبحت
منقسمة على نفسها بعد أن كان العالم مسرحها والدنيا تحت سيطرتها، وهو كذلك
مهموم وحزين من أمر المسلمين الذين تتناوشهم الأحداث وتتازعهم الأمم لضعفهم
وقلة حيلتهم، ونراه هنا يصفهم بالطيور المقصوصة الأجنحة التي لا تقوى على
الطيران، وترسخ للأمر الواقع دون أن تحاول الانفضاض أو الثروة على هذا
الواقع الأليم ... يقول الشاعر:

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه؟	أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
إنني تذكرت والذكرى مؤرقة	مجداً تليداً بأيدينا أضعنناه
أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد	تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتورأى في زواياه
كم صرفتتنا يد كنا نصر فيها	وبات يملكننا شعب ملكناه

ويستمر الشاعر على هذا النهج موضعاً ومسلطاً الضوء على دور الإسلام
في تاريخ أمتنا وأنه ليس مجرد دين سماوي لا علاقة له بالسياسة كما يدعي بعض
المغرضين من شواذ هذه الأمة^(٢) ، ولكنه دين ودولة وجامعة شاملة تستظل بظلها
أمة الإسلام قاطبة، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى، تتلاقى أرواحهم من
خلاله جذلي مستبشرة كأنها النحلة هائمة بين الخلايا العامرة بالطيب والشهد، ثم
يلقي الشاعر بعض الظلال الموحية على الإسلام فيصفه بأن دستوره القرآن الكريم،
والمصطفى المختار صلوات الله وسلامه عليه هو نبيه ورسوله، وأن المسلمين
الأبرار هم أهله ورعاياه وكفى بذلك فخرا ... يقول:

(١) ديوان محمود غنيم

(٢) العلمانيين وما شابههم من الأحزاب المنحرفة عن جادة الإسلام.

إني لأعتبر الإسلام جامعة للشرق لا محض دين سنّه الله
أرواحنا تتلاقى فيه خافقة كالنحل إذ يتلاقى في خلاياه
دستوره الوحي والمختار عاهله والمسلمون وإن شتّوا رعاياه

وفي ختام القصيدة يتوجه الشاعر بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يرحم
هذه الأمة التي أصبحت مزقاً وغدت عليها عوادي الدهر فتوزعت أهواؤها وتمزقت
أقطارها، ويسأل الله أن ييسر لها راع محمود السيرة طاهر السريرة يعيد لها مجدها
وهيبتها، ويرد لهذا الدين روحه وعزته فيقول:

لا همّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته يرعى بنيه وعين الله ترعاه

وبهذا الدعاء الذي اختتم به الشاعر قصيدته، وتوجه إلى الله تعالى أن ييسر
لها من يدبر أمرها لتقفز إلى الواجهة، يبرز لدينا أهمية الحاكم المسلم ودوره
العظيم، من حيث كونه مركز الثقل وموطن الأمل، وصاحب الصوت المرتفع
والموقف الحاسم في حياة المسلمين، وعليه أن ((يتحمل أمام الله تعالى، ثم أمام
الأمة وأمام التاريخ مسؤولية القيام بحقوق الأمة كاملة، والسهر على مصالحها
 وإقامة ما يحقق عزتها وكرامتها ورفعتها وسيادتها، وإن من أعظم حقوق هذه الأمة
على رعاتها السعي إلى تحقيق وحدتها، واجتماع كلمتها، وحكام هذه الأمة هم الذين
يملكون ذلك بالدرجة الأولى، ويتوجه إليهم الأمر في ذلك على وجه الفرض العيني،
الذي لا يعفيهم من مسؤوليته عند الله تعالى أي اعتذار أو تبرير))^(١).

وينظم الشاعر (إبراهيم أحمد عبد الفتاح)^(٢) قصيدة بعنوان الراية الإسلامية
سنة ١٣٦٣هـ يرثي فيها الخلافة الإسلامية ويتقطع ألماً وحسرة على علم الإسلام
الذي أصابه الذل والتمزق وهوى إلى الثرى تحت أقدام الأعداء الحاقدين وتمزق

(١) وجوب وحدة المسلمين، عبد المجيد الببانوي، ط ١٩٩٣م / ١٤١٣هـ ص ١٥٤.

(٢) شاعر مصري معاصر.

بتمزق دولة الإسلام الواحدة إلى دويلات مقطّعة متناحرة، وهو إذ يذكر ذلك فإنه يتطلع بشوق ويترقّب بأمل ذلك اليوم الذي تتوحد فيه دولة الإسلام في دولة واحدة عزيزة الجانب عظيمة الشأن تحتل مكانها الرائد بين دول العالم أجمع فيقول:

لهفي على علم مال الزمان به إلى الرغام ذليل الشأن متضعاً
داسبت على راية الإسلام حاقة أقدام أعدائه حتى غدت قطعاً
متى نرى دولة الإسلام شامخة بين الأنام وشمل الشرق مجتمعاً

نعم متى تقوم هذه الدولة الإسلامية التي تلم شتات المسلمين وتجمع شملهم، وتطلع إليها أفئدتهم بكل تلهف وشغف، ويعتبرونها المنقذ الوحيد لحل مشكلهم ورد اعتبارهم، وما ذلك على الله بعزيز.

وفي الحقيقة أن هذه الدعوة وأمثالها التي تطالب بقيام دولة إسلامية موحدة أو قلّ خلافة إسلامية، ليست مستحيلة أو ضرب من ضروب الخيال، وأقرب مثال على مصداقيتها أن أمتنا الإسلامية ظلت تستظل بظل خلافة إسلامية منذ تأسيسها حتى تم إلغاؤها سنة ١٩٢٤م.

أما من خارج واقعنا الإسلامي ((فإن ما نراه من واقعنا المعاصر من قيام دولة كبرى تضم شعوباً متعددة واحدة كالاتحاد السوفياتي^(١) والولايات المتحدة، وما نراه من تكتلات إقليمية وتحالفات سياسية وأسواق تجارية تجمع دولاً متعددة تربطها مصالح مشتركة يؤكد لنا أن للخلافة الإسلامية مكاناً في عالمنا، فلا بد لنا أن نسعى من جديد ليكون للمسلمين ما ينظم شملهم، ويحقق مصالحهم، ويحفظ وجودهم، ولن نجد مثل ذلك إلا في الخلافة))^(٢)

(١) لا شك أن انهيار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩٠م كان لأسباب شتى من أهمها علمانيته وبعده عن الدين.

(٢) د / أحمد فرحات، الخلافة في الأرض ط ١٩٨٦م ص ٥٦.

وبعد فهكذا تمّ لنا في هذا الفصل إبراز وعرض قصائد الرثاء المباشر للخلافة الإسلامية، والتي كان لها قصب السبق والأثر الكبير فيما جاء بعدها من قصائد الرثاء واستنهاض الهمم والحنين إلى إحياء الخلافة الإسلامية .. إلى غير ذلك من الأغراض، والتي أجزم أن التوفيق قد صاحبها في كثير من الأحيان؛ نظراً لما اتسمت به من الصدق والواقعية، وما امتلأت به من الحزن والأسى والألم على بلاد المسلمين وما حوّم حولها من أشباح الغربة وأطياف الشتات والفرقة، ثم ما رسمته أخيراً من خطوط واضحة ومعالم ثابتة على طريق أمتنا الإسلامية للنهوض بها من كبوتها واستعادة مجدها وكرامتها وصحوتها.

الفصل الثاني

الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار

كان لسقوط الخلافة الإسلامية كما ذكرنا أثر كبير على نفوس الشعراء، سواء الذين عاصروا هذا السقوط أو من تلاهم حتى يومنا هذا، وكان يجرفهم الحنين وتعصف بهم الذكريات إذا ألجأتهم الأيام أو اضطرتهم الظروف إلى الوقوف على موقع من مواقع الخلافة، أو مدينة من مدائنها أو أثر من أثارها الشهيرة، فيتغنون بأمجاد هذه المواقع ويشيدون بذكر الوقائع والبطولات العظيمة، ويترنمون بذكر أولئك الأبطال الذين صنعوا هذه الأعمال الجليلة وكانوا رموزاً لها، ومن ثم يمجدون بطولاتهم ويسجلون انتصاراتهم والافتخار بها.

وقد حفلت دواوين الشعر التي بين أيدينا بالعديد من القصائد التي وقف فيها الشعراء على عدد من هذه المدائن والمواقع والرموز الإسلامية سواء ما كان منها داخل عاصمة الخلافة أو ما كان خارجها، وقد سجلوا فيها أحاسيسهم وانطباعاتهم تجاه هذه المواقع، ونستطيع ان نلم إلمامة سريعة بعدد من هذه القصائد وخاصة فيما يلائم أهداف هذه الدراسة ويتفق مع مضمونها، بحيث تتنوع هذه المعالم وتتعدد وتشمل أكثر من جهة وفي أكثر من قطر من أقطار المسلمين.

الفصل الثاني

الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار

باديء ذي بدء نود أن نشير إلى عدد من المواقع والمعالم التي وقف عليها الشعراء داخل عاصمة الخلافة (الأستانة) وكان لها شهرة كبيرة وأهمية بالغة في تاريخ الخلافة الطويل، وأول هذه المواقع هو مسجد (أياصوفيا) الذي تحول بعد إلغاء الخلافة إلى متحف وذلك مما أثار حفيظة الشعراء ودعاهم إلى تسطير العديد من القصائد في هذه المناسبة والتي تنعى على المتسببين في هذه العملية الشنعاء، وتقلب لهم ظهر المجن خاصة (مصطفى كمال) الذي طالما مدحه الشعراء بسبب إقترافه لبعض الأعمال التي أوهم الناس أنها بطولية؛ وذلك ليتسنى له إلغاء الخلافة فيما بعد، ثم ما تبع ذلك من أفعال شنيعة بحق الإسلام والمسلمين يندى لها جبين التاريخ.

وأيا صوفيا كما هو معروف مسجد من مساجد المسلمين المشهورة، ورمز من رموز الإسلام الخالدة، وقد كان قبل أن يتحول إلى مسجد عبارة عن كنيسة للنصارى تسمى (كنيسة القديسة صوفيا) ^(١) في مدينة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، وذلك قبل أن يتم فتحها على يد السلطان العثماني محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣م حيث قام بتحويل هذه الكنيسة إلى مسجد جامع للمسلمين وبقي كذلك إلى أن استولى كمال أتاتورك على الحكم وتم تحويله إلى "متحف" وما زال حتى الآن.

وقد وقف الشاعر أحمد شوقي على المسجد قبل أن يتحول إلى متحف فنظم قصيدة يعلل فيها تحويل الكنيسة إلى مسجد، ويعتبر أن ذلك التحويل عبارة عن

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي ص ١٦٤.

هدية من نبي هو المسيح عليه السلام إلى نبي هو نبينا محمد ﷺ يقول بهذا الخصوص^(١):

كنيسة صارت إلى مسجد	هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرماً فانتـهت	بنصرة الروح إلى أحمد
شيدها الروم و "أقيالهم"	على مثال الهرم المخلد ^(٢)
قد جاءها (الفتاح) في عصابة	من الأسود الركع السجد
رمى بهم بنيانها مثلما	يصطدم الجلمد بالجلمد ^(٣)
فكبروا فيها وصلى العدا	واختلط المشهد بالمشهد

وينظم كذلك الشاعر حافظ إبراهيم قصيدة بعنوان (أياصوفيا) وقد قالها ((حين خيف على الأستانة أن تمتلكها دول الحلفاء وتتزعها من يد الأتراك وذلك عقب الحرب العظمى، وكانت جيوش تلك الدول قد احتلت هذه المدينة، وقد تأخر نشر هذه القصيدة إلى سنة ١٩٣٣م))^(٤) يقول الشاعر:

(أياصوفيا) حان التفرق فلذكري	عهود كرام فيك صلوا وسلموا
إذا عدت يوماً للصليب وأهله	وحلّ نواحيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس .. وقام مزمر	من الروم في محرابه يترنم
فلا تتكري عهد المآذن إنه	على الله من عهد النواقيس أكوّم

ونستطيع أن نلاحظ في هذه الأبيات أن نزعة الخوف والإشفاق على مصير "أياصوفيا" من أن يستردها الصليبيون ويعيدونها إلى سيرتها الأولى، كانت هذه تسيطر على الشاعر وتمتلك عليه حواسه، ولكن ما أثبتته التاريخ وصنعتة الأحداث

(١) الشوقيات، أحمد شوقي ٢ / ٢٧.

(٢) الأقيال: الملوك.

(٣) الجلمد: الصخر.

(٤) ديوان حافظ إبراهيم ٢ / ٨٨.

أن الضربة القاصمة التي وجهت إلى مسجد أياصوفيا لم تأت من قبل الأعداء وإنما جاءت من قبل الأهل والأصدقاء وتم تحويله كما ذكرنا آنفاً إلى متحف يخصص بالتحف والآثار.

أما عن وقوف الشعراء على أياصوفيا بعد أن تم تحويله من مسجد إلى متحف، فكثيراً ما وقف الشعراء عليه، وتقطعوا ألماً وحسرة حزناً على ما آل إليه، وكان من أوائل هؤلاء الشعراء الذين وقفوا على متحف (أياصوفيا) وتألّموا لما حل به الشاعر محمد صادق عرنوس الذي هاله ما رآه من تغيّر حاله وتبدل مآله، فها هو المسجد الذي كان درة مساجد عاصمة الإسلام (إسلام بول) والذي اكتسب شهرة عمت الآفاق، وطالما ارتفع فيه اسم الله عالياً وأقيمت به الجمع والجماعات، يصبح مجرد مستودع للتحف والآثار، وممرّاً للسواح والزوار.

وقد استهل الشاعر قصيدته بالتعبير عن حزنه وحزن إخوانه من أبناء المسلمين الذين دهمتهم المأساة وعمّهم الحزن، فيبكي المسجد - أو الذي كان مسجداً - ويشاطره الحزن والأسى فيقول^(١) :

"أياصوفيا" على مأساتك أبكي	فقد بدلت إيماناً بشرك
أشاطرك الأسى والدمع أيضاً	فليس سواهما شيء بملكي
مصابك رغم ظاهرة التجلفي	مصاب المسلمين بدون شك

ثم يخاطب الشاعر "أياصوفيا" متسائلاً ومتحسراً على أيام العز والسؤدد الذي درس خرس، وعن نور الإيمان الذي خبا وطمس فيقول:

"أياصوفيا" بربك أين طير	ترنم فيك دهرأ فوق أباك
مأذنك التي هتفت قروناً	لها قال الغواة اليوم قدك ^(٢)

(١) صحيفة الفتح: العدد (٤٣٥) ٢٤ / ذو القعدة / ١٣٥٣ هـ.

(٢) قدك: يكفيك.

وفي نهاية المطاف وعندما يرى الشاعر أفواج السياح والزوار، ومن مختلف المشارب والأهواء والأجناس، يروحون ويغدون في أنحاء المسجد وردّهاته، يوجه الشاعر اللوم إلى المسجد؛ لأنه لم يهوَ ويندكّ على رؤوس هؤلاء العصاة والمارقين الذين لم يؤمّوه إلا للتشفي والتعبير عن فرحتهم بما آل إليه حال المسجد، ويستتكر الشاعر ما لحق بالأتراك من الضيم والذل نتيجة لذلك وهم المعروفون بالغيرة الإسلامية والدفاع عن حياض الإسلام، ثم يستسلم أخيراً للأمر الواقع ويقر بأن ما ينسحب على أياصوفيا، وما حصل له، ليس بغريب ولا بعيد عن تاريخ الإسلام، فمن قبل ذلك سقطت الأندلس، وتحولت مساجدها وخاصة مسجد قرطبة العظيم إلى كنيسة، وما زال يعاني مرارة الأسر والتحويل حتى هذا التاريخ ... يقول الشاعر:

فمالك لم تدكّ على رؤوس	أنت لتري انقلابك شرّ دكّ
أنت لا للصلاة كأمس لكن	لرؤية منكر وشهود إفك
تساعل بعضهم دهشاً حزيناً	أشعب سيم هذا الضيم تركي؟
"أياصوفيا" أنياس من هداه	فننظمه "وأندلساً" بسلك

والشاعر هنا وهو يجتر الأحداث المرة ويربط حاضراً مسجد أياصوفيا في مدينة اسطمبول، بغابر مسجد قرطبة في الأندلس، إنما يحاول لفت الأنظار إلى توالي الحوادث والنكبات على المسلمين إثر سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس، والخلافة الإسلامية في اسطمبول، وإلى أن هذين الحدثين كفيلاً بإثارة همم المسلمين وشد عزائمهم إلى التفكير بمصيرهم المؤلم والعودة إلى وحدتهم وتماسكهم.

ومن أجل "أياصوفيا" أيضاً بكى الشاعر محمد حسن النجمي الحال الذي وصل إليه المسجد، ثم يتعجب متسائلاً: كيف وصل به الأمر إلى ما وصل إليه في بلدة هي السبب في وجوده وازدهاره، والشاعر هنا يعرض بفتح القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح الذي حول كنيستها "أياصوفيا"

إلى "مسجد أياصوفيا" ، وها هو اليوم وعلى يد فئة باغية من أبناء الترك يتم تحويله من مسجد إلى متحف، لكن شتان بين ذلك الفاتح العظيم وعلمه الرائع، وهؤلاء المفسدين وعلمهم المزري المشين، وهذا برأي الشاعر منتهى العجب والأمر المضحك المبكي ...

يقول الشاعر عن "أياصوفيا"^(١) :

قفا أيامها الغراء نبكي	ونشكوا الدهر علّ الله يشكي
ونندب حضها شماء مما	أفاء السيف قد منيت بدك
أيشقى دين أحمد في بلاد	على أكتافه نعمت بملك
ويرغب عن هدايته أناس	بها عبروا البحار بغير فلك ^(٢)
ضحكت وأدمعي تجري، وبدع	لعمرى ضاحك بالدمع يبكي

وحقاً صدق المثل القائل "شر البلية ما يضحك" فأى بلية أعظم بل وأي مصيبة أكبر من أن تتحول رموز المسلمين ومقدساتهم وأماكن عبادتهم إلى متلحف أو إلى ملاهي عامة يؤمها السواح والمتفرجون، فيستحلون حرماؤها، ويدنسون شرفها ومقدساتها.

(وفي موقف إيجابي تأثيري يطالعنا الدكتور أمجد الطرابلسي^(٣) بأصدقاء وجيزة حزينة متأثراً لصمت "أياصوفيا" التي تنكر لها أتاتورك فأخمد فيها صوت الأذان وتلاوة القرآن بعد أن كانت تغص بالمصلين وتضج بالتهليل والتوحيد لله، وخلف للضياع تراثاً إسلامياً قد عقد محراباً للخلافة الإسلامية أعصر^(٤)).

(١) مسجد في تركيا كانت كنيسة بزنطية.

(٢) سفينة

(٣) أمجد الطرابلسي: شاعر لبناني معاصر.

(٤) أثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا، محمد عادل الهاشمي عن مجلة الرسالة العربية

يقول الشاعر :

"أياصوفيا" تذري الدموع وتسفح
تكر أهلوها لها وأذاقها
وهانت على من كان بالأمس مشفقاً
أهجرها أبناؤها دون رحمة
ألم تك محراب الخلافة أعصرا
إذا سمع الناس الأذان رأيتها
إذا تلى القرآن فيها رأيتها
تمايل من ترثيله وترنح

يتضح مما تقدم أن الشاعر الطرابلسي استطاع أن يرسم لنا صورة حزينة مؤثرة للحالة التي آل إليها مسجد "أياصوفيا"، ثم استطاع أيضاً وهو يسكب عواطفه الإسلامية المتوهجة أن يذكر بالعهد الزاهر الميمون للمسجد أيام كان يغص بالمصلين وتتجاوب بأنحائه آيات القرآن الكريم فتعطر الأجواء وتتمايل فرحاً وسروراً من روعة الإحساس والتأثير، وبهذا يكون الشاعر قد رسم لنا صورة رائعة الجمال حيث وصف جوانب المسجد وهي تتمايل طرباً وحبوراً.

وفي قصيدة أخرى من النماذج الشعرية الجميلة الصادقة، التي تمثل الوقوف على عاصمة الخلافة السابقة اسطمبول، هي قصيدة (اسطمبول) أو (إسلام بول) والتي نظمها الشاعر الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني حيث وقف على المدينة في شهر شوال سنة ١٤٠٤ هـ فأذهله ما رأى من آثار العظمة وشواهد التاريخ التي لا تزال تنطق بروائع المجد وتعبق بشذى الإفتخار ...

يستهل الشاعر قصيدته بتوجيه الخطاب إلى الطائفة التي سقله ويدعوها أن تحط الرحال - وهي في غاية الفرح والنشوة والسرور - في مدينة اسطمبول .. دار الخلافة والمجد التي كان أهلها حماة الإسلام وأبطاله، والمتحكمون في مصير الشرق والغرب على السواء.

يقول:

يا ذا الجناحين حط الرجل مزداناً
قد كان يوماً هنا عز وسلطنة
قد كان يوماً هنا قصر أوامره
الشرق والغرب كالقرطاس في يده
من ههنا انطلق التكبير في حقب
فكان فتحاً وإصلاحاً وتبانياً
إذا وصلت إلى اسطمبول نشوانا
للترك إذ نصرُوا الإسلام فرسانا
تطاع في الأرض إجلالاً وإذعاناً
فلا يرى فيه مملي الحظ عصياناً

بعد ذلك يأخذ الشاعر في وصف مساجد اسطمبول والتي هي أشبه ما تكون
بعقد جميل يطوق شاطئ البحر، وكأنها الرماح المشرعة التي لا تزال حافلة بكل
معاني الشموخ والزهو؛ لكونها منارة دعوة ونداء للمسلمين لتأدية شعائرهم الدينية،
وتصريف أمورهم الدنيوية من جهة، وشوكة في قلوب الأعداء وقذى في عيونهم
وغصة في صدورهم من جهة أخرى ... يقول :

مآذن العز في البسفور أذهلني
أهي الرماح بأكباد العداة قذى؟
جوامع المجد حول البحر قد نظمت
دلت على عزة الإسلام في بلد
شموخها في الروابي الخضر مراناً^(١)
أم الأذان بها قد شمع إيماناً؟
كالتاج والعقد إيماناً وبنياناً
قد كان يوماً يظل الكون سلطاناً

في هذه القصيدة التي تتسم بالاعتزاز والفخر استطاع الشاعر وبكل حماسة
معهودة أن يستمد مقومات هذه المآثر والصفات من المزايا العظيمة والبطولات
الرائعة التي حققها العثمانيون أيام حكمهم الزاهر الطويل، وما هذه المساجد والمآذن
والآثار الحضارية الزاهية إلا أكبر دليل على ذلك العز والمجد.

(١) المران: الرماح.

ويقف الشاعر الدكتور / جميل علوش^(١) على فروق (مدينة القسطنطينية) التي زارها ١٩٨٥م، وبعد جولة متأملّة في معالمها الطبيعية والتاريخية نظم هذه القصيدة والتي هي بعنوان (سلاماً لفروق)^(٢) ومطلع القصيدة:

تولى زمان الهوى والشباب وزهو الصبا وجنون التصابي

ثم يبدأ الشاعر قصيدته بالتعبير عن الحضارة البالغة والإستقبال الرائع الذي شملته به معالم المدينة وآثارها وأحيائها، وراح يصف روعة هذه الآثار المجيدة التي لا تزال ماثلة للأنظار، تشهد لها الأيام والسنين بالعظمة والخلود ... يقول:

دخلنا "فروق" فرفت ظلال وهشت سهول وبشت روابي
أرى قمماً في عنان السماء تفاوت في البعد والاقتراب
فمنها الذي مد للنجم كفاً ومنها الذي غاب بين السحاب
وكم في المتاحف من طرفة تشع سنى من وراء الحجاب

ثم راح الشاعر يحلق بخياله ويسرح بفكره إلى البعيد، إلى الأيام الزاهية التي عاشت أمجاد آل عثمان وخلفائهم العظام وفرسانهم الأبطال الذين دأبوا على خوض المعارك الفاصلة دفاعاً عن حياض الإسلام وحوزة المسلمين، ثم بعد ذلك يستفيق الشاعر من حلمه ويستيقظ من غفوته الآسرة، ويرجع إلى نفسه فيجدها وهي رهينة الأسى وحليقة العذاب، عذاب الواقع الذي حمله معه في رحلته الجدياء فيقول:

رأيت الخلائف في عزهم وقد حكموا سطوة في الرقاب
وإذ ملك عثمان ثبت الأساس وإذ عرش عثمان عالي الأسلس
رأيت خلائفهم في القصور وما أسلفوا من صنيع عجاب
رأيت الفوارس في المعمعان على صهوات الخيول العرباب

(١) شاعر فلسطيني معاصر

(٢) ديوان مواكب الربيع، د. جميل علوش ط ١٩٨٥م.

وأن الجيوش بساح القتال وأن مغاويرهم في اقتراب
وأن المدافع راحت تدوي وتعصف في حدة واغتصاب

بعد ذلك يعبر الشاعر عما في نفسه من حسرة وألم لهذه الحياة الطويلة
الجذباء التي انعدم فيها الصديق الصدوق، وخلا منها الصاحب الوفي، وتراكمت
عليه المصائب، وأشدها وقعاً وأثراً على النفس احتلال اليهود لبلادنا وإضاعة
مكتسباتنا وحقوقنا وتكميم أفواهنا حتى أننا لا نستطيع إنكار الباطل أو دفع الظلم
والاغتصاب، وهذا هو منتهى الذل والمهانة فيقول:

شدت (فروق) إليك الرحال وبني من صروف زماني مابي
وليس مصابي تعس الحظوظ ولكن فقد الضمير مصابي
وصحب اهزهم للفعال فأسمع مثل طنين الذباب
أضاع اليهود حقوقي ففيم إذا رحت أشكو اليهود عقابي؟
وفيم يحرم دفع الأذى ودمغ التجبر والاغتصاب؟

وفي أبيات تطفح باللوم والعتاب، وتقطر بالأسى والحزن، وتمتزج بالحماسة
والفخر وتشف عن ماض مشرف وواقع أليم، راح الشاعر يذكر مدينة فروق (بأيلم
العز والقوة والمنعة، أيام الدفاع عن بلاد المسلمين وصون محارمهم، ويعاتبها على
هذا السكون العميق والجمود البالغ حيال العرب المسلمين، وتحولها عن نصرتهم
والدفاع عن حقوقهم كسابق عهدها، تجاوبا مع ما يربطها بهم من أواصر الدين
والتراث والتاريخ المشترك، والأذى يفرض عليها ويلزمها - وهي ترى مقدساتهم
تستباح وحرمااتهم تنتهك - أن يهبوا لنجدتها ويفزعوا لنصرتها وإغايتها إذا كانوا
جديرين بالانتماء لهذا الدين القويم ويهتدون بهدي الكتاب المبين ... يقول:

سلاماً (فروق) ولو تسمعين عتاب تناهي إليك عتابي
حميت الثغور السنين الطوال وصنت محارمنا من نهاب
وصلت على الشر صول الأسود ولم تتركي منفذاً للذئاب

ففيهم سكنت السكون العميق وأنسيت عهد الوغى والظراب؟
هبي أنا قد خفرنا العهود وأنا ضللنا طريق الصواب
فأين أواصر دين حنيف وماض عريق ومجد لباب
أمن يقتدون بنهج الرسول ومن يهتدون بهدي الكتاب
يرون مساجدنا تستباح ولا يسهمون بعود ثقاب

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عما يختلج في نفسه ويعتمل في خاطره بكل صراحة وصدق أبلغ تعبير، في أبيات قليلة تحمل معان كثيرة بل تنقل تصوراً شاملاً للعلاقات الآتية بين الأتراك والعرب، والتي تتضح من رؤية الشاعر بأن جسورها قد تصدعت وأشلاءها قد تمزقت، خاصة وهو يرى هذا الجفاء الحاصل من قبل الأتراك وعدم مبادرتهم لنصر القضايا العربية واسترجاع الحقوق المغتصبة في فلسطين أو المساهمة في حلها، ثم يذكرهم بدورهم العظيم يوم كانوا خلفاء هذه الأمة، واضطلعوا بحماية الإسلام ونصرة المسلمين.

ومن مسجد (أياصوفيا) في مدينة "استمبول" إلى قصر "دولما" في المدينة نفسها، الذي وقف عليه الشاعر الدكتور عدنان علي رضا النحوي سنة ١٤٠٦هـ وتجول في أنحاء القصر وردّهاته، ثم في إحياء المدينة ومعالمها، وخرج منها بعدة انطباعات وذكريات تحمل في طياتها العديد من الرؤى الحاملة المضمخة بعبير التاريخ وقد أسفرت عن قصيدة بعنوان (ملحمة التاريخ)^(١)

(١) د / عدنان علي رضا النحوي، ديوان جراح على الدرب ط ٢ ١٤٠٧هـ.

وقد استهل الشاعر الملحمة بمخاطبة القصر ووصف ما رأى فيه من العجائب والآثار، وما يحتويه من الزينات والزخارف المتمثلة في الأثاث واللوحات المصنوع أكثرها من الذهب الخالص وقد اعتبر الشاعر أن هذه نوع من الترف والإسراف حيث يقول ((وتضلل الأمة في عزة الإيمان تعلو وتنمو، وهي تمضي في جهاد وخضر ودعوة غنية، أما إذا أقبلت الدنيا بفتنتها وزخرفها، ومالت النفوس لها وتحرك الهوى، وضمير الجهاد، وانحسرت الدعوة، تهبط الأمة عندئذ حتى يطمع فيها كل طامع))^(١)

يقول الشاعر:

يا قصر "دولما" جلال الهدي لم يغيب	ونضرة لم تزل في عودها الرطب
نور من الحق .. أم ومض من الذهب	ورونق الصديق أم من زخرف الكذب
أجول فيه .. فألقى من عجائبه	ما عاد في خاطري أوهى من العجب
كأنما بهجة الدنيا هنا جمعت	من زينة الأرض أو من زينة الحقب
يا قصر "دولما" على قاعاتك ائتلفت	دنيا تموج ورففت نشوة الطرب
شتان ما بين وهم أنت تدفعه	يا قصر "دولما" وحق غير محتجب
هذي زخارف من كبر ومن سرف	وفتنة من فجور اللهو واللعب
كأنها هدمت بنيان مملكة	وحطمت من حصون المعقل الأشب ^(٢)

لكن الشاعر وهو في غمرة الاندهاش من هذا البذخ والإسراف الذي شاهده في ردهات القصر وأروقته، واعتبره علامة غير مرضية في تاريخ الخلافة، يلتفت حوله في أحياء وروابي المدينة، فيرى أمجاد آل عثمان وسلطينهم ترفرف عليه من كل حذب وصوب وهي تحمل صوراً زاهية وذكريات طيبة، وذلك مما رد الاعتبار إليه وأدخل في نفسه الرضا والزهو والخيلاء ...

(١) شاعر سعودي معاصر من أصل فلسطيني .

(٢) المنيع.

يقول الشاعر وهو ما يزال في مخاطبة قصر "دولما":

يا قصر هذي ربى "اسطامبول" زاهية	لها من الدين صدق الوشي والقشيب
هذي الديار "بني عثمان" كم رفعت	لله من راية خفاقة العذب
هنا السلاطين كانت في مجالسها	نوراً من الحق أو برقاً من القضب
هنا الوفود التي جاءت مسلمة	فأسلمت أو تلقت عزة الأدب
قسطنطينية هذا النور فانتفضي	وكبري واسجدي لله واقتربي
وهللي يا ربى "استمبول" واقتربي	وزيني الدار من جلي ومن قشيب

وبمزيد من الصور التي تتسم بالحركة والحيوية، والنفاذ إلى حواسنا ببسر وسهولة، استطاع الشاعر أن يصف لنا مجموعة من المعالم الحضارية والأماكن الأثرية التي تعج بها مدينة اسطمبول، والذي يميزها غناها بالمعاني الراقية، المثيرة لأفكار الشاعر والمغذية لخياله، وذلك بأسلوب يقطر رقة وعذوبة مكنته من أن يوحى إلينا بالرضى والاطمئنان على أوضاع هذه المعالم والآثار.

وعلى متحف "طوب قابي" وقف الشعر أحمد محمد الصديق^(١) في سنة ١٤١٢هـ وشاهد بأمر عينه الحالة التي آلت إليها المعالم الإسلامية في دار الخلافة وما اعتراها من الضياع والنسيان، ويبدو أن الشاعر هنا أصيب بحالة من الذهول والارتباك وغاص في بحر من الذكريات المفجعة والجراح الموجعة؛ لأن كل ما رآه من معالم الشموخ والعظمة التي كانت تنطق بمعاني العز والكرامة، أصبحت لا تمثل في الوقت الحاضر سوى كونها معالم سياحية، وأماكن ترفيهية تسر الناظرين، وهو يتساءل بمرارة والألم يخترق جسده والأسى يلف محياه عن مصير السلاطين والخلفاء العظام، حماة الدين والديار، وعن مآل هذه المآذن الشامخة التي تشق عنان السماء، والتي كان ينبعث منها صوت الحق ونداء السماء في كل مكان وإلى كل اتجاه، شاهدة على عظمة هذا الدين وعلى وحدة هذه الأمة وتماسكها وترابطها.

(١) شاعر معاصر.

يقول الشاعر من قصيدة بعنوان (في دار الخلافة متحف طوب قاري)^(١):

أمجادهم من بعدهم آثار	وقصورهم للسائحين مزار
عجباً أفي دار الخلافة مائل	شخصي .. وطرفي ذاهل محتار
حلم أراه حقيقة ويمضني	ألم وينكأ جرحي التذكار
هذا العرين فأين آساد الشرى	بل أين أبطال المعارك ساروا
أين السلاطين الألى قد شيدوا	ملكاً له بين النجوم منار
والدين أين حماته ورعاه	أم شيعت من حول الآصار

بعد ذلك يدقق الشاعر إلى ما حوله من التحف والآثار التي يغص بها المتحف، وبرؤية شعرية فاحصة تتساق بعفوية وطلاقة وقد جلاها الأسى وطهرتها الدموع، يتواصل البث وتتأطر الشكوى وقد أدهشه واقعها الأليم واستفزته حقيقتها المرة التي أفرزتها الظروف الجبرية، فراح ينقل إلينا الحالة التي آلت إليها مكتسبات الخلافة الإسلامية العاطرة وشواهد الحضارية الرائعة، وماضيها العاطر المجيد، وأوضح كيف أنها أصبحت مجرد أدوات وسلع يزخر بها المتحف وقد تجللت بأثواب الغربة واكتنفها الحزن والذبول:

يقول:

أرنب فتخلط الروى بمدامعي	وتشب في صدر المنيـم نار
ذهبوا وما تركوا سوى الذكرى لند	عبر الزمان تقصها الآثار
قف لحظة وانظر ففي آياتها	ما يجتليه العقل والأبصار
هذا الشموخ كأنه أسطورة	خفيت وراء جلالها الأسرار
في كل ناحية مآذن شرعت	مثل الرماح .. وروعة وفخار
بجلائل النعمان تتطق كلها	وتكاد تعجز من دونها الأفكار
هو ذا عتاد حروبهم تحف فيا	أسف الجهاد ومن عليه يغار

(١) جريدة المسلمون عدد (٣٤٧) ١٩/٣/١٤١٢هـ.

سيف هنا .. درع هناك وخوذة
وزخارف تحت الضباب وأحرف
تشكو هنالك غربة وكآبة
والعرش في قفص الحديد مجلل
والخيل خرس مالها مضمار
عريية قد هاجها استعبار
وتكاد تبكي الآي والأشعار
بالحزن مضروب عليه إसार

وهكذا استطاع الشاعر أن يرسم هذه اللوحة الحزينة للواقع الذي تعيشه هذه الآثار الإسلامية في متحف "طوب قاي" وقد أصيب بحالة من الذهول والارتباك، وغاص في بحر من الذكريات المفجعة والجراح الموجهة، حيث أن ما رآه من معالم الشموخ والعظمة والتي كانت تنطق بكل معاني العز والكرامة، وأصبحت لا تمثل في الوقت الحاضر سوى كونها معالم سياحية وأماكن ترفيهية تسر الناظرين، ثم يتساءل الشاعر بمرارة عن حال هذه المآذن الشامخة التي تشق عنان السماء والتي كان ينبعث منها صوت الحق في كل مكان، ويحز في نفسه ويقلق خاطره أنها أصبحت اليوم مجرد شواهد حضارية على فترة سادت ثم بادت.

والحقيقة أن الشاعر استطاع أن يؤثر فينا وأن ينقلنا إلى هذا الجو المفعم بالحزن والملبد بالغيوم، مستعملاً ألفاظاً وتعابير هادئة تتساب بعفوية ويسر، مفصلاً لنا المشاهد وموضحاً الجزئيات راسماً إياها بريشة فنان قدير سكب عليها من فنه ونفسه الكثير.

هذا ولو أردنا أن نتتبع كل ما قيل من الشعر في الوقوف على مواقع دار الخلافة ومعالمها، أو استقصينا جميع ما أبدعته قرائح الشعراء في هذا الموضوع، لطال بنا المقام، ولتشعبت بنا السبل، ولكننا سنكتفي بما قدمناه من النماذج السالفة، والتي أعتقد أنها تسد الحاجة وتفي بالغرض.

أما عن الوقوف على المواقع والمدائن والآثار خارج دار الخلافة، فلسوف يطول بنا المقام أيضاً إذا ما رحنا نستعرض جميع الأشعار التي قيلت في هذا الصدد سواء ما وقع منها تحت أيدينا أو لم يقع مما هو مخطوط منها، أو لم نتمكن من الإحاطة به للعديد من الأسباب والملابسات.

لكن ذلك لن يمنعنا من اختيار العديد من النماذج الشعرية الرائعة التي وقفت على المواقع الإسلامية الخالدة ، وترمز بشكل أو بآخر إلى معاني الخلافة الإسلامية وتتغنى بأمجادها الغابرة وماضيها العزيز .

وكثيرة هي المواقع والمدائن والآثار الإسلامية التي وقف عليها الشعراء خارج دار الخلافة وهي تتمثل في العديد من العواصم الإسلامية الشهيرة، مثل مكة المكرمة والقدس الشريف ودمشق وبغداد وغيرها من المدائن الشهيرة، وما تضمه في ثناياها من المساجد والآثار .

لكن الوقوف على المدائن الفلسطينية وخاصة القدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك كان له نصيب الأسد واستأثرت هذه المواقع بكثرة كاثرة من وقوف الشعراء عليها وبكائها، سيما وأنها أصبحت بعد سقوط الخلافة الإسلامية وما زالت حتى هذا التاريخ تعاني من مرارة الأسر وضراوة الاحتلال الصهيوني الغاشم .

في بداية هذه المواقف التي وقفها الشعراء على مواقع الخلافة الإسلامية ومدائنهم، نذكر قصيدة "البغدادية"^(١) للشاعر أبي الفضل الوليد الذي نظمها في وقت مبكر إثر سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية مباشرة بعد أن تعرضت البلاد العربية والإسلامية للغزو الصليبي الحاقط .

في مقدمة القصيدة ينصح الشاعر العرب بالتجرد لإحياء الخلافة القرشية العربية، واستعادة الأمجاد الضائعة والعز الغابر، وذلك بأسلوب يختلط فيه الحزن والعاطفة بالحنين، والذكريات بالأنفة والمجد لتصب كلها في بوتقة واحدة هي استعادة الخلافة والتصدي للأعداء، يقول فيها:

بغداد يا ثكلي الخلافة رجعي نوحا له تنفتت الأكباد
أعود فيك خلافة قرشية كانت بياضا والشعار سواد

(١) ديوان أبي الفضل الوليد .

هلا تعيددين الخلافة والعلا ليطيب فيك النظم والإنشاد
وعلى المنابر يجلس العلماء في ملك تقيه أسدة وسداد
وعلى المحافل تطلع الخطباء وبين الجحافل تبرز القواد

بعد هذا الحماس الذي يظهره الشاعر تجاه إحياء الخلافة العربية، يتابع العزف على وتر هذه الحماسة فيوجه الخطاب إلى الأمة العربية لتتصدى لأعدائها الدخلاء الأعاجام، ثم يحث أفراد هذه الأمة على حمل السلاح، وإعلان الحرب ضدهم، ومن ثم طردهم من البلاد ليتسنى لهم بناء دولة عربية إسلامية خالصة .. يقول:

يا أيها العرب الأحامس حاذروا شر الدخيل فدأبه الإفساد
وتجردوا للمكرمات وجردوا دون الحدود البيض وهي حداد
لا خير فيكم والأعاجم بينكم يتحكمون فتحكم الأحقاد
شدوا وشيدوا دولة عربية يرجى لها بعد الفناء معاد

ولا شك أن مثل هذه الحماسة من الشاعر تحرك المشاعر وتَهز العواصف وتدفع المخلصين من أبناء الأمة العربية لإحياء الدولة العربية والإسلامية واللذان هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، فالعربية هي الإسلام والإسلام هو العربية، ولا انفصال بهما إلا في عرف الشعوبيين والمارقين.

ويقف الشاعر محمد مصطفى البلخي على "جبل عرفات" في "وقفة يوم عرفة" فيرى جموع المسلمين يقفون أمامه على صعيد واحد وقد جاؤوا من كل حذب وصوب، فلم يجد أنسب من هذه الفرصة لبيثهم عواطفه ويبين حرارة مشاعره تجاههم، وليعبر بلسان الأمة الإسلامية عما يحيش في صدرها وتقاسيه من أسباب الشتات وعناصر التفرق، نتيجة ما رماها به أعداؤها من وسائل الغدر والخيانة حتى سقطت خلافتها وسقطت بسقوطها مدينة القدس والمسجد الأقصى المبارك، واغتصبت فلسطين ومناطق أخرى حول فلسطين وتخاذل المسلمون وتفرقوا شيعا متباينة ودولا متناصرة وتخلوا عن تطبيق شرع الله إلى القوانين الوضعية الجائرة

والمبادئ العلمانية الفاسدة .. يقول الشاعر من قصيدة بعنوان "من وحي يوم عرفة"^(١) ومطلعها:

يا واقفين اليوم في عرفات متشوقين لأكرم النفحات
طبتم مقاما .. في رحاب طاهر يا اخوتي في الله يا اخواتي

ثم يقول:

يا إخوتي في الله في قلبي أسى بلسان أمتنا أبت شكاتي
أنا أمة لعب العدا بمصيرها فتمزقت جهلا إلى أشتات
وتر الصليب لرميها .. فأصابها بنبال حاضام .. عات
سقطت خلافتها فضاعت قدسها وتناثرت الأيام بالنكبات
قطعوا حبال الدين فيما بيننا وعرى العقيدة أوثق العروات
حتى غدت للكفر طعما سائغا يعدو عليها سائغ النزوات

وفي مثل هذه المواقف لا يستطيع الشاعر المسلم الملتزم أن يكتفي بعرض المشكلات أو الحوادث التي تعترض سبيل المسلمين وحياتهم وظروفهم دون أن يسهم في إسداء النصيحة لهم أو المشاركة في إيجاد الحلول التي يراها مناسبة من غير أن يخرجهم هذا العمل من الدائرة الفنية للشعر، كاعتبار ذلك التدخل من الشاعر نوعا من المواقف التقريرية أو النصائح المكرورة، ففي مثل هذا المقام يقول الشاعر البلخي في أبيات تصور لهفته وتطلعه إلى عودة الماضي المجيد للأمة الإسلامية، فيدعو أهلها إلى توحيد الصفوف وهدم الحواجز المعيقة لهذه الوحدة بكافة أشكالها والتي هي من صنع أعداء المسلمين، وبذلك يكون النصر حليفهم والمجد رائدهم ... يقول:

أبناء هذا الدين لموا شملكم وأنا أبشركم بنصر آت
عودوا إلى دين يوحد بيننا فأواصر الإيمان خير صلات

(١) ديوان قنديل السعادة، محمد مصطفى البلخي.

إن اختلاف عروقكم ولغاتكم قد ذاب في يوم على عرفات
هذي الحواجز بين كل بلادنا والله يا أخوان .. صنع عداتي

وهذه الالتفاتة الموحية التي يختم بها الشاعر قصيدته وهو يقف مع جموع المسلمين على جبل عرفات، والتي يهيب بها بأبناء الأمة الإسلامية بأن يلموا الشمل ويتركوا الفرقة والافتسام، إنما تتم عن روح إسلامية شفاقة للشاعر أوحى بها المكان وأملها المقام، خاصة وهو يرى جميع الفوارق الإقليمية واللغوية والعرقية تذوب من بين المسلمين وتظهرهم أمامه جسدا واحدا يقفون خاشعين ينتظرون رحمة الله ورضوانه.

وكذلك يقف الشاعر د/ عبدالله أحمد قادري الأهدل^(١) على عاصمة أخرى من عواصم الإسلام وهي مدينة دلهي^(٢) في الهند، ويمر أمام منارة "قطب الدين" في مسجد "قوة الإسلام" فيعتصره الألم ويمضه الحزن ويدور في ذهنه شريط من الذكريات الأليمة معددا النكبات التي مرت بها أمتنا الإسلامية ابتداء من سقوط الأندلس، ومرورا بسقوط الخلافة الإسلامية في الأستانة (اسطنبول) وما تبع ذلك من سقوط القدس والمسجد الأقصى المبارك بيد اليهود، وانتهاء بذكر الكوارث التي يعانيتها حاضر عالمنا الإسلامي سواء في لبنان أو في أفغانستان وغيرها من ديار الإسلام.

في مطلع القصيدة^(٣) يخاطب الشاعر المنارة بقوله:

علوت وما علوك بالغريب	فديتك قد علا دين الصليب
منارة قوة الإسلام صفحا	وقد زرنالك في حال كئيب
فكم في الأرض من محن توالى	وقد نزلت بأقصانا السليب

(١) شاعر سعودي معاصر.

(٢) وهي اليوم عاصمة الجمهورية الهندية.

(٣) ديوان هتاف العزة والجهاد.

وقرطبة لجامعها حنين	إلى التحرير من أسر رهيب
وأسلمت الخلافة فاستغاثت	فما لقيت هنالك من مجيب
وعطلت المآذن من نداء	به الناقوس .. ولى في هروب
وفي اسطمبول وهي لنا رباع	"أيا صوفيا" تئن من الكروب
وفي لبنان كم سالت دماء	"وكابل" لم تمل من النحيب
"ووحى الله" أقصى عن حياة	به كانت نعيما في الشعوب

وبعد أن يعدد الشاعر المآسي التي حلت بعالمنا الإسلامي تشيع في نفسه روح التفاؤل والخير والأمل الذي يلمسه ويحسه في أبناء هذه الأمة مصداقية لقوله (عليه السلام): (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى يوم القيامة) لذا فإنه لا يستسلم لليأس ولا يصل إلى طريق مسدود، فهناك أمامه أكثر من طاقة فرج وأكثر من بادرة أمل تلوح في الأفق الرحيب لأمتنا وتبشر بالنصر والسودد ... يقول:

ولكن الظلام وإن تمدى	يحلكته سيكشف عن قريب
وأطفال الحجارة قد أرونا	يزوغ الفجر بالرمي اللهب
وفي الأفغان آيات أقيمت	معالم واضحات في الدروب
ألا إنا سنكسر كل قيد	وننهي هجمة الهول العصيب

وبأسلوب يعتمد على النزعة الخطابية المؤثرة ذات الصوت العالي والإيقاع المرتفع، يختتم الشاعر قصيدته التي يحمل فيها إحساس النشوة بالظفر الكبير والنصر المرتقب خاصة وهو يرى أطفال الحجارة المسلمين يسطرون أسمى آيات البطولة والفداء ضد العدو الصهيوني المغتصب، ويدحرون القوة التي عجزت عن دحرها الجيوش العربية المنظمة، وكذلك يشيد بالقوة والبطولة الأفغانية التي تغلبت وانتصرت على الشيوعية وردت كيدها في نحرها بعد جهاد طويل وتضحيات كبيرة وهو يتطلع إلى اليوم الذي يرى فيه الأمة الإسلامية متحررة من كل قيود الذل والاستعمار.

الفصل الثالث

الصورة الزاهية للخلافة الإسلامية

ورموزها

الصورة الزاهية للخلافة الإسلامية ورموزها

لما كانت الخلافة هي رئاسة عليا للدولة، وغايتها هو إقامة الدين بما يتضمنه من تدبير مصالح الناس العامة، وإنها استخلاف من الله سبحانه وتعالى للإنسان في هذه الأرض تشريفاً وتكريماً، وأن الخليفة هو صاحب الولاية العليا في الإسلام، والوالي الذي لا والي فوقه، عليه كان علو منصب الخلافة وأهميتها بالنسبة للحياة البشرية والدور العظيم الذي يؤديه الخليفة في حياة الأمة، كان هذا مدعاة للشعراء، وحافزاً قوياً لهم للتغني بأمجاد هذه الخلافة ورسم الصورة الواضحة لها والجديرة بها، ومنذ سقوط الخلافة الإسلامية وحتى هذا التاريخ ظل الشعراء يخلعون عليها من الصفات الحميدة والمزايا الحسنة ما هي جديرة به وقمنيه، وكثيراً ما ترى في قصائد الشعراء سواء ما كان يخص الخلافة منها أو ما قبل، في مناسبات إسلامية مختلفة نراهم يصرخون أو يلمحون إلى أهمية الخلافة ويرسمون لها صورة زاهية تجعلها ماثلة في مخيلتنا وأمام عيوننا وكأنها لم تغيب عنا ولا طواها النسيان أو كاد. ومن خلال قصيدة أحمد شوقي في رثاء الخلافة، نراه يطلق عليها من الصفات الطيبة ما يدل على عاطفة صادقة ويدل على أهمية الخلافة والدور العظيم الذي كانت تلعبه في حياة المسلمين لقول^(١).

هتكوا بأيديهم ملأه فخرهم	موشية بمواهب الفتاح
حسب أتى طول الليالي دونه	قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فُصمت عرى أسبابها	كانت أبر علائق الأرواح
جمعت على البر الحضور وربما	جمعت عليه سرائر النزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم	في كل غداة جمعة ورواح

(١) أحمد شوقي - الشوقيات ج ١.

وهذا هو الشاعر "أحمد محرم" يخاطب قصر الخلافة ورمزها قصر "يلدز" الذي كان حمى للخلفاء وضياء على المسلمين وشعوبهم فيقول^(١):

أ "يلدز" ما دهاك؟ وأي رام	رماك فهذه سودك المكيـنا
خفضت له الجناح وكنت قد مأ	<u>حمى الخلفاء .. يـأبـي أن يدينا</u>
وجلك الظلام .. وكنت نوراً	<u>يفيـض على شعوب المسلمينا</u>

أجل كان هذا القصر الذي رثاه الشاعر حمى للخلافة والخلفاء، ورمزا للوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، ونورا وضياء ينبع على جميع أقطار وشعوب العالم الإسلامي.

ويسترسل الشعراء برسم الصور الزاهية للخلافة الإسلامية ويلهجون بذكرها ويتزمنون بمفاخرها بكل زهو وخيلاء وأي ضير في ذلك وهي الوسام الذي كان يوشح صدر المسلمين، والقلادة التي تطوق أعناقهم وليس فوق ذلك مجال للفخر والاعتزاز.

وفي قصيدة "أيا صوفيا" التي كتبها الشاعر "محمد صادق عرنوس" سنة ١٣٥٣هـ في رثاء مسجد "أيا صوفيا" الذي حوله مصطفى كمال أتاتورك إلى متحف وطني ذكر الشاعر عهد الخلافة الزاهر ومجدها الباهر وتاريخها العامر الفياض، وسخر من ادعاء الكماليين بأن الخلافة عبء ثقيل وعقبة كأداء في طريق التقدم والأزدهار، وأن الدين سبب التأخر والضعف الذي حل بهم.

ويقول الشاعر:

سقى الله بإسلامبول عهدا	بنت فيه الخلافة أي ملك
وما زادت بها إلا علوا	ودع تاريخها الفياض يحكي

(١) أحمد محرم - ديوان أحمد محرم السياسيات.

ثم عرض بالكماليين وتخرصهم على الخلافة بقوله:

.. ولم نزلنا دعائهم أساسا بأن طريقها كانت بهلك
وأن الدين أضعفهم فآلوا ليلتمسن قوتهم بترك
وذي الأمم التي شاؤوا رضاها تقابلهم سخرية وضحك

نعم لم تكن الخلافة أو التعلق بأهداب الدين هو مبعث ضعف الأتراك وتأخرهم بل كان ولاء قادتهم الكماليين لأعداء الإسلام وتسليم أمورهم لهم سببا لذلك فكانوا مدعاة للسخرية والاستهزاء والضحك منهم.

وفي قصيدة "كنا لها لا روم ولا ساسان" يرسم الشاعر محمد كامل الأنبي صورة مجلية للخلافة الإسلامية، يستهلها بمطلع قوي النبوة يدعو الإنسان المسلم إلى التسليح بكل أسباب القوة والعظمة ليأخذ دوره في ميدان الحياة سيدا ورائدا يقود العالم بالعدل والتقوى لا بالقهر والعدوان، فيقول^(١):

خذها غالبا أيها الإنسان هذا الجواد ودونك الميدان

ثم تابع الشاعر قصيدته محلقا في أجواء متفائلة، ناظرا إلى اليوم الذي يرى فيه أمة الإسلام مجتمعة تحت راية واحدة وخلافة واحدة يتفيا المسلمون ظلالها أخوة متساوين، حيث يقول فيها:

سادت على نهج الهداية أمة	نبوية دستورها القرآن
وسفينة الإسلام تمخر لجة	يحدو ثراها الأمن والإيمان
صاغت خلافتها السماء وأشرق	منها الدنيا .. وتحرر الإنسان
هي ملة الإسلام تجمع بيننا	حبا وإن بعدت بنا الأوطان
هي دوحة كبرى تفيأ ظلها	وتمايلت بفروعها الأفنان
نشرت لها علما يرترف عاليها	والكل تحت لوائه إخوان
هي دعوة الإسلام تبعث ميتا	تجلو القلوب فتشرق الأركان

(١) من الشعر الإسلامي الحديث.

وربما يلفت النظر في هذه القصيدة، ذلك الجو المفعم بالأمل والمشرق بالتفاؤل الذي سيطر على الشاعر وغمر كيانه في كل أبيات القصيدة وهذا يدل على صدق عاطفته وحسن نواياه ونقاء سريره.

ومن النماذج الشعرية المعبرة التي قيلت في مناسبة خاصة وبلغت فيها الشاعر إلى رسم صورة زاهية للخلافة الإسلامية، قصيدة "الوداع"^(١). للشاعر محمد الحسناوي .. الذي يرثي فيها الدكتور مصطفى السباعي ويستهلها موجهها الخطاب إلى روح القصيدة بقوله ... ويبدو أن الشاعر هنا كاد أن يبصر آثار هذه الدعوة فيلمح أن شعوب أمتنا الإسلامية قد اتحدت وقوى أمرها وارتفع شأنها ثم ألفت بزمام أمورها إلى عناصر صالحة من خاصة أبناء المسلمين أمثال إقبال ونواب والبنا ومن يقوم مقامهم. يقول الشاعر^(٢):

دعوت شبان البلاد إلى الهدى	فتجاوبت أصداء سوريا إلى لبنان
وتقاطرت سحب الغمام فأمطرت	ما أريد من فقر ومن بستان
في كل عين يقظة .. وبكل جمع	صيحة كالنشر والطوفان
فإذا العروبة راية معقودة	لله للتوحيد للفرقـان
وإذا شعوب المسلمين عزيمة	من سفح تطوان إلى اليابان
تلقى لإقبال، "ونواب" وبناء	زمام فؤادها الظمـان

وفي المقطع الأخير من القصيدة يخلص الشاعر إلى التركيز على ما يعتمل في نفسه من آمال وتطلعات تتعلق بالخلافة الإسلامية التي يمكن أن تعتبرها واجبا دينيا ومطلبا إسلاميا لدى الكثير من الشعراء الإسلاميين الذين ظلوا يستغلون أية فرصة ويستثمرون أدنى مناسبة للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم والكشف عن نواياهم في التطلع لإحياء الخلافة الإسلامية، والشاعر هنا يرنو ببصره إلى

(١) شعراء الدعوة الاسمية، ج٤، ص٥٩، ثالث أحمد محمد الجدد.

(٢) شاعر سوري معاصر.

المستقبل، ويتطلع بنظرة تفاؤل وأمل فيرى أن الخلافة أوشكت أن تتحقق في ديار المسلمين فلا يتسلل إلى أوطانهم المستعمرون ولا يطمع بهم وبثرواتهم الطامعون والانتهازيون، بل تصب هذه الثروات والمقدرات في مصلحة وخير البلاد والعباد. فيقول:

وإذا الخلافة قاب قوسين ارتمت بعد الغياب ولوعة الهجران، لا نهب للبترو، لا استبداد لا حلف مع الشيطان، لا حكم إلا شرعة الدين الحنيف، ولا انقياد لشرعة الأوثان.

هذا التفاؤل الذي يترجم إحساس كل مسلم غيور، ويخلق به في معارج الأمل والحبور ويقضي على كل المشاكل والمصائب التي تعاني منها وتكتوي بنارها أمتنا الإسلامية فتوحد نفسها، وتحفظ ثرواتها من النهب والضياع وتستقل بأمرها وكيانها، وتهجر شرائع الأوثان والمذاهب المادية المتطرفة، واضعة نصب أنظارها تطبيق شريعة الله بكل منهجية وصدق وسوف تجد نفسها حينذاك في مصاف دول العالم بل في مركز القيادة والنفوذ.

وتظل ذاكرة الشعراء عامرة في استحضار الوجه المشرق للدولة الإسلامية - أيا كان عصر هذه الدولة ومركزها- والتذكير بأمجادها وأيامها الزاهية وهيمنتها على كثير من الأمم والبلدان ونشر الحضارة والرفي والتقدم في ربوعها.

ويطالعنا الشاعر/عبدالكريم بن عبدالرحمن العبيد^(١) في قصيدة بعنوان "سقوط الحضارة" خاطب بها مؤتمر أمناء منظمة الدعوة الإسلامية في دورته التاسعة المنعقدة في دار السلام بتنزانيا بتاريخ ١٤٠٨/٨/٥ ومطلعها^(٢):

أشرق بنورك .. يسري في دياجيتها فظلمة الجهل والإلحاد تشقيها

(١) رئيس النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية بالملكة العربية السعودية.
(٢) من الشعراء الإسلامي الحديث - مختارات من شعراء الرابط ط ١- دار التبشير للنشر والتوزيع.

إذ يتطرق فيها إلى التذكير بعظمة دولة الإسلام والرجوع إلى ما اتصفت به هذه الدولة من حسن الأداء والتنظيم وهي التي استطاعت بسلاح الإيمان أن تفتح وتسيطر على أقوى امبراطوريتين في عصرها، وأجبرت الكثير من الأمم والبلدان إلى الانضواء تحت نفوذها وهيمنتها، فيقول:

عد بي إلى دولة الإسلام شلمخة إن مات صانعها ما مات راويها
هزت عروشاً لكسرى في تجبره وسفّهت دولة الرومان تسفّيها

فالشاعر هنا وهو يصب معانيه المحلقة وأماله العذبة في قالب جميل ويؤطرها بغلاف بديع، وتلتقي في قصيدته الكلمة الحلوة والفكرة البديعة والأسلوب المؤثر الجذاب، إنما كان يؤكد على أهمية الدولة الإسلامية في ماضيها وحاجتنا إليها في حاضرننا ومستقبل أيامنا.

وفي قصيدة تقطر حزناً وتتنزى لوعة وأسى وكأنما كان الحزن هو الوتر المشدود في قيثارة هذه القصيدة -التي نظمها الشاعر عبدالرحمن العبادي^(١) وعنوانها "المسجد الأسير"^(٢) في ذكرى سقوط المسجد الأقصى المبارك في يد اليهود الغاصبين ومطلعها:

نظر الشجي إلى الحدود فرأى المدينة في القيود

وقد جرت هذه الذكرى الأليمة إلى الموقف المشرف للخليفة المجاهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض ما عرضه عليه اليهود من الأموال الطائلة مقابل السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، وقد أبى أن يسقط هذا الجزء العزيز والمقدس من بلاد المسلمين -والذي هو ملك لجميع المسلمين- إلا في ظل تفتيت الوحدة الإسلامية وانقساماتها:

(١) الشاعر عبدالرحمن العبادي، ولد في دبي سنة ١٩٥٢م.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ج ٨.

يقول الشاعر متحدثاً عن السلطان عبدالحميد:

عرفت صلابته اليهود	ما ساوم الأوغاد، قد
للقدس بعدك يا شهيد؟	ففضى شهيد القدس من
في الله لا تخشى الوعيد	قد جدت بالنفس التي
بكتك رايات الأسود	إيه أيا عبد الحميد
فة .. كنت ملهمها الرشيد	بكت الخلافة والخلا

وقد تجاوز الشاعر في هذه القصيدة حدود المكان كما أنه تجاوز حدود الزمان أيضاً، وخلع على الخليفة كل معاني العظمة والإباء.

وقد أسهب الشعراء المتأخرون في الإشادة بالدور العظيم والمشرف الذي أداه السلطان عبدالحميد الثاني للإسلام والمسلمين، نظراً لما أثبتته الدراسات المتأخرة من نزاهته وعدالته، وأنه ذهب ضحية المؤامرات الصليبية واليهودية الماكرة التي حاولت الإساءة إليه وتشويه صورته في بلاد المسلمين.

وسنعرض هنا إضافة إلى النموذج السابق الذي رسم فيه الشاعر عبدالرحمن العبادي صورة جليلة للسلطان عبدالحميد -سنعرض عدة نماذج لشعراء آخرين وبأسلوب آخر، حاولوا إلقاء الضوء على الصورة الزاهية للسلطان عبدالحميد أحد رموز الخلافة الإسلامية العظماء.

ففي قصيدة ملحمة التاريخ^(١) أودوي التاريخ للشاعر الدكتور/ عدنان علي رضا النحوي نراه يستعرض فيها لوحات شتى من جراحات العالم الإسلامي الباكية وهزائمه المتلاحقة التي مني بها خلال قرون وقرون. وفي هذا الجو الملفع بالأسى والمليد بالحزن، لا ينسى الشاعر أن يعرض علينا بعض الصور الزاهية والجوانب المضيئة من هذا التاريخ حيث يختار الموقف المشرف للسلطان عبد الحميد الذي

(١) د. عدنان علي رضا النحوي -ديوان- جراح على الدرب- دار النحوي للنشر، ط ١٤٠٥.

عاش سيفاً مسلطاً على رقاب أعداء المسلمين، وسداً منيعاً في وجه طموحاتهم وأطماعهم، إضافة إلى أنه كان داعية للوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية.

ومن أنه لم يسمح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وأنه اشترى رضا الله سبحانه وتعالى وجنة عرضها السموات والأرض بما عرضوه عليه من حطام فاني ودنيا إلى زوال يقول الشاعر:

سلام على عبدالحميد وقد مضى	على الطيب من أمجاده العطررات
فيا أيها السلطان ذكرك عاطر	على صدق ما جاهدت في حبات
دعوت إلى حق وخضت سبيله	وما لنت من طعن ومن غمزات
دعوت إلى دين يوجد أمة	ويهدم من كفر ومن شبّهات
يساوئك الكفار مالا وزينة	وزهرة دنيا أو متاع حياة
لتعطيهم داراً وروضا وما حوت	فلسطين من قدس ومن حرّمات
فقلت لهم: أمضيت عهدي وبيعني	مع الله في سعيي وفي ركعات
وبعت إلى الرحمن نفسي بمنة	على حرقلة الأشواق واللهفات
فكيف تراني أرتضي عرضاً بها	إذا كانت الدنيا هشيم نبات
مضيت وما لانت قناتك بينهم	وما وهنت نفسي على شهوات
علوت .. فهانوا دون صبرك والهدى	وذلوا ورميت المحد في ذروات
سلام على ركن هوى فهوت به	من الدار أركان ومن عزّمات

نعم .. فإن كان عبدالحميد قد طواه الأجل وجرت عليه سنة الله في خلقه، فإن ذكره العطرة ما زالت ماثلة في أذهان المخلصين من أبناء المسلمين لم يطوها النسيان أو تغيّرها حوادث الزمان.

وهذه قصيدة أخرى يتطرق فيها ناظمها إلى ذكر السلطان عبدالحميد ودوره
المجيد في تاريخنا الإسلامي الحديث وهي قصيدة للشاعر/ أحمد محمد الصديق^(١)
الذي زار متحف "طوب قابي" هي مدينة استنبول بعنوان "في دار الخلافة" ومطلعها:
أمجادهم من بعدهم آثار وقصورهم للسائحين مزار

حيث يصاب الشاعر بحالة من الذهول والأسى والتحسر على ما آلت إليه
أوضاع الخلافة، وأصبحت أثراً بعد عين، وفجأة تبرز من عالم الغيب صورة
مضيئة وموقف رائع يرد إليه اعتباره ويؤمنه في وحدته ألا وهو عهد السلطان
عبدالحميد وأعماله الجليلة وهنا يركز الشاعر على الدور الذي أدّاه السلطان في عدم
السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ورفضه للرشاوي والأموال الطائلة التي
عرضوها عليه في سبيل ذلك وأنهم باؤوا بالخزي والفشل والعار ثم ينفي عليه ما
جرّوه على أمتنا من وسائل الخراب والدمار وأنهم أصل كل بلاء ورأس كل حربة
توجه لإلحاق الضرر ببلاد المسلمين ثم هو أخيراً يحذر المسلمين منهم ويلفت
الأنظار إلى مكرهم وأحقادهم فيقول:

لا تذكروا عبدالحميد وعهده	إلا بما يزهو به الأظهار
في ذمة التاريخ صيحاته التي	دوّت كأن رنينها الإعصار
القدس للإسلام وهي أمانة	قد صانها أبائنا الأخيار
جسدي يقطع دونها إرباً	على إرب .. وترخص دونها الأعمال
ويعود وفد السامريّ مخيب	الخزي فوق جبينه والعار
لكنما أفعى اليهود سمومها	طعم الموائد .. والكؤوس قُدار
ويظل أحفاد القروء بمكرهم	أصل البلاء فهل وعى الأبرار

(١) شاعر فلسطيني معاصر - المرجع جريدة المسلمون.

لا شك أنه قد آن للأبرار من أبناء أمتنا الإسلامية الماجدة أن ينتهبوا للمكائد والدسائس والمؤامرات الهدامة التي يحكمها أبناء الأفاعي اليهود، للنيل من هذه الأمة وهم الذين ما فتئوا يعيثون في مقدساتنا فساداً يقتلون أبناءنا ويضطهدون حرياتنا ويتآمرون على ديننا حتى يخرجونا منه إن استطاعوا.

وقد وضعهم الله سبحانه وتعالى في مقدمة صفوف أعداء المؤمنين وحذر من عداوتهم بقوله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (١).

وهم ولا ريب وراء كل خطر أو فتنة حاقت أو لا تزال تحقيق بالمسلمين ومن هنا كان واجباً على المسلمين محاربة اليهود والتصدي لهم واسترداد مقدساتهم واستعادة عزتهم وكرامتهم.

وفي قصيدة أخرى أو ملحمة أخرى يقف الشاعر الدكتور/عدنان علي رضا النحوي على أحد مواقع الخلافة العثمانية.

وهو قصر "دولما" في القسطنطينية سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م فتناوبه العديد من المشاعر والأحاسيس التي تسيطر عليه طيلة مدة إقامته في تلك الربوع، وتتراوح هذه المشاعر بين الأسى واللوعة أحياناً، حزناً وتحسراً لما حلّ بدار الخلافة من المآسي والانتكاسات، وبين الزهو والإعجاب أحياناً أخرى وذلك عندما يرى بأم عينيه ويلمس بحواسه بقايا المجد الضائع والآثار السلطانية التي لا تزال شاهدة على عطاء حضاري استمر لعدة قرون.

وقد تفجرت قريحة الشاعر بقصيدة ملحمة بعنوان "ملحمة القسطنطينية"

فتحان - مطلعها:-

يا قصر "دولما" جلال الهدى لم يغب ونصرة لم تزل في عودها الرطب

وبعد أن وصف فيها روعة هذه الآثار وتأثيرها في نفسه ووجدانه هاجت بذاكرته ذكرى فتح القسطنطينية المجيد الذي يقول عنه أنه لولا فتوح رسول الله (ﷺ) لا اعتبره فتح الفتوح ومنتهى الزهو والانتصار، وعلى ذكر هذا الفتح لم ينسى الشاعر أن يتطرق لسيرة مهندس هذا الفتح وهو السلطان محمد الفاتح الذي يشيد الشاعر بدوره العظيم ويذكر كيف تسنى له فتح مدينة القسطنطينية - عاصمة البيزنطيين السابقة بعد أن عجز عن ذلك العديد من خلفاء الإسلام السابقين عليه، هذا وقد جاء بفضل هذا السلطان ما روي عن عبدالله بن بشر الخثعمي عن أبيه (بشر بن سحيم رضي الله عنه) أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: "لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ فَلْنَعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلْنَعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ" (١).

يقول الشاعر:

لولا فتوح رسول الله قلت هنا	فتح الفتوح وهذا زهوة الغلب
تسابق الخلفاء المسلمون لها	على الزمان سباق الصادق الأرب
فلم ينلها سوى هذا الفتى قدرا	لله يمضيه في ترك وفي عرب
محمد فاتح الدنيا وما طمعت	نفس له برخيص الفتح والسلب
يمضي إلى الله والفردوس غايته	ولهفة الشوق تنجيه من الريب
فتح من الله ما أحلاه من أمل	بلغته .. وكريم السعي والطلب

وهنا تتجسد صورة الإعجاب الشديد والتقدير الرائع التي يلبسها الشاعر للسلطان محمد الفاتح الذي لعب دورا مهما وبارزا في التاريخ الإسلامي الوسيط، استحق به طيب الذكر في الحياة الدنيا والحياة الآمنة المطمئنة في جنات الخلود، واستطاع الشاعر كذلك بأسلوبه السهل الممتع وعاطفته الصادقة الجياشة أن يحرك المشاعر ويهز العواطف تجاه هذا السلطان ويعطف عليه القلوب.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وأخرجه البخاري في تاريخه الكبير.

ومن هذا اللون من الشعر الذي يمجّد رموز الخلافة الإسلامية ويرسم صورة زاهية لها قصيدة "اسطمبول" ^(١) و "اسلامبول" للشاعر الشيخ /عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني ^(٢)، الذي وقف في عاصمة الخلافة السابقة "اسطمبول" عام ١٤٠٤هـ فأذهله ما رأى فيها من آثار العظمة وشواهد التاريخ الذي لا يزال ينطق بروائع المجد ويعبق بشذى الافتخار وهناك وهو في قمة الإعجاب وزهو الافتخار لتهيج الخاطرة - كالعديد ممن سبقه من الشعراء ذكرى فاتحها العظيم السلطان محمد الفاتح الذي أبدى من مكارم الأخلاق ولين الجانب بعد فتحها ما يفوق الوصف والمألوف فلم يعتريه الغرور والصدف كعادة غيره من الفاتحين بل زاده ذلك تواضعا وشكرا لله واعترافا بتوفيقه له.

يقول الشاعر بهذا الخصوص:

<p>أصداء تحكين أحداثا وأزمانا نقص عصرا طوى صيدا ^(٣) وشجعانا قامت إلى الفتح أشياخا ومردانا نعم الأمير ونعم الجيش قد كانا ... أسوارها شمسا وبركانا فكان من خير خلق الله إنسانا وزادها دينه عطفًا وإحسانا في سجدة حطمت في القوم صلبانا ولم تدع في حواشي النفس طغيانا عبد أقدم للإسلام شكرانا وهو الذي ... زادني بالدين إيقانا</p>	<p>تسمع النطق في الآثار تلق به كل الحجارة فيها سطرت كتب تروين قصة أجناد مجنّدة وكان بشرى رسول الله فاتحها محمد الفاتح المغوار مر على جاءت له "أياصوفيا" ترتجيه ندى أهدى لها العفو والتأمين مكرمة وخر لله إذ جاءته راکعة في سجدة كتبت في الأرض سفرتي يقول للناس فيها إنني بشر فهو الذي قد حباني نصره كرما</p>
---	--

(١) الشيخ/ عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني - ديوان أقباي، ط١٤٠٦، دار القلم، دمشق.

(٢) شاعر سوري معاصر يعمل استاذًا في جامعة ام القرى بمكة المكرمة

(٣) شجعان وأبطال.

وهذه القصيدة كسابقتها في وصف الإعجاب الشديد والتقدير البالغ للسلطان محمد الفاتح، ولكنها تختلف عنها في كونها تركز على التواضع الجرم والعرفان الجزيل للذات اتصف بهما السلطان، وذلك عندما خر ساجدا وشاكرا لله سبحانه وتعالى على ما أنعم وتفضل عليه ولا شك أن سيرته العطرة ستظل مثلاً يحتذى وتاريخاً يروى ما تعاقب الليل والنهار.

والشاعر وهو لا يزال تحت تأثير النزعة التفاؤلية وبعد أن يركز على الدور الكبير الذي أداه السلطان محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، والخير الذي استفادته البشرية من جراء ذلك، يواصل سكب هذه العواطف الإسلامية المتوهجة بالزهو والإعجاب، ولينعطف ليتحدث عن الخلافة في لحظة استغراق فني فيها الشاعر عن نفسه وراح يرسم لها صوراً زاهية وزاهرة مؤكداً على عظم شأنها وقوة هيبتها، وثم على الدور الكبير الذي لعبته أيام عزها ومنعتها ومن أنها كانت القلعة الصامدة في وجه الأعداء الطامعين، بل وأنها كانت القوة الأولى في العالم يهابها وبنفس الوقت يأمل ودها الجميع طيلة خمسة قرون قال الشاعر:

هنا الخلافة .. كانت عزة وتقى	تهدي إلى الحق أسراراً وإعلاناً
هنا الخلافة كان الناس يرهبها	أن ترضى تمنح لأهل العدل تيجاناً
كانت قلاعاً وأجنادا مجنّدة	وحكمة وتقى تحمي وإتقاناً
قواعد الحق أرست مجدها حقبا	قرونها قبضة .. لم تخشى أقراناً

وهكذا يوضح لنا الشاعر .. أن المسلمين ظلوا طيلة قرون خمسة يعيشون في بحبوحة من العيش، وتحت مظلة من الأمن والعدل والأمان في ظلال خلافة إسلامية فرضت سلطانها وهيبتها على العالمين.

وهنا لا أجد داعياً للتذكير بأحوال المسلمين المعاصرة التي هي من السوء بحيث لا تخفى على أحد وليس ذلك إلا بسبب شقائهم وتفرق كلمتهم.

وفي قصيدة أخرى للشاعر / عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني بعنوان "مأساة قصة أمّتي" (١) ١٣٩٦ هـ يجلو لنا الشاعر فيها الصور الجميلة والمشعة لأمتنا الإسلامية أيام وحدتها وتماسكها ويستعرض أمجاد هذه الأمة الرائعة وتاريخها المشرق وحضارتها الزاهرة فيقول.

أمّتي كان عليه	وعلى الباغي عصية
عالمي كان سماء	ونجوماً دررية
عالمي كان جناناً	وشعوباً مدنية
وحصوناً وقلاعاً	وبلاداً حضرية
عالمي كان كما	يكره أعداء البرية
عالمنا كان علومنا	وعبادات سنية
وقصوراً شامخات	وعطاءات سخية

وبعد أن يفرغ من وصف ماضي أمتنا المشرق ينعطف الشاعر ليضرب على الوتر الحساس ويخلص إلى الهاجس الذي يشغل باله ويملاً تفكيره وهو حاضر أمتنا الراهن الذي يجب أن يطيل الوقوف عنده ولا يكثّر الالتفات للوراء إلا لأخذ العظة والعبرة من مجريات الأحداث السابقة، ومن ثم التركيز على حاضر هذه الأمة الذي يلمح به الشاعر بصيصاً من نور وبادرة من أمل قد تسفر عن غد مشرق عزيز.

يقول الشاعر:

أمّتي في عصرها الحاضر	قد عاشت غيرة
وهي في أفراد الأشتات	أشفت ذكيرة
إنها لم تتعدم منها	أصول العبقريّة
غير أن الإثم والنشّات	أسباب البلية

(١) د. عبدالرحمن حسن حنبكة - الديوان السابق.

نعم .. إن من أوليات أسباب تعثر أمتنا الإسلامية وهوانها على الأمم الأخرى هو في تخطبها في أحوال الآثام والمنكرات، وفي تفرق كلمتها وانقسامها على نفسها، وإنها لن تسترد مكانتها اللائقة بها وعزها وكرامتها إلا بالوحدة الإسلامية الشاملة التي دستورها القرآن الكريم ورئيسها خليفة المسلمين الذي يحكم بشرع الله وسنة رسوله (ﷺ) ولعلنا لا نعدد الحقيقة والواقع في ذلك خاصة بعد أن رأينا كيف سقطت كل محاولات الوحدة الجزئية أو القومية أو الإقليمية في بلادنا أو بلاد العالم الأخرى، وسوف تسقط أيضا ولا محالة كل وحدة من هذا النوع المبنية على مصالح آنية ويكون مصيرها الفشل والزوال.

وفي "ذكرى مآثم الخلافة" ينظم الشاعر "يوسف إبراهيم" في ٩ رمضان ١٤١٠ هـ قصيدة بعنوان "الكوكب الآفل"^(١) يقدم لها بقوله إلى الأمة التي ترقب فجر الخلافة المنتظر، إلى الشباب الذين حملوا راية التحرير بيقين المؤمنين وعزيمة المجاهدين ليعيدوا دولة الخلافة في ظل رسالة الإسلام الخالدة:

يستهل الشاعر قصيدته بالعزف على قيثارة التفاؤل والأمل والغوص في بحر زاهر بالصور الرائعة الجمال والمترفة الإحساس والتي يحاول من خلالها الهروب من الواقع الأليم الذي تعيشه أمتنا الإسلامية، والابتعاد كلية عن هذه الأجواء المظلمة ومن ثم التحليق في أجواء من النور والضياء واسترجاع ذكريات وعهود الخلافة الزاهرة مجندا كل مواهبه الشعرية الفائقة وبأسلوب قصصي بارع راسما صورة زاهية للخلافة الإسلامية وراياتها الخفاقة في سماء المجد والفخار ولأبطالها الأمجاد الميامين الذين دكوا عروش الكفر والضلال ونصروا دين الله فأقاموا علم الجهاد، وانتصروا على من ناوهم وعاداهم:

(١) الشاعر يوسف إبراهيم - مجلة الوعي - رمضان ١٤١٠.

يقول:

أين الغناء يزف ألعانا من الذكرى بأحلاها وأغلاها يعاد أين الضياء يعيد ليل
الشعر ومضا في الخيال وفي الدماء وفي الفؤاد من أين أقبسه ولا زهر يضوع شذا
ولا نغم لشاد، جف السنا ومحابر الشعراء جف بها المداد، أين الخلافة تزدهي في
ظلها الرايات خافقة تتوق إلى الجهاد، وأميرها نعم الأمير وجيشها، والروم، قد ألفت
لقائدها القياد، والعرش مضطرب بقسطنطين، والأسوار تهوى كالهشيم وكالرماد، قد
كان يزهو بالمليك، فحين جاء الفتح مزهوا تجلج بالسواد، واندك لما جاء نصر الله
يهوى خاوي الجبروت منهارا وماد، وشهاوت الصليبان تحت سنابك الخيل المغيرة
والمهندة الجداد وبمسجد الغازي وسيف جهاده الميمون عز الدين منتصرا وساد.

نلاحظ في هذه المقطوعة من القصيدة أنها تحمل في ثناياها إحسان النشوة
بالظفر العظيم الذي حققه المسلمون بقيادة محمد الفاتح على أعدائهم الصليبيين
ونلمح تسجيلا دقيقا وتصويرا رائعا وحركة متنامية لعملية الفتح التي تمت لمدينة
القسطنطينية بحيث نرى امتزاجا شاملا لمكونات الصورة التي تدوب فيها معظم
العناصر في بوتقة واحدة، والشاعر وهو يرسم هنا صورة زاهية للخلافة ورموزها
إنما يرسم أيضا صفحة مشرقة من صفحات البطولة التي حققها المسلمون إبان
قوتهم وازدهارهم وعلو شأنهم.

وفي لوحة فخر أخرى من القصيدة نفسها يؤكد الشاعر فيها على عظمة
وأهمية الخلافة الإسلامية وانتصاراتها الباهرة التي ثلث عروش كسرى وقيصر،
وأحالت أرضهم إلى مزارع لجيادها الشهب وفرسانها الشجعان، وتحولت رمال
الصحراء بعد أن غزتها خيولنا وعبرتها قواتنا وسادتها حضارتنا ومدينتنا إلى ذهب
أصيل وعسجد كريم.

يقول:

والخيل تقتحم الثغور فتنتشي وبشائر تترى، وضياء هدي قد ملأنا الأرض من
نعماه آلاء خيرا وظلام ليل قد طلعتنا في دجاء الحالك المربد فجرا. لم يبق في أرض
غزتها خيلنا عرش لقيصرها ولا عرش لكسرى، حتى أحلنا تربها للشهب مزرعة،
ورمل البيد تبرا.

وأخيرا فإنه لا ينسى وهو في قمة زهوه وخيلائه أن يذكر بالدولة الإسلامية
الكبرى التي بناها المسلمون بجهادهم وعرقهم وصبرهم، فازدهرت بظلالها
الأوضاع العمرانية والأحوال الاقتصادية وعم العدل والنظام وساد الأمن والأمان
أنحاء البلاد يقول الشاعر:

والدولة الكبرى بنيناها فكان بظلها البنيان أمجادا ونصرا.

والممتنع لهاتين اللوحتين الزاهيتين للخلافة الإسلامية يرى أن الشاعر رسم
في اللوحة الأولى صورة زاهية للخلافة الإسلامية العثمانية التي فتحت القسطنطينية
ودكت عروش أوروبا ووقفت سدا منيعا في طريق الاستعمار.

أما في اللوحة الثانية فإنه يرسم لوحة رائعة للخلافة الإسلامية العربية التي
دكت عروش قيصر وكسرى ونشرت الإسلام والعدل في أنحاء العالم آنذاك.

وبذلك يتبين لنا أن المقصود من اعتناء الشعراء واهتمامهم برسم صورة
زاهية للخلافة الإسلامية هو أحد العبرة واستنهاض الهمم ودفع المسلمين للسير على
نهج السلف الصالح من أبناء هذه الأمة والعودة إلى الوحدة الإسلامية وبناء دولة
الإسلام الكبرى التي ستعيد أمجاد الإسلام ودوره البارز في مجريات الأحداث
والأمور.

ولا نريد أن نمضي في هذا الفصل إلى أبعد من ذلك، وقد رأينا من خلال
القوائد السابقة كيف رسم الشعراء صورة زاهية سواء للخلافة أو الخلفاء وجسد

الدور البارز لهما والذي تمثل في حماية الإسلام والمسلمين والوقوف سداً منيعاً في وجوه الأعداء والطامعين.

وحين ندقق النظر في هذه القصائد نلاحظ أنها استطاعت أن تنفذ إلى نفسية السامع وعقليته بكل سهولة ويسر، نظراً لما امتازت به من العواطف الصادقة والمشاعر الحميدة والأهداف النبيلة إضافة لما تخللها وتدفق منها من روح إسلامية مشعة نستطيع أن نلم أنها ترمي من ورائها إلى دعوة المسلمين المعاصرين لأخذ العبرة والعظة وإعادة قراءة تاريخنا من جديد ومن ثم استنهاض الهمم وشحن النفوس لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وإحياء الخلافة الإسلامية الغائبة التي طال الانتظار لها.

وفي نص شعري آخر بعنوان " لا عنصرية" ^(١) للشاعر علي دمر ^(٢) يرسم فيه صورة زاهية للحضارة الإسلامية والخلافة الإسلامية ويعرض فيه بحضارة النار والدخان، وما جرته على البشرية من الويلات والدمار وفيه يسوق بين يدينا مجموعة من المبادئ التي تتنادي بإقصاء دعاء العنصرية والحروب عن مسرح التاريخ المعاصر، ويذكر بالتاريخ الناصع والدور المشرف للأمة الإسلامية وخلافتها الموفقة التي احتضت الفكر والأدب وقامت بنشر العلم وتشجيع العلماء ورعت الفضائل والأخلاق رداً من الزمن حتى تولى الأمر دعاء الحروب والدمار والذي يندد بهم ويذكر أنه لن يصلح حال الدنيا والبشرية جمعاء إلا عندما تتوالى أمتنا الإسلامية الأمر من جديد:

يقول:

امنعوا دعاء العنصرية إنكم	بتصويرنا غازين ملتزم إلى الجور
فلا فخر في غزو ولا في تسلط	ولكن ينفع الخدع في السر والجهر

(١) ديوان / علي دمر.

(٢) علي دمر شاعر سوري معاصر.

ونحن بتاريخ البرية أمة
بنينا صروح العلم والعز للورى
تهادي شباب الكون في ظل عرشنا
سوانا غزا بالعلم للضر والأذى
وأنبل غايات الحضارات كلها
فما نفec علم للسلاح وللردى
ولن تنعم الدنيا بأمن وراحة
أضاءت نواحي الأرض بالعدل والطهر
حضارتنا في الشرق والغرب كالبدر
خلافتنا تاج المعارف والفكر
ونحن نشرنا العلم نقضي على الضر
حضارة قوم حاربت نزعة الشر
ونسف شعوب الأرض بالخسف والذعر
إذا لم يلح من أفقتنا مطلع الفجر

إننا نشعر ونحن نقرأ ما وراء سطور هذه القصيدة أن الشاعر استطاع أن يعقد مقارنة بين الحضارة الإسلامية الممثلة في الخلافة الإسلامية، والإعمال الفاضلة التي قامت بها من جهة، وبين الحضارة الحديثة الممثلة في دعاة العنصرية وتجارة السلاح وهواة الحروب وأعمال الخراب والدمار التي تضطلع بها من جهة ثانية وأن يخلص ويطلع بنتيجة صائبة وعادلة مفادها أن هذا العالم بكل ما فيه من مشاكل ومتناقضات لن يصلح حاله ولا تستقيم أموره إلا بالعودة إلى النبع الصحيح والأخلاق الفاضلة التي نادى بها الإسلام، وأن الإسلام ممثلاً في الدولة هو الحل الوحيد والمخرج لهذا العالم من كل أزماته ومشاكله.

وعلى نفس المحور الذي يرسم صورة زاهية للخلافة الإسلامية تدور قصيدة "كنا لها لاوم لا ساسان"^(١) للشاعر/ محمد كامل الأنبي الذي نظمها في عام ١٤٠٨هـ ومطلعها:

خذها غلاباً أيها الإنسان هذا الجواد ودونك الميدان

وفيهما يترنم الشاعر بعزة الإسلام وعظمة المسلمين خلال تاريخهم المشرف الطويل الذي أفلت شمسُه بعد سقوط الخلافة الإسلامية، وفيها يذكر أيضاً محاسن

(١) من الشعر الإسلامي الحديث ص ٢٦٢.

هذه الخلافة التي دستورها القرآن الكريم وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي وفق لصياغة عقدها وشؤونها، ومن هذه المحاسن أن المسلمين بكافة شعوبهم وأوطانهم ظلوا يتقيئون ظلال هذه الخلافة المباركة خلال تاريخها الطويل وهم كأخوة متحابين في الله لا حدود بينهم ولا قيود ولا فرق بين أبيض وأحمر إلا بالتقوى، وهذا سر من أسرار الدعوة الإسلامية الرفيعة التي من أهم أهدافها ومبادئها المؤاخاة بين المسلمين ونشر الحب والوئام بين صفوفهم: يقول فيها:

سادت على نهج الهداية أمة	نبوية دستورها القرآن
وسفينة الإسلام تمخر لجة	يحدو ثراها الأمن والإيمان
صاغت خلافتها السماء وأشرق	منها الدنيا وتحرر الإنسان
هي ملة الإسلام تجمع بيننا	حبا وإن بعدت بنا الأوطان
هي دوحة كبرى .. تقيأ ظلها	وتمأملت بفروعها الأفنان
نشرت لها علما يرفرف عاليا	والكل تحت لوائه إخوان
هي دعوة الإسلام تبعث ميتا	تجلو القلوب فتشرق الأكوان

ونلاحظ هنا أن الشاعر وهو يرسم صورة رائعة للخلافة الإسلامية ويعدد محاسنها ومبادئها، استطاع أن يبث بصيصا من النور بين هذا الضباب الكثيف الذي يكثف طريق المسلمين في عصرنا الحاضر، وأن يعيد ولو قليلا الثقة إلى نفوسهم ويرد الاعتبار بعض الشيء لهم.

الفصل الرابع

أسباب سقوط الخلافة

توطئة:

لم يكن سقوط الخلافة العثمانية وليد يوم وليلة، أو حدث ذلك بين عشية وضحاها، ولكنه استغرق عقوداً طويلة وآماداً مديدة، وكان هناك الكثير من العوامل والأسباب التي تجمعت، والخيوط التي تشابكت، وساهمت مجتمعة في سقوطها واختفائها من على مسرح التاريخ، وقد بسطنا هذه الأسباب في مواقعها من الباب الأول من هذا البحث^(١).

ولضخامة هذا الحدث، ومدى تأثيره على مشاعر المسلمين بشكل عام ومعهم الشعراء بشكل خاص، فقد كان موقعه شديداً عليهم، فشغلهم وأحدث هزة كبيرة في حياتهم، حيث أبدوا تفاعلهم وراحوا يحللون أسباب هذا السقوط، ويفندون العوامل التي أثرت فيه.

هذا وقد شاع في قصائد الكثير من الشعراء وخاصة الذين تناولوا رثاء الخلافة أو كتبوا في القضايا الإسلامية الكبرى، ذكر هذه الأسباب والتنويه بها إجمالاً أو تفصيلاً، وقاموا بعرضها حسب التأويلات الخاصة بكل شاعر، ولكنها تصب في النهاية في بوتقة واحدة وتحوم حول فكرة واحدة وتؤدي الغرض المطلوب.

وسوف نستعرض في هذا الفصل بإذن الله طائفة من القصائد الشعرية التي عالجت الموضوع، وبيّنت أسباب سقوط الخلافة الإسلامية وتدهور حالة المسلمين العامة، ولا نزعم أنها شملت جميع الشعر الذي قيلت فيه ولكنها - وكما سبق الإشارة إليه - مختارات ومنتقيات في صميم الموضوع أعتقد أنها استطاعت أن تعطي دلالة قوية عليه، وقد تجنبنا فيها التكرار واستطرد المعاني قدر الإمكان.

(١) أنظر: أسباب سقوط الخلافة العثمانية.

الفصل الرابع

أسباب سقوط الخلافة

استكمالاً لما انتهجناه في الفصول السابقة من التقيد نسبياً بالتسلسل التاريخي للقضايا التي تمّ بحثها، فإننا سوف نلتزم تقريباً بنفس الخط في هذا الفصل الذي يبحث في أسباب سقوط الخلافة الإسلامية من خلال قصائد الشعراء التي تعالج هذا الموضوع.

باديء ذي بدء يطالعنا الشاعر محمد الشاذلي الخزنة دار بقصيدة عنوانها "الانقلاب العثماني" ومطلعها:

لا الترك ترضى بما أجرت حكومتها في المسلمين وحاشاها ولا العرب
حيث رثى فيها الخلافة الإسلامية الملغاة، ثم رسم لها صورة زاهية أيام
عظمتها وقوتها، وختمها ببيان الأسباب التي أدت إلى سقوطها إذ أنهى باللائمة
كغيره من الشعراء على الكماليين وحملهم مسؤولية سقوطها وراح يذكر كيف أن
هؤلاء غيروا هويتهم الإسلامية وتكروا لمبادئ دينهم، وارتدوا رداء العلمانية
البغيضة وتزينوا بأزياء الغرب الخادعة، فهجاهم الشاعر بعد ما كان قد مدحهم يوم
كانوا يستوجبون المدح، وهو هنا يبدي أسفه لما بدر منه ولكنه يعلل عمله بأنهم هم
السبب في تحوله من المدح إلى الهجاء حيث أنهم يستحقون ذلك بسبب تغير
موقفهم...

يقول الشاعر:

يا طلعة الذئب من بعد الهلال على	راياتهم علناً تعساً لما انتخبوا
الحاكمون بما في غير ملتهم	القائلون علوم الدين تجتنب
إن صح هذا فبشرهم بعاقبة	خسرى ولكن بوذي أنه الكذب

إنني لأسف إذ بالأمس أمدحهم واليوم في هجوهم أدعي وأنتدب
ما كنت مادحهم إلا لما صنعوا ما كنت هاجبهم إلا لما ارتكبوا
يتضح لنا أن الشاعر من خلال هذه الأبيات استطاع أن يجل أسباب سقوط
الخلافة ويلقي بها على عاتق الكماليين الذين اتخذوا من القومية التركية مبدأ ضيقاً
لهم وانحرفوا عن مبدأ ما أنزل الله حتى سولت لهم أنفسهم إلغاء الخلافة الإسلامية،
وذلك هو منتهى المروق ونكران الجميل.

وفي قصيدة مبكرة أيضاً نظمها الشاعر خالد الفرخ^(١) سنة ١٩٢٧م بعنوان
"الغرب والشرق"^(٢) وفيها يعقد موازنة بين الشرق والغرب، ويبين سعة الهوة
الكبيرة بين الطرفين، ومن أن الغرب جاد في بناء جوانب حضارته ونظام حياته،
بينما الشرق - ويعني به العرب والمسلمين - مستسلم للكسل والغفلة والانقسام،
وذلك بعكس ما يجب أن يكون عليه من القوة والوحدة التي تنبع من قيم الإسلام
ومبادئه الرفيعة التي تحض على السعي والعمل والعمران والوحدة... يقول
الشاعر:

الغرب قد شدد في هجمته	والشرق لاه بعد في غفلته
وكلماً جاد بأعماله	يستسلم الشرق إلى راحتته
فيجمع الغربي وحداته	والشرق مقسوم على وحدته
وذاك يبني العلم في بحثه	وذا يضيع الوقت في نظراته

وبعد ذلك يخلص الشاعر إلى القول بوجود دحض هذه الصفات السلبية
وإغائها من قاموس الشرقيين، ومن ثم التصدي للغرب والاستعداد وجمع العدة
لإيقافهم عند حدهم والتغلب عليهم، وهذا هو السبيل الوحيد لانتصارهم على الغرب،

(١) الشاعر خالد الفرخ - شاعر كويتي معاصر.

(٢) الأدب العربي المعاصر في الجزيرة العربية / الشعر في شرق الجزيرة د. عبد الله آل مبارك

ط ٢ ١٣٩٦هـ

وأخيراً لا ينسى الشاعر أن يذكرهم بوجوب لمّ الشمل وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف تحت راية لا إله إلا الله ... راية الإسلام الخالدة ... يقول الشاعر:

الوقت قد دار بدولابه ونحن لا نعبأ في دورته
ندور لكن دوار الرحى والناس مثل الثور في سرعته
والغرب لا يسمع صوتاً لنا إن لم يك المدفع في نبرته
لا يدفع الغرب سوى بأسه أو قوة تسمو إلى قوته
فحسبنا الإسلام من جامع ونحن من يعرب في دوحته

واضح من هذه القطعة المليئة بالاستعارات والتشبيهات والكنائيات البلاغية الراقية أن الشاعر يرى أنه قد آن الأوان لنا أن نشمر عن ساعد الجد والعمل واللاحق بركب الحضارة العالمية، إن لم نسبقه ونتصدر المسيرة، وعلينا أن نوحّد صفوفنا ونجمع كلمتنا، ونعد القوى والأسباب التي يسمعنّا بها العالم الذي اعتاد أن لا يسمع إلا الصوت القوي الذي يشاكل صوته أو يتفوق عليه.

كذلك فعل الشاعر أمجد الطرابلسي^(١) الذي ألف قصيدة "أياصوفيا" سنة ١٩٣٥م بعد ما تم تحويلها من مسجد إلى متحف حيث يطالعنا بأصدااء وجيعة متأثراً بصمت أياصوفيا^(٢) ((ثم يقرع الشاعر رئيس تركيا "أتاتورك" الذي تنكّر للإسلام وعالن العروبة العدا، ويسخر من تجبره وتغطرسه، ودعوى بطانته التي تتنادي به مصلحاً وهو الهادم لمجده وتاريخه، لقد صب أحقادَه الدفينة على العرب والإسلام وما درى أن الإسلام دين الله، وكل من عاداه عاد مخذولاً مجرحاً دون أن يمس الدين بأذى))^(٣).

(١) الشاعر أمجد الطرابلسي

(٢) اثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا

(٣) المرجع السابق

ولا شك أن هذا من الأسباب التي ساهمت في سقوط الخلافة الإسلامية ...

يقول الشاعر:

حقود على العرب الكرام صبيبتها	على الدين ما تنفك توري وتقذح
تجرات مغترأ على الدين أهوجاً	ولكن دين الله أسمى وأسمح
وشمرت للدين الحنيف مغالباً	فوا عجباً أنت الأجم وتتطح ^(١)
وما ناصب الدين العداة أحمق	من الناس إلا عاد وهو مجرح
ولله عين تكلاً الدين برة	وتدفع عنه كل من جاء ينبح

إذا تأملنا هذه الأبيات فسوف نرى أن الشاعر أيضاً يؤكد على إلقاء التبعة في سقوط الخلافة وما تبع ذلك من نكبات على العرب خاصة والمسلمين عامة، على عاتق مصطفى كمال أتاتورك الذي ناصب دين الله العدا، ولكن الله سبحانه وتعالى لن يهمله وأنه له بالمرصاد، وهذا ما حصل بالفعل لمصطفى كمال.

ويشارك الشاعر معروف الرصافي بقصيدة في إيداء الأسباب التي أدت إلى تخاذل الأمة العربية والإسلامية، وفرقتهم إلى شيع مختلفة وأحزاب متنافرة، يعادي بعضها بعضاً، حتى ركنوا إلى الخمول والدعة، وماتت همهم، وخمدت أريحياتهم، فتسلط عليهم الأجنبي وتحكم في حياتهم ومقدراتهم، وذلك بعكس الأحوال التي عاشوها عندما كانوا متحدين ومتآزرين، حيث كانت وحدتهم تنهض بهم إلى مدارج العلياء وتقودهم إلى معارج العز والسؤدد، فنالوا بذلك المجد الشريف العريض من أوسع أبوابه حيث يقول:

ما بال قومي على الأرهاق قد صيبوا	كأن أشهر قومي كلها حرم
قد أنهضتم إلى العلياء وحدتهم	واليوم أقعدهم عنها أن انقسموا
كان التعاون غرزاً في غرائزهم	حازوا به الشرف الوضاح واغتنموا
ثم اغتدوا بعد حين في جوانبهم	نار التخاذل بالشحناء تضطرم

(١) الأجم: الكيش لا قرن له.

قد زال روح التفادي منهم وغدا روح التعادي إلى أن ماتت الهمم
ألقى التخاذل ضعفاً في عزائمهم فالأجنبي عليهم ظل يحتكم

نلاحظ هنا أن الشاعر هنا يختلف عن سابقه في ترتيب الأسباب التي أدت إلى ضعف المسلمين وتفرقهم، فهو يلصق هذه الأسباب بهم شخصياً إذ هم المسؤولون عن هذا الوضع البائس الذي تسلط به الأجنبي عليهم وتحكم في مقدراتهم ومصائرهم وبلدانهم، وما ذلك إلا بسبب التواكل والتكاسل والشحناء التي تفتت قواهم وتفرق جمعهم، ونراه في مقدمة هذه الأبيات يقرعهم ويتندر عليهم بآتهامه إياهم بأنهم ركنوا للراحة والدعة، وتركوا الحرب والجهاد وكان أعوامهم وأوقاتهم كلها أشهر حرم، وذلك تعريضاً بأن العرب في الجاهلية كانوا لا يحاربون في هذه الأشهر الحرم التي عدوها أربعة أشهر فقط وليس كل العام كما هو حال العرب والمسلمين اليوم، وفي ذلك منتهى التندر والتبكيت.

وتتراحم الآلام في صدر الشاعر عمر بهاء الدين الأميري^(١) وتتفاقم الأحزان
حيال رؤيته ومعاشته للنكبات والمصائب التي تعيشها أمتنا الإسلامية، بسبب
العصبيات والأحزاب التي مزقتها وأطاحت بخلافتها وهويتها الإسلامية، حيث يبدأ
الشاعر قصيدته "حلم بين صحتين"^(٢) بعد أن يقدم لها بقوله ((في استعراض
الأحوال الضروس تجتاح البلاد والعباد، لا تملك حيالها صنعاً ولا تستطيع لها
دفعاً)) مخاطباً الحق جل جلاله بالسؤال عن السعادة الحقيقية في هذه الدنيا النعيسة،
شاكياً حال أمتنا السائرة في طريق الغواية والضلال، نادياً حال المخلصين
والشرفاء من أبنائها، وراثياً أحوالهم البائسة، متسائلاً بمرارة وألم، متطلعاً إلى من
يتولى أمر هذه الأمة بأمانة وإخلاص فيقول:

أين السعادة يا إلهي في عوالمنا الشقية

(١) عمر بهاء الدين الأميري - شاعر سوري معاصر، درس في جامعات المغرب العربي.

(٢) عمر بهاء الدين الأميري - ديوان الزحف المقدس ص ١٠٣

والأمة استخلفتها	لهداية الدنيا غوية
والصهوة المرجوة العقبي	تجر خطى غبية
والصفوة المثلى حيارى	في متاهات زريبة
أين الرعاة الأكفيا	لمن نربي من رعية

وبعد هذا التساؤم المرير عن مصير أمتنا المؤلم، يستسلم الشاعر لأوهام الأحلام العالقة بالذكرى العابقة بالمجد الشامخ الذي عاشته أمتنا في غابر أيامها، مبيناً أن ما حل بالمسلمين من المحن والكوارث بعد الإطاحة بالخلافة الإسلامية هو نتيجة الإرتواء في مستنقع العصبية البغيضة والأحزاب المشبوهة والسياسات المنحرفة والتي أثرت على مجريات الأمور في مستقبل تاريخنا .. وذلك بقوله:

وتتهدت في زفرتي	أوهام آمال قوية
أين الشام وأين أمجاد	دعوها يعربية
ذهبت بها عصبية	وسياسة وتحزبية
مذ قوضوا صرح الخلافة	والإرادات السنية ^(١)
أودت بنا ريب التحرر	والدعواوي الجاهلية
دب الفناء بجسم أمتنا	فلم تسلم خلية
ومضى التنادي بالشعارات	المزورة المزينة ^(٢)
قومية عربية	بدأت وآلت عفلية ^(٣)

ثم يختم الشاعر قصيدته بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى العلي القدير ويسأله أن يبث الروح في أوصال هذه الأمة ويحيي مواتها ويهبها الحياة الحرة الكريمة والعيش العزيز فيقول:

يا رب أنت الفذ من يحيي ويبعث من منية

(١) السعالة.
(٢) المزينة : الصفة .
(٣) نسبته الى ميشيل عفلق.

فأعد بدينك للبرية أمة الإسلام حية
وامنن فأنت القادر الرحمن يا رب البرية

وتتعدد القصائد وتتلون القوافي لدى الشاعر الأميري ويظل هاجس الخلافة الإسلامية يرن في مسمعه ويقض عليه مضجعه، فتراه في الكثير من أشعاره والعديد من قصائده يشيد بها صراحة أو يلوح بمفهومها ومعناها تلويحاً، وها هو في قصيدته التي نظمها في المهرجان الذي نظمه المغرب بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد الشاعر ابن زيدون.

يفرغ الشاعر كل معاني الأسى والأسف عند مناجاته ابن زيدون بأبيات تتطرق بالشكوى وتختلج بالحنين حزناً على ما آلت إليه أحوال المسلمين بسبب الخلافات التي دبت بين صفوفهم، والمكائد والمؤامرات التي تعرضوا لها، مما نتج عنه الإطاحة بخلافتهم، وأصبحوا لقمة سائغة في أفواه الأعداء والطامعين، فضاعت فلسطين، وسقط المسجد الأقصى أسيراً بيد أعداء الله وأعدائهم اليهود، محملاً بذلك قادة وزعماء هذه الأمة مسؤولية ذلك ... يقول:

يا بن زيدون والقرون توالى والدواهي .. وكلها دهياء
الخلافات بالخلافة أودت واقتسمنا وسادنا الدخلاء
أودعوها قومية ثم نادوا بأعادي قد عم منها البلاء

ساسة الحكم .. نابذوا شرعة الله .. فحفت ديارنا البؤساء

كم أضاعوا باسم الشعوب شعوباً طحنتها المكائد اليهوداء
وأبادوا من الرجال فحولاً لن يموتوا فإنهم شهداء

أسلموا لليهود "مسجدنا الأقصى" وكانت طريقهم صنعاء

أي ضير تضيع منا فلسطين ليبقي حكامنا الزعماء

ولا نريد أن نمضي أبعد من ذلك في شعر الأستاذ الأميري رحمه الله الذي وهب حياته وشعره في سبيل الدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية، إذ لا يخفى ما تشتمل عليه الأبيات السابقة من وهج الإنفعالات وحرارة العاطفة التي تعكس شعور أمتنا وتغوص في أعماقها وخباياها، وتكشف عن مصائبها وآلامها وما ابتلاها الله به من المآسي التي بددت شملها وأودت بخلافتها وأضاعف فلسطينها وقدمها، وخسرت بذلك الكثير.

أما الشاعر عمر أبو ريشة^(١) فإنه يرجع أسباب تأخر أمتنا، وانفصام عرى وحدتها، إلى اعتناقها للعديد من الشعارات البراقة والأيدلوجيات الفارغة، وإلى انقيادها إلى زمرة متسلطة تحكم وفق أهوائها وميولها، وقد عطلت أحكام الشريعة الإسلامية، واستبدلت بها القوانين الوضعية الدخيلة، فقادها ذلك إلى الضعف والهوان وقلة الشأن، ومن ثم رماها في أحضان جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء.. يقول الشاعر^(٢) :

أنا يا رب من بقايا سيوف	تلمتها مضارب الحدثان
أنا من أمة تجوس حماها	جاهلياتها بلا استئذان
أسقطت مشعل النبوة في الليل	وأرخت للتيه كل عنان
مزقت شملها شعائر شتى	وقيادات طغمة عبدان
تلك أوثانها تعود ولكن	ليس فيها براءة الأوثان

لا شك أن هذه الصور الرائعة التي ساقها الشاعر أبو ريشة في هذه الأبيات والتي تتسم بالحركة والحيوية، وتملك القدرة الفائقة من التأثير على مشاعر وأحاسيس المتلقي بكل يسر وسهولة، واستطاعت أن تعبر عن الضياع وفقدان الهوية الإسلامية التي تعيشها أمتنا منذ أن تخلت عنه مبادئ دينها الحنفي وتقاليدها

(١) عمر أبو ريشة: شاعر سوري معاصر عمل دبلوماسياً لبلادة في أكثر من دولة.

(٢) أحمد بسام ساعي، حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سوريا - دار المأمون.

الإسلامية العريقة، وتوزعت إلى دول عديدة، واعتنقت مذاهب وأفكار شتى، وتسلم قيادتها غير الأكفاء، فلم يعد لها من وزن يذكر وضاعت في زحمة الطريق.

ويأتي شاعر آخر من شعراء الدعوة الإسلامية وعلم من أعلامها المعاصرين الكبار هو الدكتور يوسف القرضاوي^(١) فيعبر لنا بأسى وحزن عما حل ببلاد الإسلام ويكشف الحقيقة التي أدت إلى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة المعاصرة، والأسباب التي هزمتهم أمام أعدائهم وأطاحت بخلافتهم، والمتمثلة في البعد عن الله وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية في حياتهم، ومن ثم كيف أصبحوا عالة على المجتمعات الأخرى يتطفلون على موائدهم في كل شيء ... يقول من قصيدة له بعنوان "إليك يا ابن الإسلام"^(٢) والتي مطلعها:

يا مسلما بعري إسلامه ارتبطا هلا وفيت بما مولاك قد شطا
يقول:

تقول ما لبني الإسلام قد هزموا	ولم يسيروا إلى العلياء قيد خطا
كأنما تجعل الإسلام متهماً	والحق أبلج لا يحتاج كشف غطا
الذنب ذنب بني الإسلام مذ بعدوا	عن منهج الإسلام أضحى أمرهم فرط
قد خاصموا الله إذ خانوا شريعته	وقل إنتاجهم .. إذ أكثروا اللغطا
تفرقوا شيعاً شتى وأنظمة	إذ لم يعد حبلم بالله مرتبطا
عقد الخلافة قبلاً كان ينظمهم	واليوم عقدهم قد بات منفردا
استوردوا من ديار الغرب فلسفة	أشقت بنية وحلت كل ما ربطا

وهنا نلاحظ أن الشاعر يركز على الخلافة الإسلامية التي كانت تجمع كلمة المسلمين وتوحد صفوفهم، وأنه منذ أن انفرط عقدها أصبحوا عالة على الشعوب الأخرى يستوردون منها الشعارات الجوفاء والفلسفات الغربية عن مبادئنا ومعتقداتنا الناصعة النقية.

(١) يوسف القرضاوي: شاعر مصري مقيم في دولة قطر.

(٢) ديوان نفحات ولفحات.

وإزاء هذا المنعطف الخطير والموقف الشاذ الذي مرت وتمر به أمتنا، يحاول الشاعر أن يرسم لها الطريق السليم الذي تجتازه إلى بر الأمان، فيضع يده على الداء ويصف لها الدواء الناجع والمتمثل في الرجوع إلى دين الله القويم والالتزام بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ونهجه المستقيم .. وذلك بقوله:

يا ناشداً للهدى في الغرب معذرة إن الهدى حيث وحي الله قد هبطاً
فأثبت على منهج الإسلام في ثقة مستعلياً يتحدى ضغط من ضغطاً
والزم طريق رسول الله في ثقة وفي اعتدال وجانب خلط من خلطاً

وهكذا يتضح لنا كيف استطاع الشاعر وبهذا الأسلوب الدعوي الراقى المتوشح بالاعتذار الشفاف، والمتسم بالذوق الرفيع، أن يمحض النصيح للباحثين عن طريق النور والهداية والرشاد، وخاصة الذين يلتبسونها في بلاد الغرب، استطاع أن يدلهم ويرسم لهم هذا الطريق السليم، والنهج القويم، ويحدد لهم موقعه الذي لا يعدو أن يكون إلا في عقر دارهم وتحت أيديهم وأمام نوافذهم انه متجسد في كتاب الله المبين وفي سنة رسوله المطهرة، وعليهم الاعتراف من هذه المنابع بكل نزاهة واعتدال دون تحريف ولا تأويل.

وحول هذا المعنى الذي يكشف عن عوار هذه الأمة ويبين أسباب تأخرها عن الركب قصيدة للشاعر يوسف العظم^(١) بعنوان "يا أمة الإسلام"^(٢) حيث ينعت هذه الأمة بالجهل بسبب تكميمها للأخوة الحرة، وإخراص الأقاليم الشريفة، وبالحدق بسبب ما جره ذلك من تقسيمات شتى وعداوة متأصلة بين أبناء الأمة الواحدة، ثم يفند أسباب تدهورها وسقوط أعلامها وراياتها، واستسلامها لأمم الكفر يسومونها سوء العذاب، ويسلبونها عقيدتها وتقاليدها وأعرافها، دون أن تتبس ببنت شفة أو يصدر عنها أي اعتراض أو رد فعل يميظ عنها الأذى أو يدرأ عنها العذاب .. يقول:

(١) يوسف العظم: شاعر أردني معاصر له عدة دواوين شعرية وتسلم منصباً وزارياً.

(٢) ديوان في رحاب الأقصى.

قد حطمت بالجهل أقلامها وقطعت بالحق أرحامها
وبعثت رايات أمجادها ونكست في العار أعلامها
واستسلمت للكفر مذعورة وضيعت في التيه إسلامها
وألهمت جلادها وانتنت تسجد للسوط الذي سامها

وبعد أن وصف الشاعر الأسباب التي أدت إلى انتكاس وتدهور هذه الأمة وتنكيس مبادئها وراياتها في حمأة الذل والهوان، يرجع إلى نفسه ويلتفت إلى ذاته متحدثاً بلسان الجماعة الإسلامية، فيحاول أن ينفذ يده من تبعات أمتة متعجباً من وضعها الذي يتأبى على الإصلاح في مثل هذه الهنات التي ما زالت من خلفها تقبل اليد التي تصفعها وتعبد الصنم الذي تصنعه حيث يقول:

فكيف نرجوا النصر في غفلة يا أمة تصنع أصنامها

ويتضح من الأبيات السابقة التي يلقي فيها الشاعر اللوم على أبناء أمتة بسبب رضوخهم لواقعهم التعيس واستسلامهم للمتسلطين عليهم، ونستشف أن الشاعر يرفض هذا الوضع وهذا الاستسلام الذليل للواقع، ويدعو أبناء الأمة للثورة عليه واستلزام أسباب النصر والغلبة، بالانتفاضة الشاملة من هذه الغفلة المطبقة واليأس المرير والانتصار على النفس وتحطيم الأصنام والعوائق التي تعرقل مسيرتها وتقف في طريق عزها وسعادتها.

وفي قصيدة جامعة متعددة الأغراض للشاعر الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بعنوان "اصطمبول أو اسلامبول"^(١) عندما وقف على المدينة سنة ١٤٠٤هـ، يوجد ثلث من الأبيات الشعرية التي توضح بعض أسباب سقوط الخلافة، ذاكراً جملة من السلبات التي ساعدت على هذا السقوط، ومن ذلك المسلسل الفظيع والدور الشنيع الذي لعبته الصليبية الحاقدة واليهودية الغادرة

(١) ديوان أقباس.

والماسونية الماكرة والقومية الفاجرة، والتي قسمت شعبها الواحد إلى شعوب متنافرة ودولتها إلى دويلات متناحرة، ثم إنه بعد ذلك لا ينسى في ختام القصيدة أن يعقد مقارنة - وإن كانت غير متعادلة - بين الصنم المخدوع مصطفى كمال صاحب الدور الشرير الذي لعبه بمساندة المربع المشؤوم السابق ذكره لتقويض الخلافة الإسلامية وإغائها، وبين الدور الشريف الذي صنعه السلطان عبد الحميد الذي نادى بالجامعة الإسلامية لضم شمل المسلمين تحت راية واحدة، إلا أنه لم يجد لدعوته آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية فذهبت أدراج الرياح ... يقول الشاعر:

ثم استكانت وقام السوس ينخر في	عظامها .. ووهت رأساً وأركاناً
وأصبح الدين في أرجائها صوراً	لا روح فيها .. وأخلاقاً وأوثاناً
وصار للفسق أسواق تباع بها	أخنى الرذائل عصياناً وكفراناً
وسار في جسمها مكران ضمها	من داخل الجسم ما قد زاد خسراناً
مكر اليهود .. ومكر العرب قد سعيها	لنفسها .. إذ غدت ثوباً وعيداناً
والفاسقون الذين استغربوا جمعوا	للمكر قواتهم .. ظلماً وطغياناً
وانساق في "محفل الماسون" ذوبلة	أعمى يتابع .. زنديقاً وشيطاناً
واستجمع الكيد .. أسباباً بلا عدد	كيما يقوض بنياناً فبنياناً
وكان عبد الحميد الشهم خصمهم	لكنه لم يجد في الحق أعواناً

وبعد أن يسوق الشاعر بين يدينا الأسباب التي ساعدت على تقويض الخلافة حسب رأيه، يخلص إلى توجيه نداء حار إلى أبناء الشعب التركي، نادياً إياهم العودة إلى رحاب الدين الحنيف والرجوع إلى كنف الإسلام الشريف .. ليعود لهم بذلك المجد الذي كان والشرف الذي بان ... يقول:

يا ترك عودوا إلى الدين الحنيف تعد إلى بلادكم ... أمجاد عثماننا

نلاحظ في البيت الأخير من القصيدة أن الشاعر ومن باب رد الجميل للأتراك العثمانيين الذين حملوا الخلافة وحموها طيلة قرون عديدة، ومن قبيل عاطفة المؤمن وتودده تجاه أخوانه المؤمنين، وبغض النظر عن الأخطاء التي ارتكباها الكماليون - وهم من الأتراك - بحق الإسلام والمسلمين عند إلغائهم الخلافة الإسلامية، مع هذا وذاك نلمح الشاعر يوجه الخطاب إلى أخوانه الأتراك المسلمين يدعوهم للعودة إلى منابع هذا الدين الحنيف والرجوع إلى حظيرة الإسلام التي حاول أعداء المسلمين من اليهود والصليبيين والعلمانيين إقصاءهم عنها، وتحويل أنظارهم جهة الغرب، وبهذا الرجوع يعود لهم مجدهم وترجع لهم عزتهم وكرامتهم ويعودون بنعمة الله إخواناً.

هذا وتلوح في الأفق الآن بشائر عودة تركيا إلى موقعها الإسلامي في خارطة الأمة الإسلامية، وذلك بفضل العناية الإلهية بهم لقاء خدماتهم الطويلة تجاه الإسلام والمسلمين، ثم ما يقوم به حزب الرفاه بقيادة زعيمه البروفيسور نجم الدين أوربيكان من جهود مخلصة في بعث وإحياء الحركة الإسلامية في تركيا، والتوجه نحو إخوانهم العرب والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

وفي قصيدة أخرى للشاعر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بعنوان "قصة مأساة أمتي"^(١) ١٣٩٦ هـ يستعرض في بدايتها أمجاد الأمة الإسلامية الرائعة ويذكر تاريخها المشرق وحضارتها الزاهرة، ثم يخلص إلى ما أصابها من أضرار الوهن وعلامات الشتات، بسبب ما ارتكبه أهلها من الخطايا واقترفوه من شرور وآثام، وتكالبوا على الدنيا وملذاتها حتى طمع فيهم العدااء فمهدوا لهم طريق العصبية وزينوا لهم حب التفرد، فركبوا موجة القوميات والعصبيات، وخاضوا غمار التفرقة والعنصرية، حتى تعددت الديار وتمزقت الأستار فأصبحوا لقمة سائغة في فم الأعداء يهجمون من كل حذب وصوب ويغيرون عليهم من كل ناحية بحيث

(١) ديوان أقباس

الأعداء يهجمون من كل حذب وصوب ويغيرون عليهم من كل ناحية بحيث لا ناصر لهم ولا معين .. يقول الشاعر :

نظـر الذئب إلـيـها	كيف يرميها ضحية
كيف تـمـسـي بخبيـث المـكـر	لقـمـات هـنـيـة
ورأى تقسيم أوصل	لـها بالـجـاهـليـة
فغذا أوصلها الكبرى	بأرجاس الحمية
ورمى أقوامها الكثر	بـداء العـصـيـة
وبأفكار زيـوف	محدثات زخرفية

وبأنواع من الفرقة .. قالوا .. عقيدة^(١)

أنت طورانية الأصل	وأنت عربية
أنت ذات المتحد الأقصى	و ذات القيصريـة
أنت إفريقية الأعراق	أنت بربرية
أنت من أعراق آرام	وأنت كسروية
أنت ذات المجد في التاريخ	أنت فارسية
أنت ذات البأس في كرد	وأنت شركسية
أنت تاج الهند يرعاك	بأمجاد غنية
بقي الحصن	ولا حراس يحمون الرعية
هذه روح القضية	نحن والله الضحية
هل دينا هل رأينا؟	هل سنصحو للباية؟

نلمح من هذه الأبيات أن الشاعر ينعى على المسلمين تلك التقسيمات الجغرافية والعرقية والمذهبية التي تغلغت بين صفوفهم منذ زمن مبكر واستفحل

(١) بمعنى عقائدية

أمرها، وكانت السبب في خلخلة وحدة المسلمين وشتاتهم وتمزقهم، وجرت عليهم من المصائب والويلات ما زالو يتجرعونها ويتذوقون مرارتها حتى يومهم هذا، ويعتبر الشاعر أن هذه التقسيمات التي غاب عنها من يكبر عنها ويجتازها، هي أصل الداء ولب الدواء في جسم الأمة الإسلامية، والعياذ بالله.

هذا وما زال الشعراء يستغلون الأحداث التي واجهت العالم الإسلامي سبيلاً للتعبير عن هذا الموقف، فها هو الشاعر الدكتور عدنان علي رضا النحوي قد نظم قصيدة بعنوان "ملحمة التاريخ أو دوي التاريخ"^(١) تجول خلالها في الكثير من معالم تاريخنا الإسلامي القديم والحديث، وقاده التجوال إلى دار الخلافة الإسلامية العثمانية التي غبر مجدها وذهب عزها، حيث يخلص فيها إلى ذكر عدد من الأسباب التي ساهمت في غروب شمس الخلافة حتى أصبحت أثراً بعد عين، حيث ينحي فيها باللائمة على أبناء هذه الخلافة من أصحاب البدع والأهواء والضلال، من يهود وكفار ومجرمين، والمتسلقين على أكتاف غيرهم، والمتصيدين في الماء العكر في سبيل الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، الذين تنكروا للخلافة بعد أن حققوا طموحاتهم ومآربهم الخاصة ثم رموها بأبشع أنواع العقوق والنكران.

يقول الشاعر:

حنانيك يا دار الخلافة من أسى	يمر ومن بلوى ومن حسرات
وهنت فما هبت إليك عزائم	ولا نهض الفرسان من كبوات
نبوك وقد أرضعتهم شيمة الوفا	عدوا بسيوف الغدر والطعنات
رموك كأن الدار ليست بدارهم	رموك على نار وعض شباة
أولئك أبناء الضلال لبائهم	مكائد كفار وكيد عتاة
فكم من يهود كان يلبس عمة	وكم من كفور كان بين تقاة
وكم من عدو زين المكر صنعه	وكم من جهول دار بين دعاة

(١) د/ عدنان علي رضا النحوي/ ديوان جراح على الدرب ط ٢ ١٤٠٧ دار النحوي.

وفي غفلة الأحلام يندس مجرم
ويدعى شهيداً بعد مجرم
لقد فتحوا كل الدروب وحطموا
وقد ضيعوا عز القرون وهدموا
تلقي رصاص الغدر من كل جانب
وردي سهام الموت عن مهجات

وهكذا استطاع الشاعر أن يكشف لنا في هذه الأبيات المؤثرة عن زيف المتاجرين بمصالح بلادهم، وأن يفضح هؤلاء المغرضين الذين يبررون أقذع الوسائل وأبشع الأساليب في سبيل الوصول إلى غاياتهم، واستطاعوا بمكرهم ودهائهم وضلالهم أن يهدموا وفي فترة وجيزة من الزمن خلافة حصينة ومجداً عظيماً احتاج بناؤه إلى العديد من القرون.

وأما الشاعر مروان حداد^(١) في قصيدته "لا تحسبن الله مخلف وعده"^(٢) فإنه ينسب ضياع أرض المسلمين وتسلط الأعداء والاستعمار على بلادهم إلى إهمال المسلمين أمور دينهم وعبادتهم، وتعطيل فرض الجهاد الذي فرضه الله عليهم للذود عن أوطانهم والدفاع عن حقوقهم وبلدانهم إذا ما تعرضت لأي اعتداء عليها. ونراه في هذه القصيدة يدعو المسلمين للجهاد في سبيل الله لنستعيد ما سلبه الأعداء من أرضنا ومقدساتنا، ثم يخلص في نهاية القصيدة إلى مخاطبة المسلمين حاثاً إياهم على الجهاد لإعلاء راية الإسلام ومؤكداً أن ذلك لن يتحقق إلا بالوحدة الإسلامية لتسطع شمس الإسلام من جديد وتشرق على العالم أجمع ... يقول الشاعر:

لا تحسبن الله مخلف وعده للمؤمنين فإنه لا يهمل
بالأمس كنا سادة في أرضنا لكننا كنا بدين نعمل
واليوم ضاعت أرضنا وبلادنا لما تركنا ديننا فتأملوا

(١) شاعر سوري معاصر.

(٢) ديوان القائد الشهيد مروان حداد/محمد ناصر المزيني.

هيا فعودوا للجهاد فإننا بجهادنا نرضي الإله ونأمل
ونعيد أرضاً قد رواها قبلنا أجدادنا بدمائهم وتحملوا
قوموا لنرفع راية خفاقة لمحمد إسلامنا لا يأفل

نلاحظ هنا أنه رغم ما جاء في هذه الأبيات من البساطة والتقريرية والأسلوب الخطابي المباشر، إلا أنها تحمل في ثناياها ويسودها الصدق وسمو الهدف ونبيل الغاية والمعاني الشريفة التي تجعلنا نتغاضى عن هذه الصياغة البسيطة، ونرتفع مع الشاعر في دعوته لإعلان الجهاد الشريف من أجل استعادة أمجاد هذه الأمة ورفع رايته وتحقيق وحدتها وعزتها.

ويكاد ينفطر قلب الشاعر مصطفى حيدر زيد الكيلاني^(١) لما يلمسه من شيوع الدساتير الوضيعة والعلمانية في ديار الإسلام ويتلف على اليوم الذي يرى فيه سيادة الشريعة الإسلامية - والحكم الإسلامي في هذه البلاد، ففي قصيدة "متى الإسلام في الدنيا يسود" ومطلعها:

متى الإسلام في الدنيا يسود ويشرق بيننا الفجر الجديد

فبعد أن يدعو إلى تطبيق الدين الإسلامي في بلاد الإسلام يلتفت إلى الوراء قليلاً وينحي بالائمة على أولئك المسامين الذين نسوا الإسلام ولم يعد لهم إلا اسمه فقط وأخلدوا للدعة والراحة فعطلوا ركناً مهماً من أركان الإسلام وهو الجهاد، الأمر الذي تسبب في وصولهم إلى هذا الحال التعيس والوضع البائس.

يقول الشاعر:

عهدت المسلمين أباة ضيم	غداة الروع بأسهم شديد
إذا ما استفروا نفروا خفافاً	يحث خطاهم عزم حديد
فما لهم نسوا الإسلام حتى	تغشاهم على الدهر الجمود
ولم تعد الحنيفة ذات حكم	يسيرهم ولا الشرع الرشيد

(١) شاعر أردني معاصر.

دعا داعي الجهاد فلم يابوا ولا فقهوا النداء غداة نودوا
فأين فوارس الصحراء دكوا أموات هم أم هم رقود
ألم يتنسموا خبر الأعادي أما سمعوا بما أثمت يهود

في هذه الأبيات التي يقطر منها الحماس، وترن من خلالها محممة الخيول
وهمهمة الفرسان، يعزو الشاعر فيها أسباب تخلف المسلمين بالإضافة إلى عدم
تطبيق الشريعة الإسلامية في حياتهم، إلى تعطيل فرض هام من فروض الدين
الإسلامي وهو الجهاد في سبيل الله.

ويقارن في صورتين من صور الجهاد بين عهدين مختلفين من عهود
الإسلام...

العهد الإسلامي الأول الذي كان الجهاد فيه أساسياً لنشر الدين الإسلامي
والدعوة في سبيل الله، وظل حياً وحيوياً في حياتهم طيلة قرون عديدة، ثم العهد
الحاضر للمسلمين، الذين تخلو فيه عن الجهاد، وعطلوه واستكانوا للدعة والرقود،
في الوقت الذي ظهرت فيه عشرات الأسباب والأحداث التي تستدعي الجهاد
والدفاع عن حياض المسلمين والذود عن حرمتهم، لكن ذلك لم يحرك فيهم همة أو
يستتفر شعوراً ولا وازعاً من خلق أو داعياً من دين.

ويتابع الشاعر عبد الرحمن صالح العثماوي^(١) المسيرة الشعرية التي تترسم
أسباب سقوط هويتنا الإسلامية واندحارها على نفس الطريق الذي سلكه أخوانه
الشعراء، غير أنه يطالعنا في قصيدته "من تشكي يا قلب"^(٢) بنغمة جديدة وقالب
آخر هو قالب الشكوى والأنين، هذه الشكوى التي تعتمل في صدره وتثقل كاهله
سيما وهو يسمع أنين أمته وقد أثقلت الجراح وهدتها المصائب والأتراح، حيث
يستهل قصيدته بقوله:

(١) عبد الرحمن صالح العثماوي: شاعر سعودي معاصر، يعمل استاذاً جامعياً.

(٢) ديوان يا أمة الإسلام ص ٥١.

لمن تشكي يا قلب والجرح غائر وحولك أصناف الهموم تحاصر
وينظر حوله فلا يرى من يبثه شكواه، ويلقي إليه بحمله، ويعينه في كربته
وشدته إلا سبحانه وتعالى الذي هو خير ناصر ومعين يقول:

إلى الله رب العالمين فإنه معين لمن يأوي إليه وناصر
بعد ذلك يخلص الشاعر إلى تفريغ الشحنة التي تقض مضجعه والهم الذي
يشغل باله، فيلتفت - ومشاعره تفيض أسى - لفئة إسلامية صادقة يستعرض فيها
عدداً من القضايا الإسلامية التي تؤثر في مجرى حياتهم، حيث يقول:

أقول لقومي بارك الله فيهم	وعندي من الحب العميق ذخائر
قضيتنا ليست عاداً وعدة	ولا فرقة تأتي .. وأخرى تغلدر
قضيتنا ليست جيوشاً كثيرة	نقاسمنا أحلامنا وتشاطر
قضيتنا ليست صديقاً منافقاً	تبدى لنا منه العدو المكابر

نعم إن هذه قضايا وقضايا مهمة في واقع أمتنا، ولكنها كما يقول الشاعر
ليست هي القضايا المصيرية التي تثقل كاهل هذه الأمة، ولا ينبغي أن تكون هذه
هي قضيتنا الكبرى ومصيبتنا العظمى، فهناك ما هو أعظم ضرراً وأدح خطراً،
والقضية بينها بقوله:

قضيتنا كفر يريد زوالنا	يسيره في لجة العصر كافر
قضيتنا الإلحاد جرد سيفه	وأهل كتاب أبرموا وتأمروا
قضيتنا الكبرى كيان ممزق	وقوم تعادوا جهرة وتدابروا
قضيتنا الكبرى هزيمة أمة	تنادم تجار الهوى وتعاقر
قضيتنا يا أخوتي أن أمتي	يميزها في العالمين التناحر
قضيتنا أنا بنعمة ربنا	بطرنا وأنا بالمعاصي نجلهر

وبعد أن يحدد الشاعر القضايا الصيرية الكبرى التي تعترض سبيل أمتنا
وتعكر صفوها، والمتمثلة في تكالب أمة الكفر علينا وإشاعة الإلحاد والمبادئ

الفاصلة بين صفوفنا، وكذلك في هذا الكيان الممزق مادياً ومعنوياً، المتناحر الذي يعادي بعضه بعضاً، والمخالف لأعدائنا المجاهر بالمعاصي والآثام، الأمر الذي يستبعد معه الشاعر إمكانية حصول النصر والظفر لهذه الأمة التي هذه أحوالها وتلك صفاتها والتي لا تقدر مواقفها ومركزاتها، ولا تحترم نفسها وتتاجر بمبادئها وأعرافها وتقاليدها في كل سوق وتهيم بها في كل واد حيث يقول:

وكيف تنال النصر والعز أمة بمبدئها في كل سوق تتاجر

غير أن الشاعر وهو في غمرة هذا الواقع المؤلم وفي خضم هذه القضايا الطاحنة التي تكتنف أمتنا، لا يساوره شك ولا يخالطه يأس، أو يفقد الأمل في مقدرات هذه الأمة وروحها الحية المشرقة التي طالما لبدها الغيوم وغشيتها الهموم والغموم، ولكنها سرعان ما تنقشع عنها ليعود لها صفاؤها وإشراقها، وذلك بشرط أن ترجع إلى نفسها وتصل حبالها بحبل الله المتين ودينه القويم، وترص صفوفها وتجمع قواها وكلمتها...

أقول لقومي لا تسوقوا ركابكم إلى غير دين الله فالموج هادر
ولا تياسوا ما خاب أصحاب ملّة إذا ما تواصلوا بالتقى وتآزرّوا

هذا ونستطيع أن نختم هذا الفصل بقصيدة مؤثرة طرحت في ثناياها أهم أسباب سقوط الخلافة الإسلامية بل السبب الرئيس فيه وهي قصيدة "الكوكب الأفل في ذكرى مآثم الخلافة" التي نظمها الشاعر يوسف إبراهيم^(١) سنة ١٩٩٠م ومطلعها:

أين الغناء يزف ألحانا من الذكرى بأحلاها وأغلاها يعاد

وهي قصيدة طويلة متعددة الأغراض والموضوعات، تدور حول الخلافة الإسلامية، رسم الشاعر في بدايتها صورة زاهية للخلافة إبان مجدها الزاهر وعزها الظاهر، ثم رثاها رثاء شديداً وبكاها بكاء مرأً عندما تساقطت أركانها

(١) احد الشعراء المعاصرين.

وأفلت شمسها، ثم يبين أهم الأسباب التي أدت إلى هذا السقوط، وتسببت في ذلك الأفرول، وهو أيضاً كالعديد من الشعراء الذين سبق ذكرهم، يضع المسؤولية على عاتق مصطفى كمال أتاتورك، إذ يهاجمه الشاعر ويصوغ أبياته بلغة قاسية حادة، يغلب عليها طابع الهجاء المر وأسلوب الشتم والسباب، فينعت به بأبشع النعوت ويسمه بأقذع المثالب والصفات، حيث يقول:

شلت يمينك أيها الجاني .. لقد خنت البلاد وجئت نكرا
بمعاهد الماسون تلميذاً نشأت .. فزدت إلحاداً وكفرا
ضمتك أحضان الدعارة مذ درجت فكنت في الأوطان ماخورا وعهرا
وسقوك من خمر الفجور فكنت للساقين في الحانات خمرا
وأرادك الأعداء عيراً للركوب .. فكنت للأعداء عيرا
وحملت جثمان الخلافة عندما حفروا له في موطن الإسلام قبرا
ووأدت أسفاراً من الأمجاد .. ما أبقيت للأمجاد سفرا
ومحوت ما قد خطه التاريخ ما أبقيت في الصفحات سطرا
وهدمت ما قد شاده الماضون من عز فما أبقيت للماضين ذكرا
ونحرت كل مفاخر الإسلام سفاحاً بسيف البطش نحرا
وجلست فوق العرش عبداً والبلاد أسيرة والناس والأوطان أسرا

وهكذا ومن خلال قرائتنا لهذه الأبيات التي صاغها الشاعر بأسلوب خطابي مباشر، وصب فيها جام غضبه على مصطفى كمال، وألصق به من معاني الخزي والعار ما هو جدير به نظير تلك العفلة الشنعاء التي قام بها حينما ألغى الخلافة الإسلامية، وذلك من منطلق أن الشاعر أدرك جوهر المأساة التي يعيشها المسلم المعاصر، والواقع الأليم الذي يكتنف حياته ويعيق مسيرته وتقدمه.

الفصل الخامس

آثار ونتائج سقوط الخلافة

آثار ونتائج سقوط الخلافة

نستهل هذا الفصل الذي يتحدث عن آثار ونتائج سقوط الخلافة الإسلامية بما جاء في قصيدة "الجهادية"^(١) للشاعر أبي الفضل الوليد^(٢) حيث يرثي في بدايتها الخلافة ويتحسر عليها وعلى سقوطها، ثم يستطرد في تبيان الآثار والنتائج التي نجمت عن هذا السقوط وترتبت على هذا الوضع البائس، فأحوال المسلمين والعرب يرثي لها، والأجانب بما فيهم الفرنجة واليهود يتكالبون عليهم ويقسمون خيراتهم، ويعيشون في ديارهم ومقدساتهم، ويأكلون حقوقهم، فهم والحالة هذه أصحاب البلاد والمتصرفون في أمورها ومقدراتها: بقول الشاعر:

الشام نهب والعراق غنيمة	وعليهما يتكالب الأقوام
والحق يصرخ قائلاً في ضعفه	أهل البلاد العرب لا الأعجام
سقطت دمشق ولم تقف لسقوطها	بين الأعراب فتنة وخصام
الجامع الأموي ^(٣) فيه جنازة	والمسجد الأقصى عليه ظلام
ومضاجع الخلفاء زال وقارها	والأولياء قبورهم أورام
وقف العلوج بها وداسوا تربها	ولأهلها فوق النجوم مقام
فالأرض تشكو شدة من وطئهم	وسلاحهم وكأنها مسقام

بهذا الأسلوب الخطابي، وبهذه التعابير الرنانة النابعة من القلب والمنتشحة بالأسى والحزن يسوق الشعر أبياته السالفة، التي صب فيها جام غضبه على المستعمرين والأجانب، الذين بسطوا نفوذهم على أرضنا ومقدساتنا وناعوا بكالهم

(١) ديوان أبي الفضل الوليد.

(٢) ديوان أبي الفضل الوليد.

(٣) بناء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق.

علينا، حتى عافتهم الأرض واشتكت من ثقلهم ووطأتهم، وتغير حالها ومآلها، ولكن لمن تشتكي ولمن تتظلم، وأين من يسمع شكواها وبلواها، وقد شئت شمل المسلمين وتعددت دولهم وأقطارهم، فلا دولة قوية تجمعهم، ولا ملك مهاب ينظمهم ولا حول ولا قوة لهم يقول:

المسلمون تساقطت أعلامهم فكأنهم بين الشعوب سوام
لا دولة فيهم ولا ملك لهم إن الممالك بالملوك ضخام
هل يثبت الإسلام بين ضلالة ملك بناه باسل وهمام

وإزاء هذا الحال المحزن والوضع المزري الذي أسفرت عنه أحوال المسلمين، ماذا سيقول لهم نبيهم محمد (ﷺ)، وبأي وجه سوف يقابلونه غداً، وقد فرطوا بأرضهم ومقدساتهم، فداستها أقدام الكفر، وتسلمت مقاليد الحكم فيها، وفرضت سلطتها عليها دون أخذ اعتبار لأهلها وأصحاب الحق الشرعي فيها حيث يقول:

ماذا يقول نبيهم وجواره فيه لطاغية العدى استحكام
الشام أرهقه الفرنسيس الأول هم مجرمون بهم طحى الإجرام
والإنكليز على فلسطين ارتموا وهي الفريسة فوقها الهمهام
وتبكلوا أرض العراق فأصبحت ملكاً لهم منه جداً وزمام

لذا يتضح لنا أن هذا التكالب وذاك الهجوم الاستعماري الذي شهدته بلادنا العربية والإسلامية غب سقوط الخلافة الإسلامية وما فيه من المآسي والآلام، ليعتبر بحق مدعاة للشعراء للتعبير عن مشاعرهم الفياضة تجاه قضايا بلادهم، وحافزاً قوياً لهم للنسج على هذا المنوال بكل أصالة وعاطفة صادقة.

وعلى هذا الغرار الذي يقطر حزناً ويفيض أسى ويترجم أحوال المسلمين البائسة أنشأ الشاعر أحمد محرم "قصيدة في استقبال السنة الهجرية ١٣٥٢هـ" (١)

(١) صحيفة الفتح: العدد ٣٤٢، ٢ محرم ١٣٥٢هـ.

استهلها بالشكوى من حالة المسلمين، وسيطرة الأجنبي^(١) عليهم وذلك بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية واصبحوا دولا شتى وأهواء متفرقة فقال:

إذا لم يلح يا عام بدرك باليمن فلا سلت الدنيا سلاحك من جفن
أتأتي فتلقى المسلمين أذلة إذا ما شكوا ضيماً أحيلوا إلى غبن؟
أتأتي فتلقىهم تراثاً موزعاً عليهم فجاج الأرض أضيق من سجن؟

بعد ذلك تألم الشاعر من حال القطيعة والعداء المفجع الذي يعيشه المسلمون فيما بينهم فقال:

إذا شئت نقب في البلاد فهل ترى خليطين منهم لم يبيتا على ضغن
وقد صار حب الذات فيهم غريزة تكاد تجب العطف بين أب وابن
به قطعت أدنى العلاقات بينهم وماذا وراء الدين من رحم تدني؟

ثم يتساءل الشاعر عن الدواء الشافي من هذه الفرقة فقال:

عصانا قد انشقت فماذا يعيدها كسيرتها الأولى مؤدبة الكون؟
سوى سيرة الهادي نجدد ذكرها فنشرف في تلك الدمامة بالحسن
ونطلع في داجي القنوط مضيئة وتنهل في جذب الأماني بالمزن

ولن يكون هذا الدواء الشافي لأوضاع أمتنا التي انشقت عصاها وتفرق جمعها، إلا باتباع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام التي تحت على وحدة هذه الأمة ولم شعثها وجبر كسرهما، لتسترد بذلك عزتها ومكانتها بين أمم العالم شمساً مشرقة في دياجي الظلم والظلام.

وتمرّ سنوات أخرى، ولا يزال الشعراء يترنمون بذكر الخلافة الإسلامية يرثونها ويقفون على آثارها ومواقعها أو يبينون أسباب سقوطها ومن ثم آثار هذا السقوط على المسلمين وما تسبب عنه في كثير من الوجوه.

(١) الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث / مرجع سابق / ١٦٧.

وها هو الشاعر الدكتور أمجد الطرابلسي^(١)، الذي وقف على مسجد "أياصوفيا"^(٢) الذي تمّ تحويله من قبل الكماليين إلى متحف أياصوفيا، حيث طالعنا بأصدقاء وجيعة وأناة حزينة لما آل إليه الحال، والذي لم ينس أن يرسم لنا صورة وازن فيها بين ما كان عليه أمر المسجد قبل السقوط وبين ما أصبح عليه الحال بعد ذلك حيث يقول:

فأضحت خلاء لا الحمائم خشع لديها ولا الداعي المؤذن يفصح
وعطلّ فيها الدين فهي وجيعة تضحج شكاة والمنابر نوح

ولا شك أن الشاعر هنا يتخذ ((أياصوفيا رمزاً لما آل إليه الحال بعد التحويل، وهذا بالطبع ينسحب على باقي المقدسات الإسلامية في بلاد الأتراك حيث تمّ كما هو معروف تعطيل الأذان باللغة العربية في كافة أنحاء تركيا وذلك من قبل أتاتورك وحزبه الكماليين، وهنا يذكر الشاعر "أتاتورك" مقرباً ومكاتباً بأن الأتراك ما بنوا مجدهم إلا على دعائم الإسلام، فإن هجروا الإسلام اليوم عادوا سيرتهم الأولى قبائل بربرية تجوب البراري كالسوائم))^(٣) يقول الشاعر:

بنيتم على الإسلام شامخ ملككم فلسن إذا هدمته اليوم تفاح
وإن أيادي العرب فيكم كثيرة وما ضرها أن تتكروا وتقدحوا
ولولا تهاويل الخلافة لم يكن لعثمان^(٤) في ضخم الممالك مطمح
فإن تهجروا الدين المقدس فارجعوا سوائهم ترعى في المروج وتسرح

وأخيراً وبعد أن يفرغ الشاعر من تقرّيع أتاتورك ولومه على ما فعل، يتولاه بالنصيحة ويحذره من فصم عرى القرابة مع الدول الشرقية، والإيضاع إلى دول

(١) الشاعر أمجد الطرابلسي.

(٢) أنظر الفصل الثاني.

(٣) محمد علي الهاشمي / أثر سقوط الإسلام في الشعر الحديث في سوريا.

(٤) جد العثمانيين الأتراك.

الغرب، مسترضياً بذلك أسياده الأوروبيون، منبهاً بأن الغرب لن يرعى له حرمة ولن يحفظ له ذماماً مهما تمسك بأذيالهم وتمسح بأعتابهم.

يقول وهو ما يزال موجهاً الخطاب إلى أتاتورك:

أتأتورك حاذر من بني الغرب وثبة وإن غردوا بالسلم يوماً ولوحوا
فحبهم حب الذئاب لنعجة وسلمهم البراق سلم مسلح
فصمت عرى الشرق العزيز بنزوة من الحمق ما تنفك تنزرو وتجمح
وقطعت أسباب القرابة واجداً من الأهل من يحنو عليك وينصح
ووالله لا يبدي لك القرب حرمة ولو رحلت في أذياله تتمسح

وحقيقة لقد صدق ظن الشاعر بأهل الغرب، الذين اطمأن إليهم "أتاتورك" وقطع من أجلهم كل ما يمت بصلة للإسلام والمسلمين، وأدار وجهه ثانية للغرب طامعاً في مساعدتهم والإقتباس منهم، ولكن ظنونه خابت، وخسرت بلاده الشرق والغرب، ولم يعد لهم ذلك المجد الذي كانوا يتسمنونه بين إخوانهم المسلمين.

وعلى هذا الغرار يواصل الشعراء الحديث عن آثار ونتائج سقوط الخلافة الإسلامية والذي نتج عنه تقسيم بلاد المسلمين وديارهم إلى دويلات متعددة ضعيفة لا وزن لها ولا شأن يذكر.

ومن هذا المنطلق ينظم الشاعر وليد الأعظمي^(١) قصيدة بعنوان "ذكر ونسيان"^(٢) ومطلعها:

شريعة الله للإصلاح عنوان وكل شيء سوى الإسلام خسيان

حيث ينوه فيها بالحالة المفجعة التي آلت إليها بلاد المسلمين وكيف أصبحت أمورهم بعد تكالب دول الكفر عليهم، وسقوط العديد من بلادهم تحت نير

(١) وليد الأعظمي: شاعر عراقي معاصر.

(٢) ديوان اغاني المعركة ص ٢٢.

الاستعمار، يذبحون أبناءهم ويدنسون مقدساتهم ويهدمون مساجدهم، وهم لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد ... يقول الشاعر:

ها قد تداعى علينا الكفر أجمعه	كما تداعى على الأغنام ذؤبان
والمسلمون جماعات مفرقة	"في كل ناحية ملك وسُلطان"
في كل أفق على الإسلام دائرة	ينهد من هولها رضوى وثهلان ^(٣)
في زنجبار ^(١) أحاديث مروعة	مثل التي فعلت من قبل أسبان
ذبح وصلب وتقتيل بإخوتنا	كما أعدت لنسف الحق نيران
مساجد تسفت في قبرص علناً	فهل تحرك عند القوم وجدان
وحول "كشمير" ^(٢) قتلى لا عداد لهم	في كل زاوية رأس وجثمان
تألب الكفر واحمرت له حلق	حقداً لتعبد دون الله ثيران ^(٤)
وذي فلسطين قد طالت مصيبتها	وخيمت في سماء القدس أحزان
ضجت من الضيم وانفتت جلامدها	تدعوا إلى الثأر آكام ووديان

وبعد أن استعرض الشاعر طائفة من الأحداث الجسام والخطوب العظام التي تعرضت لها بلاد المسلمين من جراء تعسف المستعمرين وجبروتهم، وذلك مما يفتت الجلامد والآكام قبل القلوب والأكباد، يخلص الشاعر إلى إقرار حقيقة يفتخر بها ويعتز: ألا وهي إيمانه العميق بعظمة هذه الأمة وروعة مقدراتها، وعدم استسلامها للأمر الواقع والخطوب التي تعترض سبيلها، بل إنها تنتصر على هذه الخطوب بوازع من دينها الحنيف وبهدي من دستورها: كتاب الله الكريم. وهنا يحث الشاعر إخوانه المسلمين للاعتراف من هذا النبع الصافي وترك ما سواه من الفجور والضلالات وذلك بقوله:

(١) اسماً جبليين في بلاد العرب.

(٢) منطقة تقع في بلاد اليمن.

(٣) مقاطعة مسلمة متنازع عليها بين دولة الباكستان الشرعية ودولة الهند المغتصبة.

(٤) تعريضاً بالهندوس الذين يعبدون البقر من دون الله.

كل الحوادث نالتنا مصائبها
 بأننا أمة قامت على أسس
 باتت على هامة التاريخ رافعة
 تبني الحياة بوحى من عقيدتنا
 قرآنا مشعل يهدي إلى سبل
 هو السعادة فلأخذ بشرعته
 ولم يزل عندنا عزم وإيمان
 بهن يثبت دون الهدم بنيان
 نور النبي لمن ضلوا ومن بانوا
 وعندنا للهدي والحق ميزان
 من حاد عن نهجها لا شك خسران
 وما عداه فتضليل وبهتان

ولا شك أن هذه الثقة من قبل الشاعر بمقدرات أمتنا الإسلامية وثوابتها
 ومركزاتها، هي في محلها وعند حسن ظنه بها، إذ أنه مهما طغى الهول وأعشف
 الظلام، فلا بد من أن ترجع إلى نفسها، وتنتصر على واقعها، ويشرق في أفق
 حياتها فجر جديد وعهد سعيد.

ومن قبيل هذا الشعر الذي يجسد واقع المسلمين المؤلم ونكباته العظام يسكب
 الشاعر أحمد فرح عقيلان^(١) قصيدة بعنوان "صرخة"^(٢) وذلك في أعقاب نكبة
 حزيران سنة ١٩٦٧م، تلك النكبة التي أطبقت على البقية الباقية من أرض فلسطين
 الحبيبة، واحتلت فيها يهود بالإضافة إلى فلسطين أجزاء أخرى من أراضي
 المسلمين في مصر وسوريا ولبنان، وما زال معظمها يرزح تحت نير الاستعمار
 حتى هذا التاريخ. ومطلع هذه القصيدة:

حطمت قيثارتني قطعت أوتاري ولي الغناء ودقت ساعة الثأر

وفيها يسكب الشاعر أحر عواطفه وأحزانه وتكاد نفسه أن تتساقط غماً وأسفاً،
 وأحشاؤه أن تتقطع حزناً وألماً؛ وذلك لما أصاب بلاد العرب خاصة والمسلمين
 عامة من آثار هذه النكبة النكسة، التي ما زال جرحها ينزف ودمائها تفور.

(١) أحمد فرح عقيلان.

(٢) ديوان: جرح الإباء.

وفي هذه القصيدة أيضاً ينعى الشاعر بالأئمة على بعض قادة هذه الأمة وعلى ما اعتنقوه من المبادئ والأفكار الهدامة، التي تتبع من غير منابع شريعتنا ومصادر تقاليدنا العربية والإسلامية، ويحملهم مسؤولية ما وصلت إليه أمتنا من سوء الحال فيقول:

لَهْفِي عَلَى الْعَرَبِ أَعْلَاماً مَمْزَقَةً	وراءها كل طبّال وزمار
نَقَسْمَتْنَا شَعَارَاتٍ يَرُوجُهَا	في شعبنا كل طاغوت وغدار
فَإِنْ دَعَا لِلْهَدْيِ وَالْحَقِّ دَاعِيَةً	تتاعقوا حوله: رجعي أفكار
ذُو الدِّينِ فِي عَرَفْهُمْ تَخْشَى غَوَائِلَهُ	فما يقرب إلا كل خمار
حُرِّيَةِ الشَّعْبِ فِي أَبْوَاقِ دَعْوَتِهِمْ	حكم المباحث والإرهاب والنار

غير أن الشاعر وهو يشعر بمرارة الإحساس من جراء الأوضاع التي تعيشها أمتنا العربية والإسلامية الموزعة الأنحاء، إلا أنه لا يفقد الثقة بهذا الشعب العريق والأمة العظيمة التي قادت العالم وتسمنت سدة الزعامة رداً من الزمن، وذلك عندما كان الإسلام شعارها الأول والأخير، ونراه هنا يوجه النداء لإخوانه العرب للعودة إلى خطيرة الإسلام ومن ثم العودة إلى الرقي والسيادة، يقول الشاعر:

يَا أَيُّهَا الْعَرَبُ يَا أَحْفَادَ مَنْ طَلَعُوا	على ظلام الحيارى .. جيش أقمّار
أَبَاؤُنَا جَعَلُوا الْإِسْلَامَ رَايَتَهُمْ	فلم تكن غير إكليل من الغار
إِنْ يَسْلُخِ الْعَرَبُ مِنْ إِسْلَامِهِمْ رَجَعُوا	على شمال المعالي .. بعض أصفار

بهذه الروح الإسلامية الشمولية، يدعو الشاعر إخوانه من العرب إلى الانضواء تحت خيمة الإسلام والمسلمين جاعلين من وحدتهم العربية طريقاً إلى الوحدة الإسلامية الشاملة، والتسلح بالإسلام الذي أعلى من شأنهم ورفع مقامهم وجعلهم أمة تعنو لهما الأمم ويفخر بها التاريخ.

وكثيرة هي النصوص من الشعر الإسلامي التي تفصح عن آثار ونتائج سقوط الخلافة الإسلامية، وما آلت إليه أحوال المسلمين من الضعف والانقسام، ويكاد يشترك الكثير من الشعراء في إيراد الخطوط الرئيسية والنقاط العريضة لهذه الآثار والنتائج التي لا تختلف بين شاعر وآخر إلا في طريقة عرضها، سواء وردت موجزة أو مفصلة من قبل هذا الشاعر أو ذاك؛ وذلك لأن هذه الآثار لا تخفى على ذي عينين، ويلمسها كل من هب ودب ممن آتاه نفاذ البصيرة وقوة الإدراك واليقين.

ويشارك الشاعر مأمون فريز جرار^(١) في قصيدة بعنوان الفوز بالقرآن^(٢) والتي نظمها سنة ١٩٨٠م، وتدور حول هذا المعنى ومطلعها:

أضنى الفؤاد مواكب الأحزان تختال فوق ممزق الأوطان
حيث يستعرض فيها أحوال المسلمين البائسة، مسلطاً الضوء على الأيدلوجيات التي تجتذبهم ويتخبطون في متاهاتها، فهذا يميني وهذا يساري .. إلى غير ذلك من المذاهب والأفكار التي ما أنزل الله بها من سلطان فيقول:

في كل صقع من بلاد نكبة من ساحة الأقصى إلى الأفغان
والمسلمون على الدروب بلا هدى متفرقون كتائه القطعان
هذا يميل إلى اليمين مغرباً والغرب عادانا مدى الأزمان

وللتدليل والتأكيد على ما أفاض به الشاعر في قصيدته وعلى ما فعله أهل الغرب بالإسلام والمسلمين يضرب مثلاً بما صنعوه في بلاد الشام عندما بسطوا نفوذهم عليه، وقاموا برفع راياتهم وأباطيلهم في أنحائه، وحاولوا تشويه شريعة الله والطعن في المقدسات والثوابت الإسلامية، ولكن الله رد كيدهم في نحركم وأخزاهم، ورغم ذلك فإنهم استطاعوا أن يزرعوا إسرائيل في قلب الوطن الإسلامي حيث سرى دأؤها في جسم الأمة العربية والإسلامية، واستطاعوا أيضاً بكيدهم

(١) مأمون فريز جرار - شاعر اردني معاصر.

(٢) ديوان قصائد للفجر الآتي ص ٢٨

ودعائهم أن يمزقوا هذا الوطن الكبير إلى دويلات ضعيفة هزيلة تحارب بعضها بعضاً، بعد ذلك يلفت الشاعر الأنظار إلى أن هذا الوطن لم يسلم أيضاً من التيارات اليسارية الحمراء التي حاولت النيل من عقيدته وتقاليده وجرت عليه المصائب والدويلات فيقول:

واسأل بلاد الشام تخبر أنهم	جاءوا بلاد الشام كالطوفان
رفعوا الصليب ليطفئوا نور الهدى	فأذل ربك راية الصليبان
واليوم إسرائيل بعض غراسهم	في موضع الإسراء كالسرطان
من مزق الوطن الكبير وخطه	دولاً مهلهلة بغير كيـان
وإلى اليسار ترى فريقاً مهطعاً	فتنته دعوات بلا إيمان

وبعد أن يستعرض الشاعر ما جرّه علينا الغرب والشرق من الدويلات والنكبات، وما نزال نتجرعه من سمومها حتى الآن يخلص الشاعر بأن يرسم في نهاية القصيدة خط السير الذي يحبذ أن تنتهجه هذه الأمة للخروج من أزمتها ألا وهو الالتزام والتفيد بما جاء في القرآن الكريم وهدية الشريف بعيداً عن التيارات اليمينية واليسارية وكل ما لف لفهما فيقول:

ما باليمين ولا اليسار فلاحنا ما الفوز إلا منهج القرآن

وكفى بذلك منهجاً شريفاً وفوراً عظيماً، كفيلاً بالحياة الحرة الكريمة.

كذلك لا يفوت الشاعر الجزائري محمد الأخضر السائحي^(١) أن يصرح بالحالة البائسة التي تحياها أمتنا الإسلامية، وذلك عندما شارك إخوانه المسلمين في ذكرى المولد النبوي الشريف ونظم قصيدة بعنوان "مناجاة هلال المولد النبوي الشريف"^(٢) ومطلعها:

أقبلت ترفل في أثوابك القشـب حلو الملامح لم تهرم ولم تشب

(١) محمد الأخضر السائحي - شاعر جزائري معاصر.


(٢) ديوان إسلاميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م.

فبعد أن يناجي شهر المولد النبوي الشريف وينعته بما هو أهله، يلتفت إلى وصف أوضاع المسلمين السائدة، فهالته هذه الفرقة وهذا الانقسام الذي يتوزع ديار الإسلام ويكتنف ربوعها، وقد هبت عليها رياح الطائفية السهوجاء وسرت في أجسامهم سموم الجاهلية الجهلاء.

ثم يأخذ على المسلمين كيف أنهم لم يوحدوا صفوفهم، وقد وحدهم الدين وجمعت بينهم الشريعة الإسلامية الغراء.

وأخيراً يخلص إلى توجيه الدعوة لتوحيد الصفوف والقلوب على كلمة واحدة ونبذ التفرق والانقسام فيقول:

فكيف صرنا شتاتاً لا يوحدنا	رأي ولا نلتقي حتى على النوب
تفرق الشمل حتى قال قائلنا	أبو الشقيق الذي خاصمت ليس أبي
الجاهلية ثارت في طبائعنا	والطائفية تأتي اليوم بالعجب
فهل نعود كما كنا بلا خلق	ولا رشاد ولا فهم ولا أدب
والدين وحدنا صفاً .. فأقعدنا	حين اتحدنا به في أرفع الرتب
فلتقطعوا كل كف شذ أصبعها	وكل فكر من الأفكار مغترب
ووحّدوا الصف إن الله وحده	واقضوا على الخلف والإحاد والريب

وهكذا فأننا نلاحظ أن الشاعر يدعو المسلمين إلى الوحدة الشاملة المتمثلة في كل شيء من حياتنا والتي هي مظهر من مظاهر ديننا الإسلامي الحنيف. من جهة أخرى ((فإن روح العصر توجب على المسلمين أن يتجمعوا حول كتاب الله وسنة رسوله؛ لأن الله تعالى يناديهم من وراء الخلود في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾  وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾ (١) إذ لا بد أن نجتمع بعد طول الافتراق، لأن الأمة الإسلامية تقوم فيها الروابط على وحدة الدين والعقيدة، ووحدة المبادئ الخلقية الفاضلة، والنظم الاجتماعية العادلة والعبادات الجامعة)) (٢) وفي قصيدة بعنوان "الرأية الخضراء" (٣) للشاعر محمود مفلح (٤) والذي يفصح فيها بالتخلي عن كل المبادئ والمعتقدات الزائفة التي لا تتفق مع مبادئ ديننا الحنيف ومعتقداته الأساسية، ومن ثم الرجوع إلى جذور الإسلام الخالدة، ومنابعه الصافية ونهره الفياض المتدفق الذي يجرف في طريقه جداول الباطل وأودية الشك والضلال، وقد استطاع الشاعر من خلال هذه القصيدة أن يجسد كل السلبيات والانتكاسات التي وصمنا بها الغرب وركزها في طريقنا، وذلك بعدما تخلينا عن مبادئنا وثوابتنا التاريخية وتقاليدنا الإسلامية العريقة، الأمر الذي سقطت معه راياتنا وهويتنا ووحدتنا التالدة وما نتج عنه من الفوضى والذوبان في متاحات الضياع وأودية الاغتراب، يجسد الشاعر ذلك قبل أن يؤوب إلى نفسه ويرجع إلى رشده فيقول:

رجعت للحق بعد اليأس والهون	رجعت للقلعة السماء يا وطني
رجعت للمجد والإسلام غرتـه	وكنت من قبله ميتاً بلا كفـن
لولاه ما بزغت شمس على بلدي	ولا ترنم عصفور على فنـن
قال الشياطين إن الدين قد سقطت	راياته من أقاصي الصين لليمن
ولن تقوم له من بعد قائمة	ولن يكون له شأن ولم يكن
ونحن في عصر إبداع وتقنية	والدين غل نداء الروح والبدن
أمضيت عمري رباناً بلا هدف	والموج يمضغ في أحشائه سفني
فلا هوية لي حتى أجسدها	ولا جذور إذا ما تهت ترشدني
أصبحت في غرف التاريخ منتبذاً	يمر بي كل علج ثم يركنني

(١) آل عمران آية : ١٠٣.

(٢) الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة ص ٢٣٤ دار الرائد العربي.

(٣) محمود مفلح، ديوان شموخا أيتها المآذن ص ٦١.

(٤) محمود مفلح.

لأعين الغرب عين وهي تشهدني
فمن تسراه إلى الجزار أسلمني
هو الذي من كؤوس السم جرعني
في ظلمهم وغدت ضرباً من العفن
وأختها من أفاعي الغرب ترمقني
أعيد ما كان رأس الكفر لقنني
راياتنا .. وأطلت راية الفن

وسار نهر دمي سَيْلاً فما دمعت
أسار للذبح والتاريخ مغتصب
إن الذي عن كتاب الله أبعدني
قالوا وأصبحت الأيام مدبرة
قالوا وكانت ذئاب الشرق ترصدني
حتى غدوت كما البيغاء بينهم
وضاعت الأرض بعد العرض وانتكست

والشاعر وهو يسقط على نفسه كل هذه السلبيات وينصب من شخصه هدفاً لكل ما رماه به الغرب أو الشرق من رميات، إنما كان يتحدث بلسان الجماعة ويعتبر نفسه واحداً من أبناء هذه الأمة التي ابتلي أفرادها بمثل ما ابتلي به وأكثر، ويرجع أسباب ذلك الانحدار وذاك الإنتكاس إلى الحالة التي ألمت بالمسلمين بعد سقوط رايّتها وتفكك وحدتها وتمزقها إلى دويلات هزيلة تلعب بها الأمم كيف شاءت ومتى شاءت، لكن الشاعر وهو في قمة هذا اليأس القاتل، وفي غمرة ذلك الهوان الشامل، لا يستسلم لليأس ولا يركن للخنوع، كيف لا وهو الشموخ بعينه والعقيدة بأطوارها والثبات بحقيقته، وها هو يخاطب القدس ويبشر مسرى الرسول (ﷺ) بأن يسمع نداء الجهاد قادماً، وأصوات الحق خفاقة، ويرى كتائب الله وأعلام الحق وهي ترفرف عالية على طريق العودة والنصر.

يقول الشاعر:

إني الشموخ فلا شيء يزعزعني
وليس غير نداء الله يسحرني
تكون في ظلها يوماً فتقبّلني
إني لأسمع صوت الحق في أذني
كتائب الله قد ضجّت بها مدني
"والله أكبر" نبراس على الزمن

يا أمتي وأقول اليوم في ثقة
إني العقيدة والإقدام فيصلها
أود عنها وفيها علّ خاتمتي
يا قدس يا بلد الإسراء يا سكني
وأبصر الراية الخضراء ترفعها
فالليل يعقبه فجر ومثذنة

لا يخفى على القارئ ما في ثنايا هذه الأبيات من نفحات التفاؤل والأمل
المشرقين، وندى الثقة والإيمان العامرين بمستقبل هذه الأمة وعطاء أبنائها،
المتوشحين بالشموخ والإقدام، الذين سيتولون بإذن الله رفع علم الإسلام الشامخ على
روابي القدس وكل ما احتل من أرض المسلمين وحدائهم "الله أكبر" يتردد في كل
مكان، هذا وقد وردت هذه الأبيات بألفاظ تقطر حسناً وتتساب رقة بأسلوب جزل
رصين يملك على السامع سمعه وقلبه ووجدانه.

وينظم الشاعر محمد هاشم رشيد^(١) قصيدة في إحدى المناسبات الوطنية،
وذلك في يوم عيد الفطر عام ١٣٩٦ بعنوان "في موكب الأفراح"^(٢) ومطلعها:

عادت لطيبة بهجة الأعياد فتألفت كالكوكب الوقاد

وبعد أن فرغ من موضوع المناسبة، عزّ عليه وهو الشاعر الحساس أن لا
يتطرق في قصيدته إلى تشخيص أوضاع المسلمين البائسة التي منعت الكثير من
أبناء المسلمين الذين يرزحون تحت نير الاستعمار، أو يتعرضون لظروف
صعبة، وضغوط قاسية من مشاركة إخوانهم في كل مكان، وحالت دون تمتعهم
بأفراحهم في مثل هذا اليوم من أعياد المسلمين، وراح يتألم لما آلت إليه حياة
الشعوب الإسلامية من تمزق وضياع وأحقاد في كل مكان، ثم يذكر أن العيد مناسبة
يقف فيها الإنسان مع نفسه، يتدبر ماضيه ويستلهمه ليتخذ منه العبر والدروس
لحياته القادمة، وانقأ من أن النصر في النهاية للإسلام والمسلمين^(٣) يقول:

قالوا وهل للعيد من معنى وقد	عاث الدخيل .. ولج في الإفساد
فالقُدس ترزأ تحت وطأة غاصب	قذر يدنس معقل الأساد
وعلى ثرى لبنان ماتم أمة	تكلّي تحطمها رحي الأحقاد

(١) محمد هاشم رشيد - شاعر سعودي معاصر، يعمل مديراً لنادي المدينة المنورة الأدبي.

(٢) محمد هاشم رشيد، الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥٦.

(٣) د /زرق داود، محمد هاشم رشيد أضواء على شعره وشاعريته.

وبقلب باكستان .. جرح غائر
وبآسيا الصغرى شعوب مزقت
والمسلمون بكل أرض أصبحوا
فأجبتهم: ما العيد إلا وقفة
نستلهم الماضي .. ونذكر أننا
والنصر للإسلام مهما احلوا كنت
ما زال ينزف في ضلوع الضاد
بالمخالب القاني وبالإلحاد
غرض الرماة ومنهل الورد
عبر الزمان لفترة استعداد
أقوى من الأغلال والأحقاد
آفاقنا وتلطخت بسوان

وهكذا يتضح لنا مدى الثقة الكاملة بمستقبل الإسلام لدى الشاعر، وأن النصر حليفه بحول الله مهما أظلمت الآفاق واسودت الظروف.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "في ظلال السماء"^(١) يشكو الشاعر محمد هاشم رشيد نفس الشكوى من سوء أحوال المسلمين، وتفرق كلمتهم، وتعدد راياتهم، وعدم وحدتهم، فلم يعودوا تلك الدولة الموحدة التي تستظل الدنيا بظلها وتفرض هيبتها على العالمين، وتلك بنظره النكبة الكبرى والطامة العظمى، يقول:

رباه .. يا خالق الأكوان نحن هنا
لن تختلف صورة عنهم وإن عبثت
ولم نعد أمة .. كالأمس .. واحدة
لم تجتمع قط .. حتى في مبادئها
وتلك نكبتنا الكبرى فما ارتفعت
ولم تعد راية شماء واحدة
وتستظل بها الدنيا بأجمعها
شعارها .. هدف أمسى يوحدنا
نسعى .. كما سعت الأسلاف من قدم
بنا السنون .. فعشنا في دجى الظلم
لكننا أمم .. تعمزى إلى أمم
إلا إذا جمعتها ساعة الحرم
راياتنا .. حين امست بضع رايات
تضم في ظلها أسمى الحضارات
على موحد أهداف وغايات
في ظل بيتك يا رب السموات

واضح من خلال هذه البيات غيرة الشاعر الإسلامية على أمتة التي ذهبت وحدتها أدراج الرياح، وقد حزّ في نفسه وأحزنه هذا الواقع الأليم والإنقسام المريع

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، محمد هاشم رشيد.

الذي يعتور صفوفها وينخر في جسدها وذلك حين فقدت قوامها ووحدتها وتعدد راياتها، ولم تعد تلك الأمة المهيبة التي كانت ملء السمع والبصر، ولكنه يستبشر خيراً ولو إلى حين وهو يشهد لها هذه الوحدة المعنوية خلال تجمعها في ظلال بيت الله العتيق والذي سيقودها بإذن الله إلى الوحدة الحقيقية الشاملة. وهذا هو الشاعر عبد الرحمن العبادي^(١) الذي يغتنم فرصة نهاية القرن الرابع عشر الهجري ((وينظر إلى المسلمين فيرى الملايين ولكنهم تفرقوا شيعاً وأصبحوا دولاً، وضلوا السبيل وهانوا على الله فهانوا على الناس))^(٢) وهو هنا ينعي على العرب اعتناقهم لمذهب القومية، موضحاً أن العروبة التي لم تعرف العز والرفعة إلا بالإسلام إنما هي لحن نشاز وفرع شاذ إن حاولت الانفصام عن شجرة الإسلام ودوحته الوارفة الظليلة ولم تتمسك بأهدابه وتتطلق من خلاله .. يقول الشاعر:

ارى الملايين في الأقطار ليس لهم	في عالم اليوم إجلال وإكبار
هانوا على الله لما أصبحوا دولاً	وبات يملكهم في الناس خوار
يا سيد الرسل قد بانّت عروبتهم	سيفاً به هتكت للدين أستار
لحن العروبة قد أضحى لمن جهلوا	ديناً يؤصله في الناس فجار
إن العروبة بالإسلام عزتْها	فإن رأّت غيره فلتبكه الدار

ولا شك أن هذه الدعوة الصريحة والموقف الصلب الذي يقفه الشاعر من أولئك الذين يعزفون على وتر العروبة ويروجون لوحدها على أساس القومية العرقية وخارج نطاق الوحدة الإسلامية، لهو موقف جدير بالبحث والإهتمام إذ ينعي عليهم الشاعر هذا الإتجاه المريب الذي ينفخ في عروقه ويوهج ناره قوم مشكوك في هويتهم وصلاحتهم، موضحاً لهم أن العروبة لم تعرف قيمتها وعزتها إلا من خلال الإسلام ومن واقع الوحدة الإسلامية المقدسة ومن رأى غير ذلك فموته أفضل من حياته.

(١) ولد في أبو ظبي سنة ١٩٥٢م.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية في الشعر العربي الحديث ج ٨.

وبنفس مناسبة انتهاء القرن الرابع عشر الهجري، وعندما يطوي يـ خـر
صفحة من صفحاته، ويستقبل المسلمون في العالم الإسلامي القرن الخامس عشر
الهجري، ويستقبلون معه تركة ثقيلة من المآسي والمصائب، وإرثاً جسيماً من
التخلف والانقسامات، عندها يلتفت الشعراء إلى الوراء، يجسدون أحداث القرن
المنصرم، ويرسمون المعالم والصور على طريق القرن الجديد.

وهذا هو الشاعر الأديب نجيب الكلائي ينظم قصيدة بعنوان "مرثية القرن
الرابع عشر الهجري" يرثي فيها القرن المنصرم، ويكشف عن وجه الحقائق المؤلمة
التي اكتتفت العالم الإسلامي وعملت على عرقلة مسيرته الحضارية والتقدمية،
وحالت دون وحدته وانتصاره على نفسه، ويصب فيها أيضاً اللوم على شباب
الإسلام وأبنائه الذين انغمسوا في غمار الملاهي والملذات، واعتنقوا فاسد المذاهب
والمعتقدات، وانجذبوا نحو الفلسفات الغربية الغربية عن تقاليدنا ومبادئ ديننا
الحنيف، ثم بعد ذلك ينحي باللائمة الكبرى على أعداء الأمة من المستعمرين
والصهاينة الذين احتلوا أرضنا ودنسوا مقدساتنا وشوهوا أفكارنا وسبكوا حياتنا سبكاً
جديداً في قالب جديد وروح جديدة من الضياع والهوان.

أيها القرن الذي ضلت رؤاه	وتهاوى في دياجير الغلاه
زمرت فيه سموم قد طغت	نكبات مثقلات لخطاه
ساده عقل شقي تائه	بدد الحب .. وأفراح الحياة
هومت أفراحه في مهمه	مفعم باليأس قد غامت سماه
أمطرت قهراً وخوفاً وأسى	بلغ الإذلال أقصى منتهاه
قد أتى الذئب على قطعاننا	بعد أن أجفل شجعان الرعاة
نحن كالأغنام نمضي زمراً	واستطار العسف في كل اتجاه
جيلنا المشؤوم مسؤولاً ولن	يجد التاريخ مسؤولاً سواه
خانه التوفيق في تفكيره	فلسفات الذل قد أعشت سراه

ثم يخاطب القرن مسترسلاً في الكشف عن المآسي التي عاشتها أمتنا خلاله
بقوله:

أيها القرن الذي ولى وراح	أمة الإسلام تدميها الجراح
فلسفات هائمات في الدجى	تخطئ السير إلى درب الصباح
وشباب سادر في غيـه	وهوان ضارب في كل ساح
وترائيم خواء وأسى	وضجيج من هراء ونباح
والقيادات التي تحكمنا	قد تهاوت بين كاسات وراح

بعد ذلك يعاتب الشاعر القرن الماضي على هذه الهموم والمصائب التي
تجرعها عالمنا الإسلامي خلاله، ويركز فيها على قضية القدس الشريف واحتلال
الصهاينة لمقدساتنا يقول:

أي قرن كنت في تاريخنا	ذبح الحب بأسياف السفاح
وبنو صهيون غالوا قدسنا	فتواءنا مع الغدر الصراح
لم نزل نشكوا ونشكوا كلما	آدنا الظلم لجأنا للنواح
رد فعل القهر في أجيالنا	دمدمات وهتاف وصياح
أفقر الفكر وغابت شمسـه	كيف يسمو الفكر في دنيا الوقاح
وكتاب الله يتلى بيننا	كل آن والأحاديث الصحاح
غير أن الحق في أوطاننا	ضائع في كل واد يستباح
تلك يا قرن الأسى قصتنا	عثرات وضلال وجراح

وأخيراً يقرع الشاعر طبول الإنذار منبهاً أبناء أمتـه المستسلمين للخنوع
والفساد، والقابضين على مهاد الخمول والرقاد، ليستيقظوا من هذا الضياع والهوان،
يشهروا سيف العزيمة والنصر ومن ثم الاستعداد لارتقاء قمة المجد في وحدة
إسلامية شاملة حيث القوة والمنعة والكرامة يقول:

أيها النـوأم لا تسترسـلوا	وأرهموا السمع لذياك الأذان
نحن بالتوحيد أقوى أمة	ومع الإيمان في أسمى مكان

إنما النصر لشعب مؤمن لا للهو وخنوع وقيان
والمواثيق التي نصنعها نكبة ما لم تدعم بالسنان
إنما السيف على أيامنا مثل عصر الغاب أقوى في البيان

وهكذا وبهذه النبرة الحادة والنفحات الصادقة، صاغ الشاعر قصيدته وجداناً مترجماً وفناً منغماً، نسأل الله أن يبارك لنا في قرننا الخامس عشر الهجري الجديد وينصر فيه الإسلام والمسلمين.

وكذلك لا يزال الباحث المستقرئ لآثار الشعراء في مثل هذا الموضوع، واجداً الكثير من النماذج الواصفة لأحوال المسلمين التي استقرت في الحضيض، ففي قصيدة للشاعر محمد كامل الآني^(١) بعنوان "عاد الربيع"^(٢) ومطلعها:

بأي لفظ أصوغ الدر والذهبا شعراً وأسبك من آياته عجباً

يرسم الشاعر صورة واقعية لأحوال المسلمين المعاصرة، ويجسد حالة غرق إنسانه في حمأة الأوهام والتقاليد الجاهلية، ثم يحذره من الابتعاد عن سنن الإسلام وفطرته الأساسية والاعترا ب عنه بحيث يصبح مسخاً لا وزن له ولا قيمة، ولن يجديه بعدها الافتخار بماضيه التليد وأسلافه الصيد، وسوف لا ينفعه الندم حين لات مندم ... يقول الشاعر:

عاد الربيع وفي أذياله نذر حذار أن يرجع الإسلام مغترباً
حذار أن يمسخ الإسلام فطرته فيستسيغ ضلالات وينقلباً
أجل لقد غرق الإنسان في حمأ حتى تحول طيناً بالهوى لزباً
أضاع مجداً تليداً كان مؤثلقاً وعاد يلث خلف الوهم مضطرباً
مضى يفتش عن أهل وعن وطن عن الخلافة عن آبائه النجبا

(١) شاعر ارتيري معاصر.

(٢) محمد كامل الآني، من الشعر الإسلامي الحديث ص ٢٦٧

رأى هياكل قد زالت ملامحها وموطناً قد أضاع الإسم واللقب
فعاد يرثي حياة لا ظلال لها يبكي لها رهباً يأسى لها رغبا

وأمام هذا الواقع الأليم الذي انحدر إليه إنسان هذا العصر يعود الشاعر مرة ثانية فيركز على الصورة التي رسمها للأمة الإسلامية وكيف عمها الشتات والانقسام، وتسלט عليها الأعداء وغرق أبنائها في منازعات لا أول لها ولا آخر حتى اضطربت الأمور وتشعبت الأحوال فانعدم شأنها وضعف حالها وانحدرت إلى الحضيض حيث يقول:

وأمة كغشاء السيل جاثية ذلاً وفرقها الأعداء أيد سباً
صارت شرذام شتى لا سراة لهم دبّ الشقاق وساء الوقع منقلباً

وإزاء هذا الوضع القائم لا يسع الشاعر إلا أن يتوجه بالنداء إلى أبناء الأمة الإسلامية لتخطي هذه الأزمة العارضة والعودة إلى منابع الدين الصافية وشريعته الغراء، ليعود لهم شأنهم وترجع إليهم كرامتهم فيقول:

هل عودة يا بني الإسلام صادقة تعالج الداء فينا تدفع العطباً

وفي هذا البيت الذي ختم به الشاعر قصيدته تتجسد قضيتنا، وتتلخص كل الحلول الكفيلة بعلاج أدوائنا وإنهاء مشاكلنا.

وللشاعر عمر بهاء الدين الأميري^(١) عدداً من القصائد والمقطوعات الشعرية التي تصور مآسي المسلمين وواقعهم الأليم أبلغ تصوير، فهو قد بذل حياته رحمه الله وهو ينافح ويدافع عن حقوق المسلمين والنفخ في أرواحهم ونفوسهم لجمع الشمل وتوحيد الكلمة، والعودة إلى منابع الدين الحنيف وسنته المطهرة.

(١) عمر بهاء الدين الأميري.

ففي قصيدة "أذان الزحف"^(١) يقدم الشاعر لقصيدته بقوله ((بلاد العروبة والإسلام في أمر مريع وأحداث جسام، تسلط على بعض أوطانها متحكمون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ساقوا شعوبها إلى المهالك الليلاء والفتن الهوجاء، أشعلوا بينها حرباً ضروساً تكاد تستأصل الرجال والآمال والمال ..، والأعداء الألداء يؤججون النار والدمار .. ويسخرون منا ويشمتون ونحن لاهون وإننا لله راجعون))^(٢) ... يقول الشاعر:

"يا لدار الإسلام"^(٣) قد مزقوها فهي دور وعز من يحميها^(٤)
كل يوم فيها انقلاب وحكم عسكري يزيد لها تشويها
ويجر الشعوب للهول جراً - وهي عزلاء - حاكم يشقيها

وهكذا فإن الشاعر هنا يندب "دولة الخلافة الإسلامية" التي مزقتها الطامعون إلى دويلات يتعرض الكثير منها وفي كل وقت وحين إلى انقلابات عسكرية تزيدها ضعفاً وهواناً، وتلقي بمصائر شعوبها العزل في مهاوي التعاسة والشقاء.

بعد ذلك يجتهد الشاعر في تحريك العاطفة الدينية في نفوس المسلمين، فهو يدعو شباب الإسلام. وهم أمل هذه الأمة بعد الله سبحانه وتعالى في إنقاذها من شبح الأخطار والشرور المحيطة بهم، موجهاً إياهم للاستمسك بجوهر العلم والمعرفة، وتطبيق شرع الله القويم، وأن ينهلوا من منابع القرآن الكريم التي هي غذاء أرواحنا وشفاء أدوائنا، ثم ينصحه بالتصدي والاستعداد لاستلام دفة الحكم وقيادة المسلمين على أسس من الشورى والعدل والرشاد حيث يقول:

يا شباب الإسلام أمتنا في خطر الموت أين من يشفيها
فتتبع لها بدينك علماً ومضاء واسلك هدى باريها

(١) ديوان أذان الزحف ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هي دولة الخلافة.

(٤) عز : قل وندر.

ليس إلا "القرآن" بادر إليها بعلاج من آية يحييها
وتسلم سفينها بسداد ورشاد فذ وكن مجريها

وأخيراً وبعد أن يصف الشاعر الدواء الناجع لشباب هذه الأمة ويرسم لهم الطريق المستقيم، ومن ثم النهوض بها إلى مراقي العز والفلاح، يعود فيهيّب بالمسلمين ويستنهض همهم، ويشد عزائمهم، لمبادرة ومباغطة أعداء الأمة بالجهاد والزحف المقدس الذي آن أوانه لانقضاء أمتنا من كل ما يكتنفها من أخطارهم وأطماعهم وشرورهم فيقول:

يا شباب الإسلام حم أذان الزحف شمر للوثبة القعساء
جاوز الأرض للسماء لكي تستوعب الأرض يا نجيد السماء

لا يخفى على القارئ ما في هذه الأبيات من دعوات صادقة ونوايا حسنة تحض الإسلام والمسلمين، وترسم لهم دروب الكرامة والمجد والتعلق بأهداب القرآن الكريم، والدعوة إلى الجهاد ووحدة الصف، وكل ذلك جاء بأسلوب رشيق وعاطفة صادقة وصور رنانة مترفة.

وعلى نفس المنهج الذي نهجه الشعراء فيما سبق من هذا الفصل الذي يوضح الآثار والنتائج الناجمة عن سقوط القدس وفلسطين وغيرها من بلاد المسلمين في يد الأعداء، والتي ما كانت لتتجم في حياة المسلمين لولا تفرق كلمتهم وانقسام صفوفهم حتى هان شأنهم على أعدائهم فنفذوا إليهم وعاثوا فيهم دماراً وإفساداً:

من هذه النماذج الشعرية قصيدة للشاعر يوسف العظم^(١) بعنوان "باسم الشعب ولا يدري"^(٢) قدم لها بقوله:

((إلى كل الذين يزعمون أنهم يتحركون من أجل الشعب .. وهم سبب

شقائه وسر بلائه!

(١) يوسف العظم - شاعر اردني معاصر، صاحب مدارس الأقصى.

(٢) ديوان في رحاب الأقصى ص ٢٠١.

إلى الجلادين الذين أذاقوا الأمة ألواناً من المذلة وجرعوها كؤوساً
من الهوان!

إلى المهرجين عبر الأثير .. المتاجرين بكرامة القلم!

إلى المعذبين الذين لاقوا على أيدي الطغاة ما لم يلاقوا على أيدي الغاصبين!

أبعث هذه الصيحة في وادي الهزيمة .. وتيه الضياع !!!)) ثم قال:

كم أشرقت في سماء المجد رايات	ورثلت في رحاب الخير آيات
وكان رائدنا .. يحدو مسيرتنا	الله غايتنا الرحمن .. لا الالات
وكانت الأرض بالطغيان مظلمة	فجاء هادينا بالعدل مشكاة
ودولة الحق بالإسلام تحكمنا	واليوم تحكمنا ظلماً: دويلات

وبانقسام دولة الإسلام الواحدة إلى دويلات متعددة، يبدأ الخط البياني لمسيرة
الأوضاع الإسلامية بالانحراف والهبوط إلى ما لانهاية، وأصبح العالم الإسلامي
لعبة للأهواء والمنازعات، وخلت الساحة إلا من البدع والضلالات فيقول:

يمضي بنا العمر في لهو وفي عبث	والعمر رغم امتداد العمر ساعات
وشرعة الله في القرآن نهجرها	وشرعة الخصم تلمود وتورا
وعدة الخصم صاروخ وطائرة	ونحن عدتنا الكبرى قرارات
عدونا وحدوا .. أشتات باطله	وشعبنا رغم نور الحق أشتات
سفينة الشعب ضلت لا شراع لها	والشعب حار وما للشعب منجاة
وجبلنا ضاع .. في تيه يمزقه	ودربه ضل قد دكته مأساة
الجهل والفقر والطغيان يسحقه	والكأس والجنس مسلاة وملهاة
في كل يوم متاهات تضيعنا	وفي الكوارث تطوينا متاهات
شعارنا الحرب والتحرير نرفعه	وهل يحرر أقصانا شعارات
كان اليمين لنا ذلاً يمزقنا	وفي اليسار لنا بؤس وويلات
وقادة الشعب أموات بلا كفن	فهل يحرر أرض القدس أموات

وبعد هذا التصوير الحسي الدقيق لمآسي المسلمين وانحرافهم الشائن في
مناهات ودهاليز الشرق والغرب المظلمة، ورسم لوحة قائمة لقياداته والمنفذين له،
يخلص الشاعر إلى إطلاق حكمة تصف النتيجة المرتقبة لأعدائه والمتاجرين فيه إذ
يقول:

من يزرع اليوم شراً فالحصاد غداً وقدرة الله للطغيان مَذارة
إذ أن الجزاء من جنس العمل، وربك يمهّل ولا يهمل، وهذه سنة الله في
الكون.

وفي قصيدة "ضلال وخبال"^(١) للشاعر العظم التي كانت زفرة حسرة وأسى،
وكان قد كتب بعض أبياتها عند قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه
عند جبل أحد بالمدينة المنورة ثم تتابعت البقية بعد ذلك حتى كانت هذه الزفرات
الغاضبة الحزينة^(٢) يقول الشاعر:

كسرنا قوس حمزة عن جهالة	وحططنا بلا وعي نباله
فمزقنا العدو ولا جهاد	وشردنا الطغاة ولا عدالة
وباتت أمة الإسلام حيرى	وبات رعاتها في شر حالة
وأقصانا يدنسه يهود	ويعبث في مراحله حثالة
نشد رحالنا شرقاً وغرباً	وأولى أن نشد له رحاله
وراعي الشعب سجان غشوم	وسفاح يسن له نصاله
ويرتع في مراعنا دخیل	يطارد في حضارته الأصالة
مضغنا قلب حمزة وانتشينا	ندوق المر أو نجني وباله
مؤامرة يدبرها يهود	ويرعاها عميل لا أباله

(١) ديوان في رحاب الأقصى .

(٢) من مقدمة الشاعر على القصيدة.

وكذلك من قصيدة "أمس واليوم"^(١) لنفس الشاعر والتي يقارن فيها بين ماضي المسلمين المشرق بالنور والإيمان، وبين حاضرهم المعتم التعيس الذي استبيحت فيه الديار وساد فيه الذل والعار، حيث نظم هذه القصيدة عندما سرى إلى أذنيه أذان المسجد الأقصى عبر الأثير فحرك وجدانه وكانت هذه القصيدة من وحي الأذان ... يقول:

كان لحن الحياة فينا أذاناً	يتغنى به الأباة الصيـد
يمألون الوجود برأ ونوراً	حين يصحو إلى الأذان الوجود
وإذا اللحن صيحة من رقيع	وإذا الثرى في المعامع عود
فغدت أمتي مع اللحن سكرى	يرسل "اللحن" فاجر عريـد
كان أمس الأباة مشرق فجر	وإذا اليوم في حمانا اليهود
فأذل العدو منا جهاهاً	وتلاشى من راحتينا الحديد
واستبيحت ديارنا لعدو	وسلاح الحكام فينا وعود

وسوف يطول بنا المقام إذا ما رحنا نستعرض قصائد الشاعر الإسلامي الملتزم الأستاذ يوسف العظم، الذي وقف قلمه وحياته في سبيل الدفاع عن قضايا الأمة الإسلامية، والتصدي لمن يحاول النيل منها أو تشويه حقائقها، ولكن يكفي هذا القدر المعبر من الأبيات الجريئة التي تطفح بالصدق وقوة العاطفة، ويكفي أنها صادرة من شاعر ملتزم بمبادئ الإسلام وتعاليمه في حياته وسلوكه وأدبه.

وفي قصيدة بالغة الحزن شديدة التأثير، وكأنها جاءت اسم على مسمى، وهي قصيدة "أشجان الإسلام"^(٢) للشاعر صالح عبد الله الجيتاوي^(٣) والتي نظمها سنة ١٩٨٢م واستعرض فيها أشجان الإسلام ومآسي المسلمين، ورثى فيها دولة الإسلام

(١) في رحاب الأقصى ص ١٨٩.

(٢) ديوان صدى الصحراء / صالح عبد الله الجيتاوي.

(٣) شاعر اردني معاصر

التي سقطت وانطمست آثارها، وتقسمت ديارها، وتعددت أقطارها، فسادها الضعف، واعتراها الهوان وعمها الظلم وشاع فيها الفساد، فتكالبت عليها الأمم، وتسلط على مقدراتها الأعداء، ورموها بأبشع وسائل النهب والقهر والاستعمار ... يقول الشاعر:

طغت على القلب آلام وأحزان
أركانها وانبرت للكفر أركان
خلال قهقهة الأعداء تبيان
رأياته ويريد الغيب غربان
سجن به من صنوف القهر ألوان
في الشرق والغرب مرفوع لها شان
خلف السراب .. ولم يبتل ظمآن
أدراك ما دبروا فينا وما زانوا
لبوس عرقية والكفر ألوان
فكل قطر له فاك وربان
كتائه أفقه بيده وكتبان
تجيبها بعويل الشك تطوان
لإخوة لرضى الأبقار ما دانوا
في وصف أهوال ما يلقاه (أفغان)
من (الأحابيش) بتار وطعان
يزجي لها الأهل (شارون) (وديان)
تمضي هباء فما في القوم من كانوا
مجازراً مالها قاض وميزان
يكسو وجوههم بؤس وحرمان
والدء يقتلهم .. والرد إذعان

لا تسأل العين فيما اندمع هتان
انظر إلى دولة الإسلام قد طمست
أنصت .. فكم أنه للقدس ليس لها
دهر طوى الأرض فيه النجس وانكست
الحكم جور .. وحس القوم شيبه
الموبقات دساتير محكمته
يا أمتي طال تغريب نكابه
أعدوانا قد رمونا بالشتات وما
قد رسخوه بدعوى الكفر يسترها
كفر قبلناه .. فانحلت أواصرنا
والكل يضرب عشواء ولا أمل
من (الفايين) تكوي القلب نائحة
في كل يوم بأرض الهند مجزرة
حدثت ولا حرج مما تحدثه
وذبح (أسمرة) لهو يمارسه
وفي (فلسطين) .. أهوال وملحمة
(والقدس) ترسل أناة مقطعة
في كل شبر بأرض المسلمين ترى
وحالهم مثل أيتام بمؤدبة
الجهل يقعدهم .. والفقر يسحقهم

وبعد هذه الجولة المأساوية التي استعرض فيها الشاعر أحوال المسلمين المؤلمة ورسم أشجانهم البائسة التي يكاد أن ينفطر لها قلب الإنسان السوي، فكيف بالمسلم الغيور، بعد ذلك يلتفت الشاعر، فيخاطب أمته وبأسلوب استفهامي مباشر باحثاً ومتطلعاً إلى اللحظة التي تتخلص فيها من الأسى القاتل والذل القامع الذي ترزح تحته وتقاسي مرارته والذي لا يكون إلى بترك الباطل ومجانبة أهله، والعودة إلى دين الله السليم ومنهجه القويم، متخذة العبرة من تاريخنا العتيق وماضيينا المجيد دليلاً ومرشداً إلى حاضرنا ومستقبلنا، يقول:

يا أمتي .. هل لهذا الليل آخرة وهل لهذا الأسى والذل فرقان؟
عودي إلي الله عوداً مخلصاً ودعي موارد الكفر إن الكفر خسران
ومحصي الدرس من تاريخنا تجدي (العز ما كان إلا كان إيمان)

والباحث المتأمل في البيت الأخير، وباستقراء تاريخنا الإسلامي وسبر أغواره يستطيع أن يؤكد أن أمتنا الإسلامية لم يقو على اقتحامها عدو أو النيل منها والسيطرة عليها أحد ما كانت متسلحة بسلاح الإيمان والوحدة، وأنه لم ينفذ عليها أعداؤها إلا عندما تخلت عن هذه الأسلحة وجرت في ساحات الإلحاد والتمزق والشقاق، وقياساً على ذلك فلن تسترد هذه الأمة هويتها إلا بالعودة إلى ساح إيمانها وقلعة وحدتها وإنا لمنتظرون.

وهذه نغمة إسلامية جديدة للشاعر محمد مصطفى حمام^(١) الذي نظم قصيدة بعنوان "يا رب"^(٢) يتوجه بها إلى الله سبحانه وتعالى شاكياً أحوال المسلمين وما انتابهم من المحن والمصائب، وما اعتراهم من دواعي التفرقة والانقسام، حتى تكالبت عليهم الأمم وكثر الأعداء فسيطروا على مقدراتهم وتحكموا في أموالهم وأحوالهم .. يقول الشاعر:

(١) شاعر مصري معاصر.

(٢) ديوان حمام.

يا من يجيب التائبين دعاك من صدق المتاب فهل يجاب سؤاله
المسلمون ودينهم في محنة لم يخف حالهم عليك وحاله
وأراهم متفرقين كأنهم جسم سوي مزقت أوصاله
وأراهم قد مكنوا لعدوهم فتملكت أعناقهم أغلاله
صال العدو عليهم متجبراً واشتد فيهم بطشه ونكاله

وكما ترى فإن الشاعر هنا وهو يتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى لم يقصر الدعاء على نفسه وهمومه الشخصية، بل تعدى ذلك إلى جماعة المسلمين وهمومهم وما طرأ عليهم من سوء المآل وتبدل الأحوال، ونراه في خاتمة القصيدة يكرر التوجه بالدعاء إلى المولى عز وجل، بأن يلزم المسلمين الهدى وطريق الصواب ويمنّ عليهم بالخلاص والنجاة من كل المآسي والمصائب التي تعترض سبيلهم، حيث يقول:

يا رب ألزمتنا صراطك تنصرف عنا مآسي يومنا ووباله

وأعتقد أن الشاعر وهو يتوجه بالدعاء إلى الله العلي القدير في أن ينقذ هذه الأمة مما هي فيه من سوء الأحوال، وقلة الشأن إنما كان قد قطع الأمل وفقد الرجاء في قدرتها علي الوحدة والانتصار على النفس والخروج من المزالق والعقبات التي تمر بها؛ لهذا نراه يرفع يديه إلى السماء ويستعين بالله العلي القدير في أن يهدي هذا الأمة ويقبلها من عثرتها، ويلم شعثها ويوحد كلمتها وصفوفها.

ويسطر الشاعر الشيخ محمد المجذوب^(١) قصيدة مؤثرة سنة ١٤٠٢ هـ حول هذا الموضوع الذي يجسد آثار سقوط الخلافة الإسلامية، بعنوان "جراح الإسلام"^(٢) ومطلعها:

قد أبت مقلتي إلا جموداً فأنقصا من ملامتي أو فزيداً

(١) محمد المجذوب : شاعر سعودي معاصر - عمل مدرساً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(٢) ديوان آلام وأحلام ص ١٠٠.

صور فيها من واقع المشاهدة ما تقاسيه هذه الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها من ويلات ونكبات وجراحات تلهب المشاعر وتوجع النفس وتدمي القلب، وبرغم ذلك تأبى العين إلا جموداً، فيتصدى لها بقلمه وبيانه، وهو الشاعر الذي نذر حياته يدافع عن المسلمين وينافح عن قضاياهم، يقول:

تركنا القدس تستغيث وبيرو	ت تنهاوى ليس العقوق الوحيداً ^(١)
(فبتـايـلاند) (والفلبين) آلا	ف المآسي لمن أراد شهودا
وبتركية الشقيقة ما ينفك	جرح الإسلام ثراً جديدا
وضحايا الإلحاد في (مقديشو) هز	ت بأحداثها الجسام الوجودا
وبصحراء مغرب العرب اليو	م أعاجيب قد تشيب الوليدا
محن تضحك الغوي وتستبكي	بأبعادها الحليم الرشيدا
لو مضينا في سردها عجز العقل	ولم يستطع لها تحديدا

وكيف يتم تحديد مآسي المسلمين وحصرها وقد أصبحوا مطية لمن هب ودب، يرتع في خيراتهم، وينهب ثرواتهم، ويتسلط عليهم، بينما حكامهم مشغولون بالخلافات والمناوشات الشخصية التي تزيدهم تمزيقاً وشتاتاً رغم تمزقهم وشتاتهم، وهم وحدهم الذين يتحملون مسؤولية هذا التمزق والهوان فيقول:

شغلوا بالخلاف والخصم يقظا	ن لتمزيقهم يعد الحشودا
هل دروا أن كل غزو على الإسلام	م منهم قد استمد الوقودا

بيد أن الشاعر وهو المعاش لقضايا أمته والمعاصر لأحداثها، يعتبر أن الضربة القاضية والمصيبة الكبرى التي أصابت الإسلام وأثرت في وحدته وكيانه هي تلك الطعنة الخائنة التي رمى بها (الدونمي) ربيب الغرب ويهود الدونمة: مصطفى كمال في قلب الأمة الإسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية، التي أطاحت

(١) تنهاوى : تسقط.

بهذه الخلافة، فانفرط عقدُها، وانشعبت حبال الود والصلوات الطيبة فيما بينها
وفتحت صفحة جديدة في دنيا الصراع والمناوشات ... فيقول:

طعنة (الدونمي) في قلبها البري إلى الآن لم تجدد تضييـداً
حطمت دولة الخلافة فأُنبت إخاءً كان الرباط السعيدا
فغدونا من يومها في صراع ليس يألو في عقدنا تبديداً

وهكذا تتضح أهمية الحفاظ على وحدة المسلمين، وعدم السماح للمارقين
والعابثين في فصم عرى هذه الوحدة والمساس بها؛ لأن أي غلطة من هذا النوع
تجرّ وراءها أخطأً ومشاكل لا عدّ لها ولا حصر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي قصيدة للشاعر الدكتور عدنان علي رضا النحوي^(١) بعنوان "ملحمة
القسطنطينية"^(٢) التي وقف بها على مدينة اسطنبول سنة ١٤٠٦ هـ وأودع فيها
الكثير من الذكريات والانطباعات التي شاهدها في دار الخلافة السابقة، وذكر فيها
أمجاد الخلافة وماضيها المجيد، ثم يخلص أخيراً إلى وصف أحوال المسلمين
البائسة، حيث راعه وأقلق خاطره أن القدس وفلسطين أرض القداست ما زالت تن
تحت نير الاحتلال الصهيوني الغاشم، وأن المسجد الأقصى الشريف ما فتئ كذلك
يقبع تحت الأسر، وساء جداً أن ساحاته قد أصبحت ملعباً للسواح ومسرحاً للعابثين
واللاهين.

يقول الشاعر وهو يوجه الخطاب إلى روايي مدينة استمبول:

تلفتني يا ربي استامبول واذكري داراً وأهلاً وحبلاً شد من عصب
هلا نظرت إلى الأقصى وفتته لكل جار نقى العهد محتسب
ما بالك اليوم حولت الهوى وجرت أطياب ريحك في مستنقع خرب
هذي فلسطين ما زالت مراعها ساحاً لكل دم لله منسرب

(١) عدنان علي رضا النحوي.

(٢) ديوان : ملحمة القسطنطينية.

هنا الجهاد فمن يصدقـه قام له ومد للخلد من درب ومن سبب
يا ويح نفسي والأقصى منازلـه أضحت منازل من لهو ومن لعب

ويلاحظ هنا أن الشاعر وهو يربط بين ذكرياته في مدينة استمبول وما سبق ذلك من سقوط الخلافة العثمانية، ثم ما تبع ذلك من تحول أنظار تركيا جهة الغرب من جهة، وبين احتلال فلسطين من جهة أخرى؛ ليؤكد على أن هذا الحدث يعتبر من أعظم وأخطر آثار ونتائج سقوط الخلافة الإسلامية، تلك الخلافة التي ظلت محتفظة بتراب فلسطين طيلة تاريخها الطويل، ولم تفرط بشبر واحد من أرضها المقدسة، كذلك نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات تطرق إلى ذكر الجهاد، ونوّه على أن الجهاد في سبيل الله، واسترداد فلسطين المحتلة من المغتصبين هو الجهاد الصادق الذي يقود صاحبه إلى جنات الخلود، وذلك مصداقاً لقوله (ﷺ) (إذا احتل شبر من أرض المسلمين كان الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة).

ومن الشعراء الذين ذكروا أسباب سقوط الخلافة الإسلامية في قصائدهم وذلك بصورة غير مباشرة الشاعر محمد مصطفى البلخي^(١) الذي استغل مناسبة "وقفه يوم عرفة" وهو يرى جموع المسلمين يقفون أمامه على صعيد واحد وقد وفدوا من كل حذب وصوب، فلم يجد أنسب من هذه الفرصة ليبثهم عواطفه وحرارة مشاعره؛ وليعبر بلسان الأمة الإسلامية عما يجيش في صدره مما تقاسيه هذه الأمة من أسباب الشتات وعناصر التفرقة؛ نتيجة ما رماها به أعداؤها من وسائل الغدر والخيانة حتى سقطت ((خلافتها الإسلامية وسقطت بسقوطها مدينة القدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك، واغتصبت فلسطين، ومناطق أخرى حول فلسطين، وتخاذل المسلمون وتفرقوا شيعاً متباينة ودولاً متناحرة، وتخلو عن

(١) محمد مصطفى البلخي / شاعر معاصر.

تطبيق شرع الله إلى ممارسة القوانين الوضعية الجائرة والمباديء الفاسدة ... يقول
الشاعر من قصيدة بعنوان "من وحي يوم عرفة"^(١) ومطلعها:

يا واقفين اليوم في عرفات متشوقين لأكرم النفحات
طبتم مقاماً في رحاب طاهر يا إخواني في الله يا أخواني

ثم يدخل في صميم الموضوع الذي قصده ونوهنا عنه آنفاً فيقول:

يا اخوتي في الله في قلبي آسى بلسان أمتنا أبث شكاتي
انا أمة لعب العدا بمصيرها فتمزقت جهلاً إلى أشتات
سقطت خلافتها فضاعت قدسها وتآلت الأيام بالنكبات
قطعوا حبال الدين فيما بيننا وعرى العقيدة أوثق العروات
حتى غدت للكفر طعماً سائغاً يعدو عليها ساقط النزوات

ولكي تكتمل الصورة فإن الشاعر المسلم الملتزم، وكما ذكرنا في أكثر من
وضع في الدراسة، لا يستطيع في مثل هذا الموقف أن يكتفي بعرض المشكلات
والحوادث التي تعترض سبيل المسلمين وحياتهم وظروفهم دون أن يسهم في إسداء
النصيحة لهم، أو المشاركة في إيجاد الحلول التي يراها مناسبة لهم، دون أن
يخرجه ذلك من الدائرة الفنية للشعر، كاعتباره - مثلاً - نوعاً من المواعظ
التقريبية أو النصائح المكرورة، وهذه هي بالضبط وظيفة الشعر الملتزم الهادف
الذي لا يعترف بمقولة الفن من أجل الفن، وهذا ما فعله الشاعر البلخي إذ يقول:

أبناء هذا الدين لموا شملكم وأنا أبشركم بنصر آت
عودوا إلى دين يوحد بيننا فأواصر الإيمان خير صلات
إن اختلاف عروقكم ولغاتكم قد ذاب في يوم على عرفات
هذي الحواجز بين كل بلادنا والله يا إخوان .. صنع عداتي

(١) ديوا قنديل السعادة / محمد مصطفى البلخي.

وباعتقادي ليس أبلغ من هذه النصائح التي صاغها الشاعر في قالب شعري متين السبك، جزل الألفاظ، حافل بالصور البيانية الرفيعة، وصلت إلى المتلقي بكل سهولة ويسر وأثرت فيه بكل وضوح بدون غموض أو التواء، وهذه هي صفة الشعر الممتع والمفيد.

وإزاء هذه الأوضاع المأساوية التي تعيشها أمتنا الإسلامية، يبلغ الأسى مداه والحزن مبلغه عند الشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي^(١) الذي طاف بنا في رحلة شعرية شاملة وحلق في آفاق فنية رحبة مستعرضا فيها أوضاع وجروح أمتنا الإسلامية النازفة التي تقشعر لها الجوارح، ويندى لها الجبين.

ففي قصيدته "لا تسألوا عن أمتي"^(٢) والتي استهلها متعجبا من تماسكه ورباطة جأشه أمام هذه الأوضاع، ثم من تقوقع هذه الأمة وعدم ثورتها على مثل أوضاعها الراهنة حيث يقول:

عجبا لقلبك كيف لا يتفطر	وأسود حزنك في فؤادك تزار
عجبا لعينك كيف لا تبكي دما	والحق يسلب والكرامة تهدر
عجبا لقومك يخفضون رؤوسهم	والذل فوق رؤوسهم يتبختر
عجبا لأمتك التي لا ترعوي	عن غيها وكأنها لا تشعر

بعد ذلك يتحول الشاعر إلى تجسيد جراحات هذه الأمة الراحفة، وإلى رسم صورة حية لمآسيها وهزائمها المتكررة أمام أعدائها الذين فرضوا أنفسهم عليها، فعاثوا فيها فسادا واستولوا على خيراتها، وبثوا سمومهم وأفكارهم الخبيثة، وجربوا عليهم أسلحتهم الحسية والمعنوية، كل هذه المآسي، والأمة قابعة مستسلمة بحيث لا حس ولا حراك ... يقول:

لا تسألوا عن أمتي وجراحها إن البغات بأرضها يستنسر

(١) عبد الرحمن صالح العشماوي / شاعر سعودي معاصر له عدة دواوين شعرية.

(٢) ديوان يا أمة الإسلام.

في أرضها المعطاء يختلج الضحى
يجبى إليها الفكر سما قاتلا
ويجرب الأعداء شر سلاحهم
يتقاسم الأرض الضلال وأهله
وبلادنا هجرت مبادئ دينها
تاهت سفائننا فما خاضت بها
سار الزمان إلى الأمام وأهله
خوفاً، ويختال الظلام ويفخر
فمبادئ تنسى وأخرى تشهر
فيها ويغفل عن حماها المعشر
غرب إياحي وشرق أحمر
وغدت على نخب المبادئ تسكر
بحرا ولا هي في الشواطئ تظهر
وبلادنا بخلافها تتأخر

بعد هذا التصوير الرائع لأوضاع المسلمين ومآسِيهم، يتساءل الشاعر مستغربا ومستهجنا من هؤلاء المسلمين، وهذا التمزق والتقاطع الذي يسود صفوفهم ويقطع أرحامهم، والذي يقابل في الوقت نفسه التهاافت على الغرب والترامي على أقدامه، والاعتراف من أفكاره ومبادئه الفاسدة، وفي ذلك منتهى الاستغراب والاستهجان حيث يقول:

ما بال قومي قطعوا أرحامهم وتقربوا للمعتدين وأصهروا
منحوا يد الإلحاد حبل عقولهم جهلا وفي غرب الضياع تبعثروا

وأمام هذا الوضع المستغرب، يمد الشاعر يده، ويرفع صوته محذرا وموجها أبناء أمتة وإخوانه للالتزام بمبادئ ديننا الإسلامي، والاعتراف من نهر عقيدته ومبادئه الصافية، حيث يطيب المقام ويصفو الونام فيقول:

يا إخوة الإيمان نهر عقيدتي يجري وقد شكت الجفاف الأنهر
نهر روافده تصفق للندى طربا يحيط بها البساط الأخضر
نهر من الإسلام يبدأ نبعه وعلى مرافقه يطيب المنظر

يتضح من هذه الأبيات المليئة بالصور الرائعة والخيال الخصب، أنها تحمل في ثناياها هموماً كبيرة، وأشجانا عظيمة أثقلت كاهل الشاعر الذي حاول فيها أن يلمح أكثر مما يصرح، حيث ما زال في جعبته الكثير من مآسي وجراح هذه الأمة

النازفة، والتي لا يدملها إلا العودة إلى الإسلام، وتطبيق ما جاء في دين الإسلام الذي يحث على الأخوة والوحدة والحياة الحرة الكريمة.

وفي نص يحرك المشاعر ويهز العواطف والوجدان، نظم الشاعر يوسف إبراهيم سنة ١٩٩١م قصيدة بعنوان "الكوكب الآفل"^(١) وقد تضمنت الكثير من المعاني والعواطف الإسلامية المتوهجة التي تستثير الوجدان وتلهب الأحاسيس حيث استهلها برسم صورة زاهية للخلافة الإسلامية الغابرة^(٢) وذلك قبل أن يبكيها بكاء مرا ويرثيها رثاء شديدا^(٣) ثم يبين أسباب سقوط هذه الخلافة وما اعترض ذلك من مقدمات وملابسات^(٤)، وقد ذكرنا ذلك في الفصول السابقة وبعد ذلك يستعرض الشاعر نتائج سقوط الخلافة وأثر ذلك على الأمة الإسلامية جمعاء، وقد عقد عدة مقارنات تبين كيف كان حال المسلمين إبان الخلافة، ثم ما طرأ عليه بعد السقوط، ذكرا أن النور صار ظلاما، والطبيعة الفاتنة الغناء أضحت قفرا ويبابا، والحصون الشامخة بالعز والسؤدد أصبحت سجوناً للشرفاء وقبورا للأحرار، إلى غير ذلك من التحولات والتغييرات التي تفنن الشاعر في توظيفها بمهارة فائقة وعرضها عرضاً فنياً مميزاً حيث يقول:

حتى هوى صرح الخلافة فاستحال الفجر ليلاً واستحال النصر خسراً
ورياض جنات تقيأنا الظلال بها فعاد الظل قفراً
وكنوز أمجاد من التاريخ قد أضحت من الأمجاد صفراً
وهناءة مبسوطة النعماء عاد نعيمها الريان في الأجفان جمرأ
ونمير نبع دافق السلسال عاد شرابه المعسول في الأفواه مرأ
وحصون أمن شادها الإسلام صار الأمن في أكنافها سجنأ وقهرأ

(١) مجلة الوعي / رمضان ١٤١٠ هـ.

(٢) أنظر الفصل الثاني ص.

(٣) أنظر الفصل الأول ص.

(٤) أنظر الفصل الرابع.

بعد ذلك يتحول الشاعر إلى مخاطبة الأمة الإسلامية التي استسلمت للسلبات وأخلدت للدعة الخمول، وغرقت في متهاتات الملاهي والمساخر، حتى فقدت أهم مميزاتها وأعظم مقدراتها ومقوماتها، والتي استطاعت بها أن تقود الدنيا عدة قرون فيقول:

يا أمة نامت على ذل مخدرة وطال بها الرقود
واستسلمت للقيد خانعة، وما ثارت على ذل القيود
تستعذب الأحلام لاهية فيغرقها صريخ اللهو في ليل مديد
وتسير واهية الخطا والأرض تحت مسيرها المكدود مائجة تميد
وتظن أن العيش جنات تزخرف وهي تدفن في اللحد
وسلاحها فقد المضاء ولم يعد في ساحة الميدان ذا بأس شديد
والمبدأ الأعلى يكاد الكفر أن يغتال سؤدده المجيد
وكتابها كانت كتائبه بأي الذكر تجتاز الحواجز والسدود
بمحجة بيضاء ساطعة الهدى كالنور تكتسح الضلالة والجحود
أضحت معطلة وقد عصف الظلام بنورها الهادي ومنهجها الرشيد

بكل هذا التبكيت وهذا الزجر ينعت الشاعر هذه الأمة التي أصبحت مخدرة الإحساس، فاقدة الشعور، تستعذب العذاب وتستمرئ القيود، وتذعن للسلب والنهب، قد فقدت مصداقيتها، وأضاعته مضاءها وفاعليتها، فخسرت في ذلك كل شيء يصلها بماضيها المشرق العزيز، وقد أجاد الشاعر في اختيار الألفاظ الموحية بأسلوب جزل فصيح ومعان واضحة تدخل القلب بدون استئذان.

الفصل السادس

الحنين إلى إحياء الخلافة والدعوة

إلى الوحدة الإسلامية

الحنين إلى إحياء الخلافة والدعوة إلى الوحدة الإسلامية

ذكرنا في الفصول السابقة من هذا الباب شعر الأصدقاء الذي رثيت به الخلافة الإسلامية بعد سقوطها، والمشاعر الفياضة والعواطف الجياشة التي سجلها الشعراء حيالها، وخاصة عندما وقفوا على مدائنها ومواقعها وآثارها، ثم ما رسموه لها من صور زاهية ومواقف بطولية خالدة أيام عزها ومجدها، وما وصل إليه حال المسلمين من السوء والهوان.

والحقيقة أن الناظر في مضمون ما قاله هؤلاء الشعراء، سوف يجد ضالته ويروى نهمته من ذلك الشعر الذي وصف الحقيقة المؤلمة والواقع المرير الذي أصاب هذه الأمة عندما سقطت خلافتها، وتحالفت عليها قوى الإستعمار، وتضافرت ضدها عناصر الشر، وأمأطت اللثام عن وجهها القبيح ونواياها السيئة، وصبت على دولة الخلافة والدول الممتخضة عنها من أنواع البلاء وأصناف العذاب ما يفوق الوصف ويقصر عن ذكره اللسان.

هذا بالإضافة إلى أنهم وقفوا حجر عثرة في سبيل وحدتها وتقدمها، وزرعوا من أسافين التفرقة وبثوا من أسباب الخلاف ما وقف سدا منيعا في وجه أي وحدة شاملة لهذه الأمة حتى الآن، وحال دون إحياء وإقامة الخلافة الإسلامية التي يتطلع إليها جميع المسلمين، تلك الخلافة - وكما عرفها المسلمون - التي ظلت السد المنيع والدرع الواقي للأمة الإسلامية أمام مطامع الأعداء التوسعية ومحاولة المساس بوحدتهم أو اختراق صفوفهم.

ذلك أن (وجودها في المسلمين يتضمن لديهم معان سامية كثيرة من أجلها:

أولاً: أن بقاء الخلافة يعني وجود نظام سياسي يجمع شمل المسلمين مهما بلغ واقع حال هذا النظام ووصوله إلى مستوى محزن من الضعف والرمزية بفعل الدسائس الاستعمارية.

ثانياً: أن بقاء الخلافة دليل على استمرار تاريخ المسلمين في ظل شعار سياسي واحد.

ثالثاً: أن بقاء الخلافة يعني بقاء الرباط الذي يبرر للمسلمين الاشتراك والمساهمة في الدفاع الدولي عن حياض المسلمين وصفوفهم، وإقامة ألوان التعاون فيما بينهم.

رابعاً: أن بقاء الخلافة يقضي - في أدنى الحدود الرمزية : بأن لا تقوم بين بلادهم حواجز مصطنعة، وهذا يعني اشتراك الشعوب في ديارهم، وتمتعهم بحريات تنقلهم وتملكهم وتجارتهم وسائر مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فيها)) (١)

من أجل ذلك كله بكى المسلمون الخلافة، وحق لهم أن يبكوها، وقام الشعراء بتصوير هذا الحدث الجلل والتعبير عن ذلك الموقف المثير، مجندين أنفسهم كمنارات هداية، ومسخرين مواهبهم كأصوات إعلامية عالية لتجسيد الموقف، وإلقاء الضوء عليه بكل أمانة واقتدار وواصلت قافلة الشعراء مسيرتها الإعلامية الهادفة، ترسم لأجيال المستقبل طريق الأمل المنشود، وسبيل الوحدة الواجبة، متطلعين ومستشرفين إلى إحياء الخلافة الإسلامية - تلك المنارة المفقودة والفريضة الغائبة - وإظهارها إلى حيز الوجود.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة ص ٣١٥.

وفي هذا الفصل الأخير من الباب الثاني سوف نستعرض بإذن الله تعالى لطائفة من الشعراء الذين شاركوا في الحنين إلى إحياء الخلافة الإسلامية والدعوة إلى وحدة هذه الأمة والتي هي مطلب لجميع المخلصين من أبنائها.

وقد أسهم في الاستشراف لإحياء الوحدة والخلافة الإسلامية هذه شعراء مخلصون من مختلف ديار العرب والمسلمين، وسجلوا صفحات مشرقة في كتاب شعرنا العربي الحديث، كانت هي الزاد الوجداني والغذاء الفكري لأجيال أمتنا العربية والإسلامية المعاصرة؛ لتتير لهم الطريق وتقودهم إلى تسنم ذروة الشرف وقيادة العالم من جديد.

ومما هو جدير بالذكر أن الشعراء العرب المسلمين ظلوا طيلة قرون طويلة في ظلال الخلافة العثمانية، وخاصة إبان عهدها القوي، دون أن نلمح في شعر أحدهم أدنى معارضة للوضع القائم، أو محاولة لشق العصا، أو حتى إبداء الضجر والامتناع منه، وظل الأمر كذلك حتى ظهور عوامل الضعف على الخلافة العثمانية ومن ثم سقوطها واختفاؤها عن مسرح التاريخ، وعندها أظهر عدد منهم حماسهم لإحياء الخلافة الإسلامية، ولكن هذه المرة بحيث تكون قيادة عربية، معللين ذلك بأن الخلافة منذ بدايتها نشأت بين ظهرانيهم وعلى أيديهم، وظلت قرونا طويلة وعهودا مديدة، والخلفاء هم من العرب بل من قريش نفسها، مصداقا لقول الرسول (ﷺ) (الأئمة من قريش).

ولما كانت الخلافة الإسلامية وعلى مدار التاريخ ظلت تخضع في كثير من الأحيان للجنس الأقوى من أجناس المسلمين المختلفة، ويتولى شؤونها من يملك القدرة المادية والمعنوية خاصة عندما قل شأن العرب وضعفت شوكتهم، فإن الناظر إلى أوضاع المسلمين الحالية وقدراتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، سوف يرى أن الجنس العربي اليوم يتميز عن باقي الأجناس الأخرى بهذه المقدرات والمقومات، لا سيما وأن العرب هم مادة الإسلام والفاتحون الأول، وأن الرسول

عليه السلام عربي، ولغة القرآن الكريم عربية، ولهم يد بيضاء في أعناق جميع أبناء المسلمين في كل زمان ومكان؛ وذلك لأن الفاتحين والدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام في أنحاء المعمورة كانوا من العرب، وقد اعترف المؤرخون والعلماء المسلمون بهذا الفضل، ونشروه بين شعوبهم، أما في عصرنا هذا فما زال أيضا الكثير من علماء المسلمين وزعمائهم يعترفون بهذه الريادة العربية للمسلمين وينوّهون بها، وها هو الشيخ العلامة المسلم الهندي أبو الحسن علي الحسيني الندوي^(١) يؤكد على هذه الزعامة والريادة العربية في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وذلك تحت عنوان "رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي" حيث يقول (والعالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي، ويزاحم أوروبا بعد الاستعداد الكامل، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله، ويحول العالم من الشر إلى الخير، ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام)^(٢).

لذلك لا نستغرب، وخاصة بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية العثمانية، وما تبع ذلك من تجزئة وتقسيم للدولة الإسلامية الواحدة، وظهور العديد من الدويلات التي شاع فيها الظلم وعم الفساد، وتعرضت للغزو الأجنبي وتكالبت عليها الدول الاستعمارية، لا نستغرب والحالة هذه إذا هب الشعراء العرب للتدييد بهذه الأوضاع، والمطالبة بالوحدة العربية المنضوية تحت الوحدة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية.

وهنا لا بد لنا في هذا المقام من أن نفرق بين فئتين من الشعراء، فئة تتادي بالوحدة العربية المجردة، أو القومية العربية، وتبحث عليها، وهذه الفئة لا تعنينا في

(١) الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: رئيس رابطة الأدب الإسلامي الحديث.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / السيد أبو الحسن الندوي ص ٢٩٤.

هذه الدراسة، لأن موضوع البحث متخصص في الخلافة والوحدة الإسلامية. أما الفئة الأخرى فهي فئة الشعراء العرب الذين ينادون بالوحدة الإسلامية أو بالوحدة العربية ولكن من خلال الوحدة الإسلامية التي هي المنبع الأساسي الذي يجب أن يتطلع إليه المسلمون.

وسوف يكون لنا مع هذه الفئة وقفات مراعين قدر الإمكان التسلسل التاريخي لنشوء هذه القصائد والغرض المتوخى منها ...

ولقد كان من أبرز هؤلاء الشعراء الذين نادوا بالوحدة العربية من خلال الوحدة الإسلامية، الشاعر أبو الفضل الوليد^(١) (إلياس عبد الله طعمه) الذي نظم عددا من القصائد والمقطوعات الشعرية طالب بها العرب المسلمين أن يتصدروا لمنصب الخلافة، وتوحيد هذه الأمة، وجمع شملها، وتعزيز موقفها صفا واحدا في وجه الأعاجم والمستعمرين الطامعين بها، وعدم السماح لهم بالتغلغل في بلادهم، وما يترتب على ذلك من نهب للثروات وزعزعة وتشويه للأفكار والمعتقدات، أولى هذه القصائد قصيدة بعنوان "الرؤيا النبوية"^(٢) ومطلعها:

طربت لرؤيا أشرق فاضمحت وقلبي لها طور عليه تجلت

وفيها يهيب بأبناء الأمة العربية كما ذكرنا آنفا لتوحيد الصفوف وصيانة وقار الدولة الهاشمية التي أسسها الرسول العربي الهاشمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ثم سار على نهجها الخلفاء الراشدون من بعده.

واليوم وبعد أن سقطت الخلافة العثمانية وأصبح المجال مفتوحا يدعو الشاعر العرب إلى التشرف بهذا المنصب الجليل، والتصدي لقيادة المسلمين، لما حبلم الله به من الأسباب التي تخولهم حق هذه القيادة، خاصة وأن العرب هم مادة الإسلام حيث يقول:

(١) هو الشاعر اللبناني أبو الفضل الوليد (إلياس عبد الله طعمه) الجندي المجهول.

(٢) ديوان أبي الفضل الوليد.

فعودوا إلى عهد الفتوح التي بها	بنيتم على الإسلام أضخم دولة
وما قوة الإسلام إلا بدولة	خلافية بالمسلمين قوية
فقل لجميع المسلمين تجمعوا	وصنوا وقار الدولة الهاشمية
بنت دولة للمسلمين بهامها	وأكبادها ما بين فتح ونصرة
سلالة إسماعيل خير سلالة	فمنها رسول الله خير البرية
لها حق سلطان وحق خلافة	وما نوزعت إلا لنزع وشرة
فلا تقتضوا عهد النبي وعهدا	وكونوا أمام الله أهل المبرة
يجود عليكم بالعروبة منة	رأها على الإسلام أكبر منة
هي الشرف الأعلى لكم تتشوفوا	بأظهر آيات وأظهر سنة

ولا يقتصر الشاعر على الدعوة إلى توحيد الصفوف وجمع القوى، بل يدعو أيضا إلى توحيد النطق باللغة العربية من قبل جميع المسلمين، التي هي لغة القوآن الكريم، ويفترض أن تكون اللغة العامة للمسلمين جميعا، حيث أن الإسلام عقيدة وعبادة وسلوك، واللغة إنما هي تعبير عن هذه المعاني، فهي وسيلة لا غاية، يقول الإمام الشافعي : (إن الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له) ويقول فقهاء الحنفية: (للعربية فضل على سائر الألسن وهو لسان أهل الجنة من تعلمها غيره فهو مأجور) وإن الإنسان كلما ازداد معرفة باللغة العربية كان أقدر على فهم الإسلام، ولذلك خطبت بها الأمم كما قلل الشافعي رحمه الله تعالى. ولا يعني كون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للأمة الإسلامية إفناء بقية اللغات بل المسألة هكذا: لا بد للأمة الإسلامية من لغة مشتركة تتفاهم بها، وليس معقولا أن تكون هذه اللغة غير العربية، وهي لغة عبادتهم، وتكون إذن في هذه الحالة لغة الإنسان الأصلية لغة ثانية له، يدرج بها مع أبناء جنسه، كما يدرج العربي بالعامية، عندما نقول أن العربية هي اللغة الرسمية لا يعني هذا إثارة عصبية، فحاشا، بل المسألة أن تعلم العربية فخر لمن تعلمها، يقول

عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي) (١)

يقول الشاعر:

على العرب إرسال الوفود تتابعها	إلى كل قطر فيه من أهل ملتي
ليستطلعوا أحوالهم ويشبّثوا	لساني وديني بعد ضعف وعجمة
فيشرف كل المسلمين تعربا	كما شرفوا بالشرعة الأحمدية
فلا مؤمن إلا الذي هو معرب	وهذا كتاب الله بالعربية
لقد حان أن يستعربوا ويعربوا	بنبيهم وأهلهم لإتمام وحدة
فتوحيدهم للنطق والملك واجب	كتوحيدهم لله أو للخلافة
فلا لغة للمسلمين سوى التي	بها نزل القرآن للأفضلية
ولا راية إلا التي طلعت لهم	مبشرة بالعنق بعد العبودية
بها أشرقت بطحاء مكة حرة	وقد ظلت أرضي وقومي وعترتي
هي الراية العرباء تخفق للهدى	وللمجد فوق الحصن أو في الكتيبة

وبعد هذه الدعوة الصريحة من الشاعر لتعميم اللغة العربية في جميع بلاد المسلمين، وحثهم على النطق بها في كل استعمالاتهم الحياتية لأنها لغة القرآن الكريم، والتي عبر عنها الشاعر بعاطفة جياشة صادقة وأسلوب سهل قوي، وحماس بالغ، يختتم الشاعر قصيدته بتوجيه نداء إلى أبناء الإسلام في كل مكان يدعوهم إلى الوحدة والقوة والاتفاق لمواجهة الأعداء والانتصار عليهم فيقول:

ألا يا بني الإسلام كونوا عصابة	فلا قوة إلا بحب وألفة
ولا قدرة بعد الشتات على العدى	بغير اتحاد فيه توحيد غاية
أريد لكم ملكا يجمع شملكم	وتوحيد أوطان ونطق وراية

(١) الإسلام / سعيد حوى ط ٢ ص ٣٤١.

وهكذا نلمح من هذه الأبيات حرارة النداء الذي وجهه الشاعر إلى أبناء أمته، وأنه لا سبيل لهم إلى استعادة أمجادهم والحق بركب المدنية والتقدم إلا بلم الشمل ووحدته القوى واللغة والغايات والأهداف.

وفي قصيدة "المكية"^(١) يضرب الشاعر أبو الفضل الوليد أيضا على نفس الوتر، حيث يدعو إلى إقامة الدولة العربية، وإجراء الوحدة الإسلامية، وأن يشد المسلمون بعضهم أزر بعض ويكونوا كالبنيان المرصوص، متخذين من الدين الواحد واللسان الواحد جوهر التمسك بهذه الوحدة .. فيقول منها:

الدولة العربية الكبرى بكم	ولكم تعود على الفجاج الأكر
توحيدكم لله منه وحدة	لجموعكم فخذوا برأي مدبر
وتجمعوا أمما وصيروا أمة	فالملك أعظم بالعديد الأكثر
كونوا كبنيان يشدد بعضه	بعضا فيأمن كل ريح صرصر
لا شيء يفصلكم وهذا دينكم	ولسانكم فتمسكوا بالجوهر

أما في قصيدة "البغدادية"^(٢) فيسير فيها الشاعر "أبو الفضل الوليد" أيضا على نفس المنهج، وفيها يحث العرب على إقامة دولة قوية الأساس مهيبة الجانب، ويحذرهم من شر الدخلاء والأعاجم وخطورة تحكمهم في مصالحهم وأمورهم فيقول:

يا أيها العرب الأحامس حاذروا	شر الدخيل فدأبه الإفساد
وتجردوا للمكرمات وجردوا	دون الحدود البيض وهي حداد
لا خير فيكم والأعاجم بينكم	يتحكمون فتحكم الأحقاد
شدوا وشيدوا دولة عربية	يرجى لها بعد الفناء معاد

(١) ديوان أبي الفضل الوليد.

(٢) ديوان أبي الفضل الوليد.

وأخيرا ومن قصيدته "الجهادية"^(١) التي رثى في بدايتها الخلافة الإسلامية^(٢)
يخلص الشاعر في خاتمتها فيوجه النداء إلى أبناء الأمة المسلمين، العاكفين في بيت
الله الحرام وحول الكعبة المشرفة، ويحثهم على إقامة علم الجهاد، وتحرير الأوطان
من الدخلاء والغاصبين، وأن يجمعوا الصفوف متحدّين تحت راية واحدة، لمحاربة
هؤلاء الأعداء، فإما النصر والعيش الحميد، وإما الشهادة وحسن الخاتمة في جنات
الخلود ... قال:

يا عكفا حول الحطيم تحطموا	غيظا وكل في الوغى حطام
هلا بطشتم بطشة كبرى بها	تتحرر الأوطان والأحرام
فالإلى الجهاد إلى الجهاد تصارخ	وعلى الجهاد على الجهاد زحام
صفوا كتائبكم وروضو خيلكم	ونفوسكم فالظافر العزام
وتعاونوا متعارفين برأية	حفت بها الأملاك والأعلام
في ظلها نيل الشهادة والعللا	وأمامها الجنات والإكرام
الحسنيان وقد علمتم نصرة	وشهادة فالؤمن المقدام

ولا ريب أن هذه الواجبات الإسلامية التي أشار إليها الشاعر في ما سبق من
قصائد وأبيات، والمتمثلة في استنهاض همم العرب واستدعائهم لحمل أمانة الوحدة
والخلافة الإسلامية، منفذا الأسباب التي تدعوا لذلك، ثم تركيزه على اللغة العربية
وأهميتها في الوحدة الإسلامية، إذ يحض جميع شعوب المسلمين إلى تعلمها
وإتقانها، ليتسنى لهم بذلك فهم القرآن الكريم - دستور المسلمين - وفهم أحكام
الإسلام من خلاله حتى أنه لا يعتبر من لا يتقنها: مؤمنا مكتمل الإيمان وذلك بقوله:

فلا مؤمن إلا الذي هو معرب وهذا كتاب الله بالعربية

(١) ديوان أبي الفضل الوليد.

(٢) أنظر الفصل الأول.

وهذا لعمرى واجب عربي إسلامي شريف يجب الاهتمام به وإعطائه حقه من الممارسة والتطبيق.

كذلك أشار الشاعر إلى أهمية وضرورة إعلان الجهاد المقدس ضد الدخلاء والمفسدين في ديار الإسلام، والالتفاف حول راية واحدة تتمثل فيها وحدتهم الروحية والمعنوية إلى جانب وحدتهم الحسية الشاملة.

وهكذا عبر الشاعر أبو الفضل الوليد عن مشاعره وأحاسيسه الإسلامية تعبيراً وجدانياً صادقاً، بشعر يفيض بالحماس الحار لكل ما يهم الإسلام والمسلمين، ونستشعر فيه كل معاني الشعر الإسلامي الهادف والأصيل.

واستمر الشعراء ينسجون على منوال القيادة العربية، ويشاركون مشاركة مبكرة في هذا الموضوع، وقد سرت في شعرهم روح جديدة تطفح بالحماس الشديد والشوق البالغ، منطلقة لعودة الخلافة الإسلامية إلى حظيرة أبناء الأمة العربية، وإنباطها بزعيم عربي جدير بحمل هذا المنصب، خاصة وفي مثل هذه الظروف التي استفحل فيها أمر الحركات الكمالية والاتحادية في تركيا، التي أحييت فكرة القومية التركية وتعصبت للجنس التركي، وتكررت لغيره من أجناس الدولة العثمانية ومنهم العرب، الذين ذاقوا الأمرين، وتعرض أحرارهم ومفكرهم للقتل والاعتقال من قبل المتعصبين الأتراك، الأمر الذي دعا بالبقية الباقية من هؤلاء الأحرار لعقد آمالهم على شريف مكة الحسين بي على رحمه الله.

- نظراً لما كان يتمتع به من منزلة قيادية ودينية واجتماعية، وأملوا فيه تخلص العرب وبقية المستضعفين في أمم الإسلام، وإنقاذهم من سوء الحال التي وصل إليها أبناءهم الغارقين في معميات الجهل، والعالقين بين برائتين الفقر والمرض، ووسط أجواء من الإهمال والتعتيم، ولما كان الشريف الحسين قد نذر نفسه لمثل هذا الدور منذ فجر شرارة الثورة العربية الكبرى، ويعتبر رائد العرب إلى الحرية والتحرر من ربقة الكماليين الأتراك، فقد لقي

من المضايقات والمكائد والمؤامرات الشيء الكثير، ورغم ذلك فقد "صمد الحسين في الحجاز ولم يقبل بأي تهديد، ومحاولات ليّ الذراع لم تقُد، وفي ١٨/١/١٩٢٣ استدعاه عبد الله إلى زيارة عمان، وفي الشونة حيث مشى الأمير عبد الله توافدت إليه الوفود من مجمل الأقطار العربية والإسلامية، وتمت مبايعة الشريف حسين بالخلافة، ووقف الشريف حسن المنتخب خليفة للمسلمين خطيباً في الوفود حيث قال "لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد، لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب أقول لأهلها العرب، لا أقبل بالتجزئة ولا أقبل بالانتداب ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب، وإذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فإني أرفض المعاهدة كلها، أقول المعاهدة كلها ولا أوقع المعاهدة قبل أخذ رأي الأمة"^(١).

على أثر ذلك هب الشعراء يشيدون بدور الشريف الحسين بن علي في الاضطلاع بحمل الخلافة العربية الإسلامية، ودوره المنتظر، فنظم الشاعر / الشيخ سعيد الكرمي قصيدة حول هذا الموضوع بعنوان "بشرى الخلافة"^(٢).

حيث استبشر فيها بعودة الخلافة إلى أهلها الأشراف الهاشميين القرشيين، بعد أن تداولها العديد من شعوب الأمة الإسلامية وأجناسها المختلفة، وقد نوه فيها بفضل الشريف حسين وعظيم أفعاله تجاه العرب والمسلمين، حيث يقول:-

بُشْرَى بَعُودِ مَنْصِبِ الْخِلَافَةِ	لَأَهْلِهَا الْغُرَّ ذَوِي الشَّرَافَةِ
مَنْ بَعْدَ أَنْ تَسَرَّيْتَ لِمُورِدٍ	أَجَاغَةَ مَذَاقِهَا قَدْ عَافَهُ
وَجَعَلْتَ مَنْ بَعْدَ عِزِّ شَأْنِهَا	مَهَانَةً فِي مَنْتَهَى السَّخَافَةِ
عَادَ لَهَا رَوْنَقُهَا فَأَصْبَحَتْ	سَلِيمَةً مِنْ شَرِّ كُلِّ آفَةِ

(١) يوسف أبو داهود / الثورة والنفير / قراءة في فكر الشريف الحسين بن علي ص ٢١٤.

(٢) الشيخ سعيد الكرمي شاعر فلسطيني والد الشاعر عبد الكريم الكرمي.

وبالحسين بن علي رفعت
قد هتف الكون به خليفة
وكيف لا وهو سليل المصطفى
أم كيف ننسى فضله وهو الذي
أتحف قومه بمجد باهر
أنقذهم من اعتدا أعدائهم
أعلامها وأرغمت خلافة
وأسمع الله العدا هتافه
ومعدن المجد مع الحصافة
لنجنا قد قرب المسافة
لا عدموا طول المدى إتحافه
للعرب كان معجزاً أسلافه

وامتداداً لهذه الدعوة التي تتادي بالشريف الحسين بن علي خليفة عربياً على المسلمين ... نظم الشاعر محمد كامل شعيب^(١).

قصيدة بعنوان "الخلافة وجلالة الملك الهاشمي"^(٢). وذلك عندما دخل الملك حسين عمان عام ١٩٢٤م، ونوه باسمه خليفة على المسلمين في الحجاز وعمان وفلسطين

والعراق وسورية والهند، ومعظم الأقطار الشرقية تنوياً بالبيعة"^(٣). وقال فيها:

إليه انتهى أمر الخلافة إذ غدا
ويا منقذ العرب الذي حاز فضله
إليك ملوك العرب مني بيعة
لأعبائها في يعرب خير حامل
مقاماً لعمري باذخاً لم يطاول
مباركة عن أهل صيدا وعامل^(٤).

بكل هذا الوضوح، وبهذه الدعوة الصريحة، صاغ هؤلاء الشعراء قصائدهم متطلعين إلى زعيم عربي إلى الخلافة الإسلامية.

(١) دكتور / وليم الخازن: الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البيعة: مبايعة المسلمين.

(٤) صيدا وعامل مدينتا في جنوب لبنان.

ومن الشخصيات العربية التي تطلعت إليها الأنظار لجمع شمل الأمة العربية والإسلامية، وأن يكون إماما وخليفة للمسلمين:

الملك عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود - رحمه الله - (١٢٨٠ - ١٣٧٣) ملك المملكة العربية السعودية (١٣١٩-١٣٧٣) الذي (نادى بالوحدة الإسلامية وحض المسلمين على التآزر والتناصر وتوحيد الصف، فدعا إلى عقد أول مؤتمر إسلامي بمكة المكرمة في العشرين من ذي القعدة سنة ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م وأرسل برقية في الثاني عشر من شهر رمضان عام ١٣٣٤هـ - ١٩٢٥م لعدد من زعماء المسلمين يدعوهم لحضور هذا المؤتمر ولقد استجاب المسلمون لندائه وتقاطرت وفودهم على مكة المكرمة، فبلغ عدد أعضائهم سبعين عضوا من مختلف الأقطار الإسلامية) (١).

وقد ألقى عليهم خطابا جاء منه (٢) "إن المسلمين قد أهلكهم التفرق في المذاهب والمشارب فائتمروا في التآليف بينهم والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة بينهم،

﴿وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

وقد استبشر الشعراء بهذا المؤتمر خيرا، فنظم الشيخ محمد بهجة البيطار (٣) قصيدة بهذه المناسبة مدح فيها الملك عبد العزيز الذي جدد بنيان الإسلام ، وقام بحراسة الدين وأحيا سنة الشورى بهذا المؤتمر (٤) فقال:

عبد العزيز رعاك الله من ملك قد جدد اليوم للإسلام بنيانا
في كل قطر بدين الله تحرسه تملي علينا من الأعمال برهانا

(١) د / عبد العزيز بن عبد الرحمن بن / الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث ص ١٩٣.

(٢) نفس المرجع

(٣) عضو المجمع العلمي بدمشق. والعضو بالمؤتمر الإسلامي بمكة.

(٤) صحيفة أم القرى العدد ٨٤ - ١٣ محرم سنة ١٣٤٥.

لبتلك طوعا ملوك المسلمين به
 إن الوفود التي جاءتك نائبة
 قد قرروا كل أمر نافع ولقد
 يا جامع الشمل منا بعد تفرقة
 رددت أقطار بيت الله آمنة
 تلك المزايا التي امتاز الإمام بها
 وأذعنوا لقبول الحق إذعانا
 عن الشعوب ولاقت منك إحسانا
 تعاهدوا أن يعودوا اليوم إخوانا
 وناشرا سنة فينا وقرآنا
 من المخاوف لا تحتاج عدوانا
 قد أكسبته على الإقبال رجحانا

وهكذا يتضح ما في هذه الأبيات من العاطفة القوية والحنين الحار اللتين عبر بهما الشاعر عن فرحة المسلمين بدعوة الملك عبد العزيز بقيادة البلاد الإسلامية للبحث في وحدة المسلمين وتضامنهم، وتطبيق شريعة الله وسنة رسوله (ﷺ) وكل ما يهم الإسلام والمسلمين.

كما لا يخفى ما في الأبيات من عاطفة صادقة تجاه الملك عبد العزيز وتجسيد للصفات الجميلة التي اتصف بها والتي تحمل في مضمونها معاني إسلامية جليلا مثل جامع الشمل، ناشر السنة، مطبق الشريعة، باعث الأمن ... إلخ وكلها اصطلاحات وتعابير جذابة ومثل عليا يحتاجها المسلمون في كل زمان ومكان.

ويطول بنا المقام لو رحنا نستعرض القصائد التي تتادي بالملك عبد العزيز إماما للمسلمين. ولكن سنكتفي بالمثل التالي تدليلا على مثل هذا المقام.

فقد "حض الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف آل مبارك المسلمين جميعا من عرب وعجم على أن يعقدوا للملك عبد العزيز لواءهم ويجعلوه خليفتهم ويوحدوا صفوفهم تحت لوائه فقال من قصيدة له^(١)

يا ليت عرب المسلمين وعجمهم
 عقدوا عليه عقدة الإجماع
 واستخلفوه فهو خير خليفة
 في نصره الدين المطهر ساع

(١) د / عبد العزيز الثنيان - مرجع سابق.

لا شك أن الجهود العظيمة التي أنجزها الملك عبد العزيز آل سعود - رحمه الله - من توحيده لمعظم أنحاء شبه الجزيرة العربية التي كان يتزعمها العديد من الوحدات الإقليمية المتنافرة التي يغزو بعضها البعض، ثم ما قام به من تطبيق للشرعية الإسلامية في البلاد، وما نجم عن ذلك من شيوع الأمن والاستقرار في ربوعها، جعل أنظار العديد من أبناء المسلمين في جميع أقطارهم تتطلع إليه وتستبشر فيه الخير لجمع شتات هذه الأمة التي سقطت خلافتها، سيما وأنهم لا يزالون حديثي عهد بالخلافة والوحدة الإسلامية، فانبئى الشعراء يضربون على هذا الوتر وينادون به إماما لهذه الأمة.

ولا شك أيضا أن هذه الدعوات المتكررة من الشعراء - وهم لسان الأمة وقلبها النابض ، وإلحاحهم المتواصل، وتعلقهم بأهداب الشخصيات العربية التي يسطع نجمها، والمناداة بها خليفة وإماما للمسلمين، لهو دليل قاطع على حاجة أمتنا الإسلامية الماسة للوحدة الشاملة، وإنه لن يستقر أمرها ويهدأ بالها إلا بهذه الوحدة أو هذه الخلافة وهي قادمة بحول الله وعونه.

وروح الفكرة الاتحادية لأمتنا، والتطلع إلى راع يقودها ويأخذ بيدها إلى معارج الفلاح، ويعود بالإسلام إلى منابعه الصافية وأيامه الخالدة، ما فتئت ترواد العديد من الشعراء وتشكل علامة بارزة في تصوراتهم وتطلعاتهم.

ومن هذا المنطلق قصيدة للشاعر "محمود غنيم"^(١) بعنوان "وقفة على طلل"^(٢) ومطلعها:

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه

(١) شاعر مصري معاصر.

(٢) ديوان "صرخة في واد".

والذي رثى فيها الخلافة الإسلامية، وأقضى مضجعه الحالة المفجعة التي آلت إليها أمتنا العربية، وأصبحت متفوقة على أهوائها، منقسمة على نفسها، بعد أن كان العالم مسرحها والدنيا تحت سيطرتها^(١).

وهو أيضا في غاية الأسى والحزن من أمر المسلمين الذين تتناوشهم الأحداث وتتنازعهم الأمم لضعفهم وقلة حيلتهم، وما ذلك بسبب اعتناقهم الدين الإسلامي كمل يزعم بعض المغرضين من شواذ أبناء هذه الأمة، وأعدائها الماكرين. ونراه في خاتمة القصيدة يسلط الضوء على دور الإسلام في تاريخ أمتنا، مؤكدا أنه ليس مجرد دين سماوي لا علاقة له بالسياسة فقط، ولكنه دين ودولة وجامعة شاملة تستظل بظلها أمة الإسلام قاطبة، وينعته بأن دستوره القرآن الكريم، ورسوله محمد الأمين (ﷺ)، ورعاياه هم المسلمون وكفى بذلك فخرا...

يقول الشاعر:

إني لأعتبر الإسلام جامعة	للشرق .. لا محض دين سنه الله
أرواحنا تتلاقى فيه خافقة	كالنحل إذ يتلاقى .. في خلاياه
دستوره الوحي والمختار عاهله	والمسلمون وإن شتوا رعاياه

وبعد هذه الظلال الموحية التي ألقاها الشاعر على الدين الإسلامي، يختم قصيدته بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بعد أن رأى هذه الأمة وقد أصبحت مزقا وتشتت أقطارها وتوزعت أهواؤها، وعدت عليها عوادي الدهر، يدعو لها الله سبحانه وتعالى أن يرحمها ويلم شتاتها، وأن يبسر لها راعيا محمود السيرة طاهر السريرة يعيد لها مجدها وهيبتها، ويرجع لهذا الدين روحه وعزته فيقول:

لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعا	فامنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته	يرعى بنيه وعين الله ترعاه

(١) أنظر الفصل الأول.

ولقد أشار الشاعر في قصيدة أخرى^(١) إلى ما فرضه الإسلام على أتباعه من وجوب الوحدة والخضوع لإمام واحد كي تكون لهم القوة والغلبة فقال^(٢) :

المسلمون على شتات ديارهم	فرض الإله خضوعهم لإمام
الله بالجمعات وحد بينهم	وبحج بيت في الحجاز حرام
دين ابن عبد الله دين باسمه	قبض الرشيد على الوري بزملم
هو دولة كبرى وملك شامخ	لا محض تكبير ومحض صيام

ومرة أخرى يؤكد الشاعر على أن الدين الإسلامي إنما هو دين القوة والعزة والكرامة، لا مجرد كونه عبادات وطقوس كسواء من المذاهب والأديان، وإنما هو دين ودولة في نفس الوقت.

وعلى ذكر التطلع إلى حاكم أو راع، والذي يتمثل بالبطل المخلص والقائد الذي يسترجع أمجاد هذه الأمة، ويقودها إلى معارج التقدم والإزدهار، فلطالما طرقة الشعراء، وتعرضوا له في الكثير من قصائدهم، وظل على الدوام المهاجس الذي يشغل بالهم وبال العديد من أبناء هذه الأمة ...

ومن هذا القبيل قصيدة للشاعر : عبد الرحمن حسن حينكه الميداني بعنوان "قصة مأساة أمّتي" والتي ألقى فيها الأضواء الكاشفة على العديد من الجراحات والسلبيات التي تواجه أمتنا، وحدد العقبات والعراقيل التي تقف في طريقها وتعوق مسيرتها، وتحول دون وحدتها وجمع كلمتها، ومن ثم تخلص إلى التطلع إلى قائد يلم شملها ويوحد مسيرتها فيقول:

هل وعينا؟ هل رأينا؟ هل سنصحوا للبلية؟

هل سيأتينا رشيد العقل ذو نفس أبيّة؟

(١) صرخة في واد (ديوان محمود غنيم) ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) د / عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان، الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث.

زانه الإيمان بالله .. وأخلاق زكية

قائد يرجع مجد الأمة الكبرى العلية

بكتاب الله والسنة والأيدي القوية

بجيوش تهزم الباغي ... وتسقيه المنية.

وأخيرا وباستقراء التاريخ والاعتماد على السنن الكونية، وبنظرة المؤمن الثاقبة التي تنتظر بنور الإيمان، وتخرق الحجب والأستار، يجزم الشاعر ويؤكد بأن الفرج قادم والفجر قريب والنصر آت وليس ذلك على الله ببعيد ... يقول:

هل؟ نعم فالصبح آت والبلايا زمنية

نعم فالفجر قادم بإذن الله ولكل زمان دولة ورجال، ودولة الإسلام سائرة على طريق النصر والمجد.

أما الشاعر محمد محمود رضوان^(١) فقد حض المسلمين في قصيدة له^(٢) على الأخذ بأسباب القوة والمنعة واسترجاع ماضي الإسلام المجيد فقال:

يا راية الإسلام بالمجد اخفقي	واسترجعي عهد النبي وجددي
لم تتركوا صفوفكم وجحافل الد	نيا تروح على النضال وتغندي؟
لم تغمدون سيوفكم رأيتم	مجدا يشاد على الحسام المغمد؟

ثم يهيب بهم أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا كلمتهم ويتطلعوا إلى مستقبل مشرق عزيز مستلهم من ماضيهم المجيد فيقول:

المسلمون تفرقوا في دينهم	شيعا فمن لصفوفهم بموحد
لا تركنوا فيما تلون إلى غد	إن الجبان تراه يركن للغد
واستلهموا الفاروق إن عذاته	تنبؤن بهن هام الفرقد

(١) محمد محمود رضوان: شاعر مصري معاصر.

(٢) مجلة الفتح: العدد ٣٤٢ (٢ محرم سنة ١٣٥٢).

في هذه الأبيات النابضة بالحكمة والوهج الإيمانى يلفت الشاعر فيها أنظار إخوانه المسلمين إلى ماضينا المشرق وتاريخنا المجيد الجدير بالفخر والاحتذاء، ويحضهم على استلھام وأخذ الدروس والعظات والعبر منه؛ لتسئم ذروة المجد من جديد، واستعادة عزتنا وكرامتنا.

ومن الشعراء الذين تغنوا بالوحدة الإسلامية ولهجوا بذكرها في الكثير من قصائدهم، ونادوا بإقامة دولة إسلامية، واستنهضوا هم المسلمين لجمع شملهم وتوحيد كلمتهم، الشاعر "إبراهيم أحمد عبد الفتاح"^(١) فنراه في قصيدة "الرأية الإسلامية"^(٢) التي نظمها عام ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م يتطلع بشوق وترقب إلى اليوم الذي تتوحد فيه دولة الإسلام في دولة واحدة عزيزة الجانب عظيمة الشأن فيقول:

متى نرى دولة الإسلام شامخة بين الأنام وشمل الشرق مجتمعا

نلاحظ هنا ورود كلمة الشرق في بيت الشعر السابق، وسوف نرى ورود هذه الكلمة في الكثير من الأشعار القادمة، ولا شك أنهم يعنون بها مجموعة دول وشعوب الأمتين العربية والإسلامية، وهي نظير كلمة الغرب التي تطلق على الدول الأوروبية والأمريكية بشكل عام.

وفي قصيدة أخرى للشاعر "إبراهيم عبد الفتاح" بعنوان "في ظلال القومية العربية"^(٣) التي نظمها سنة ١٩٥٨م وفيها ينادي الشاعر أبناء الشرق ويدعوهم إلى الأخذ بأسباب الوحدة الكبرى وجمع الشمل، والرجوع إلى كنف الإسلام الذي يمكنهم من استعادة عزتهم وكرامتهم فيقول:

أساس نهوض الشرق دين ووحدة وذلك حق ثابت ليس يدفع
فإن رمت استرجاع سالف مجدكم فللوحدة الكبرى وللدين فارجعوا

(١) شاعر مصري معاصر.

(٢) ديوان الدعوة الإسلامية.

(٣) نفس الديوان.

أما في قصيدة "ذكرى المولد النبوي الشريف"^(١) للشاعر نفسه، فإنه يدعو المسلمين ويناديهم لتطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بما أنزل الله، وما في ذلك من العز والشامخ والنصر المبين ... يقول:

متى نرى عزة الإسلام شامخة والحكم في الناس من شرع وقرآن
متى نرى شريعة الإسلام مالكة زمام حكامنا في كل ميدان

وهكذا يتضح أن الأمتة التي ذكرناها، والأدلة التي سقناها تدل على أن الشاعر يدعو إلى الوحدة الإسلامية الشاملة، وتطبيق شريعة الله العادلة، والحكم بما أنزل الله في كتابه العزيز، وذلك ما يجب أن يقوم به حكام المسلمين إذا أرادوا أن يستعيد المسلمين ماضيهم المجيد وعزهم التليد.

ومن الداعين إلى الوحدة الإسلامية ومنذ وقت مبكر، الشاعر معروف الرصافي^(٢) الذي لمس ورأى الكثير من دعاة الفرقة والانقسام من أعداء امتنا، سواء من خارجها، أو من أبناء جلدتها، يعثيون فساداً في جسمها وحدثها، ويعملون في الظلام لتوسيع شقة الخلاف بين شعوب المسلمين؛ لتحقيق أغراضهم ومآربها الشخصية الهدامة، غير أن الشاعر وهو لا يملك إلا سلاح الكلمة الشريفة التي ينافح بها عن وحدة أمته وإخوانه المسلمين، فينظم قصيدة بعنوان "نحن والحالة العالمية"^(٣) ومطلعها:

صاح إن الخطوب في غليان فبماذا يطرق الملوان^(٤)

وفيها يتصدى لهؤلاء المغرضين من أعداء الأمة، ويفهمهم أن أمتنا الإسلامية قامت وحدثها على أساس راسخ من الإسلام والسنة النبوية المطهرة، وأنها من القوة والتماسك بحيث لن تؤثر طرقاتهم الضعيفة على جدار وحدتها المتين حيث يقول:

(٤٣) نفس الديوان.

(٢) معروف الرصافي: شاعر عراقي.

(٣) ديوان معروف الرصافي.

(٤) الملوان: الليل والنهار.

قل لمن رام ضدغاً بشقاق أنت كالوعل ناطح الصفوان
ويك إن الإسلام أوجد فينا وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بحبل وثيق هو حبل الإخاء والإيمان

ليس معنى توحيدنا الله في الملة إلا اتحادنا في الكيان

فلهذا نعم .. لهذا لهذا نحن فزنا بوحدة الديان
وحدة لا يفلقها المتوالي من صروف الدهر والأزمان
وحدة جاءنا من الله فيها مرسل بالكتاب والفرقان
فهدانا بها إليه قديم واحد عنده القرون ثواني
ما نرى سلطة علينا لخلق غير سلطان خالق الأكوان

نعم فهذه الوحدة التي أوجدها الإسلام فينا، والتي تلح علينا في ممارساتها وتطبيقها كل وقت وحين، خلال توجهنا بالعبادة إلى الله سبحانه وتعالى وفي كافة حقائقها ومظاهرها، والتي هي رائدنا ودليلنا إلى وحدة كياننا الإسلامي الكبير، حيث نستمد قوتنا وسلطاننا من قوة وسلطان الله سبحانه وتعالى، وحاشا للمسلم الحق أن يعترف بغير سلطان المولى جل جلاله، أو أن يتخذ من دونه ولياً ولا نصيراً.

وأنشأ الشاعر محمد محمود الزبيري^(١) قصيدة بعنوان "عالم الإسلام"^(٢) ألقاها في مؤتمر إسلامي حاشد في دولة الباكستان ، يؤكد فيها ويصر على وحدة العالم الإسلامي من جميع جوانبه ووجوهه، وذلك رغم ما يترأى للكثير من الناس أنه مؤلف من العديد من الدول والتقسيمات، الذي يؤكد أنها ستتلاشى مع الأيام وتبقى وحدته وتماسكه حقيقة ماثلة وكيان مستقل رغم أنف الأعداء الحاسدين...

(١) محمد محمود الزبيري: شاعر يماني معاصر.

(٤٨) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ ١ ص ٤٦.

يقول الشاعر في مطلع القصيدة متحدثاً عن العالم الإسلامي:

هذه روحه وهذي جنوده فليحاذر من بشرٍ يريدُه

ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكيد على وحدته، موجهاً الخطاب إلى وفود المسلمين

بقوله:

يا وفود الإسلام تاريحكم ضخم	ولكن هل فيكم من يعيده
ألف عام مرت عليه ألا	يكفيه فيها هجوعه وهموده
أنتم عالم من المغرب الأقصى	إلى الشرق خافقات بنوده
عالم واحد وأن زعمته	ألف شعب تغوره وحدوده
عالم مسلم عنيد فلا	تهنيده ممكن ولا تهويده
سوف يبقى حقيقة تملأ الأرض	ويفني عدوه وحسوده

لقد استطاع الشاعر أن يعبر في هذه القصيدة البديعة عن ثقته واعتداده بوحدة عالمنا الإسلامي الذي تنتظم أقطاره من أقصاه إلى أقصاه، وهي وحدة ثابتة ومؤكدة، وإن بدا للبعض أنها موزعة ومشتتة، وتتنازعها الأمم والشعوب الأخرى، وإن صح زعمهم هذا فهي فترة طارئة ومؤقتة ومصيرها للزوال، أما وحدته وتضامنه وتماسكه فسيبقى حقيقة ثابتة وأبدية بإذن الله وعنايته على مرّ الدهور وكرّ العصور.

والحديث عن شعر الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية في حياتنا العامة حديث مستفيض وطويل، وهنا يطالعنا الشاعر مصطفى زيد الكيلاني^(١) بقصيدة تتبض بالحياة والحركة، نظمها في الخمسينات من هذا القرن بعنوان "متى الإسلام في الدنيا يسود"^(٢)، وذلك عندما رأى دول الإسلام وأبناء الإسلام يرزحون تحت نير الاستعمار، وبكافة صوره وأشكاله، حيث أوسعوهم نهباً

(١) مصطفى زيد الكيلاني: شاعر أردني معاصر.

(٢) ديوان مصطفى زيد الكيلاني.

وسلباً وظلماً وتشريداً، فحزّ في نفس الشاعر هذا الواقع التعيس والمصير البائس، فجأّر بالدعاء إلى الله العليّ القدير أن يرحم هذه الأمة ويهديها إلى العودة إلى منبع الإسلام، وأن تسود في حياتها مفاهيم الإسلام وتعاليمه السامية، وأن يرى راية الإسلام، راية العقاب، راية الوحدة الإسلامية ترفرف من جديد في ديار الإسلام عالية خفاقة تخر لها أعلام ورايات الدول المعادية، وتسقط ناكسة على أعقابها.. يقول الشاعر:

متى الإسلام في الدنيا يسود	ويشرق بيننا الفجر الجديد
متى نستأنف الإسلام حكماً	سماوياً تقوم به الحدود
متى ننقض كاللهب البوازي	صواعق ما يشق لنا عمود
على المستعمرين وتابعيهم	نريهم كيف تنحطم القيود
ورايتنا "العقاب" تعود يوماً	مرفرفة تخر لها البنود
متى يا رب ترحمنا فإننا	أضر بنا التخاذل والقعود

بعد ذلك يخلص الشاعر إلى دعوة المسلمين إلى الالتزام بقواعد الدين الإسلامي الحنيف، مكرراً إيراد كلمة الإسلام أكثر من مرة، ومركزاً عليها وكأنه لمس عزوف الشباب وابتعادهم عن سنن الإسلام الغراء، والالتجاء إلى اعتناق الأحزاب والأفكار المنحرفة، التي استمالت الشباب الإسلامي، وخاصة في تلك الفترة التي قبلت فيها القصيدة، في أوائل الخمسينات من هذا القرن، حينما نشطت حركات الأحزاب والدعوات الهدامة بشكل ملفت للنظر، وفيها يحذر أبناء المسلمين من اعتناق هذه الأفكار أو الركون إليها، وأن عليهم العودة إلى منبع الإسلام الصافي حيث يقول:

ألتخذ الملاحد أولياء	لعمري إن ذاك هو الجحود
أنبغي عندهم عوناً وعزاً	ألا عودوا لقول الله عودوا
ولا ترضوا سوى الإسلام ديناً	ففي الإسلام طالعنا السعيد

وبالإسلام قد سدنا البرايا وبالإسلام قد عز الجدود
دعاة الكفر لا مولى لديهم ومولانا هو الله الحميد

وهكذا نجد أن الشاعر بهذه القصيدة يعبر لنا عن شعوره وإحساسه الفياض
تجاه قضايانا الإسلامية، ودعوته الصريحة لإخوانه المسلمين للاقتباس من نور
الإسلام المشرق، والإعراض عن مبادئ الكفرة والمشركين وعدم محاباتهم
وموالاتهم، والاعتماد على الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه فهو نعم المولى ونعم
المضير.

ويأتي شاعر إسلامي آخر هو الشاعر أحمد مظهر العظمة^(١) الذي اتجه منذ
بداية حياته إلى إيقاظ الشعور الديني لدى المسلمين، والتذكير بماضي العروبة
والإسلام، طارقاً معظم المواضيع التي تدور في فلك الإسلام والمسلمين، وهو هنا
في هذه الأبيات من قصيدته (وهو يعاصر هبوط المسلمين، ويرى ما هم فيه من
ضلال، ويلمس ما يصيبهم من هزائم متلاحقة يناجي رسول الله ﷺ)، ويهيب
بشباب المسلمين لكي يهبوا لنجدة أمتهم باتباع هدى الرسول، ويدعوهم لعقد البيعة
على نصره الرسول وهديه والإسلام وشرعه، بل إن الشاعر يرى أن ما يعانيه
العالم من شقاء وضلال لا انتهاء له إلا بالارتواء من النبع النبوي، وأن الفوضى
التي تضرب أطنابها في الأرض لا علاج لها إلا بالاهتداء بالنور الإلهي^(٢) حيث
يقول:

محمد هذي الأرض طراً وجيعة	وأنت لها الآسي الحكيم الموفق
فأرسل شباب المسلمين لدائها	وكل بطب المصطفى سيوفق
أتيناك نرجوا أن تمن موجهاً	وهذا كتاب الله بالحق ينطق
مبايع طه للإله مبايع	وناصر طه خصمه الدهر يزهب

(١) أحمد مظهر العظمة.

(٢) شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ ٨.

فوا شوق نفسي للشببية والهدى إلى علم الإسلام بالعز يخفق
إلى نوره الوضاء يجلى به الهدى فيشرق عبس كاد في الذل يغرق
فيا شباب المسلمين إلى الهدى مبايعة تدعو الرجا وتحقق

وإذا نحن تأملنا الأبيات السابقة، نلاحظ أن الشاعر يدعو الشباب المسلم دعوة صريحة وواضحة إلى المبايعة أو البيعة، والبيعة كما هو معروف لا تؤدي معناها على أكمل وجه في ماثورنا الإسلامي إلا لخليفة يجمع شتات هذه الأمة تحت علم واحد هو "علم الإسلام".

وهذه الألفاظ: علم الإسلام، راية الإسلام، منارة الإسلام، الجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية، كلها عبارات مترادفة تحمل معنى واحداً وتصب في بوتقة واحدة، هي الوحدة الإسلامية التي يتطلع إليها ويصبو إلى تحقيقها كل مسلم حر غيور.

ومن قبيل هذا المعنى ها هو الشاعر / أحمد محمد الصديق^(١) يرمز إلى الخلافة "بالمنارة" ففي قصيدته "وقفة على متحف طوب قابي"^(٢) بمدينة استانبول (عاصمة الخلافة السابقة) حيث أصابه الذهول والارتباك عندما شاهد الآثار الإسلامية العظيمة التي ذكرته بأمجاد الخلافة، العثمانية أبان مجدها وعزها، وكيف أصبحت الآن عاطلة من الخلافة فتألم الشاعر من ذلك أشد الألم، وحز في نفسه غفلة المسلمين عن الرجوع إلى هذه الفريضة الفانية، والمنارة المفقودة، فلم يسعه إلا التوجه بالنداء إلى أبناء المسلمين مفتشاً وباحثاً عن يقود سفينة هذه الأمة، ويرسي بها في ميناء الأمان والإيمان، ولكنه لا ينتظر الجواب، فيجيب عن سؤاله بقوله: إنه لا سبيل لسلامة هذه الأمة ولا عزة لها ولا كرامة إلا بوحدتها واجتماع كلمتها، بإعادة الخلافة الإسلامية، تلك المنارة المفقودة والدرة المنصودة فيقول:

(١) أحمد محمد الصديق.

(٢) جريدة "المسلمون".

يا من يقود الركب إن طريقنا عظمت به الأهوال والأخطار
إن شئت نهجاً للفلاح وخطّة فيها ينبع الحق وهو نهار
فأعد منارتنا التي فقدت فما تجلى بغير ضيائها الأكرار

بهذا الأسلوب العذب الجميل، وبهذه الألفاظ الرقيقة الموحية والمعاني الصادقة الرائعة، ساق الشاعر أبياته السالفة؛ مستهدفاً من هذا العرض الشائق الوصول إلى هدفه المنشود وأمله المعقود، وهو أنه لا خلاص لمشاكل هذه الأمة، ولا مخرج لها، ولا سبيل لفلاحها وكرامتها إلا بالعودة إلى الخلافة الإسلامية.

والقرآن المجيد هو كتاب الله الناطق ودستور المسلمين الحي، ومعجزة الإسلام الخالدة على مرّ الدهور، أنزله الله على رسوله ليكون للعالمين نذيراً، وليكون لهم سلوكاً؛ ليوحد صفوفهم ويجمع شملهم، وليلتفوا حوله صفاً واحداً وأمة واحدة، ويتشربوا من معينه ويتنوقوا ببيانه وينفحوا أسرارَه وأحكامه.

وقد لهج الشعراء قديماً بذكر القرآن الكريم، واعتبروه القوة الخفية التي حفظت للمسلمين وحدتهم، حتى إذا ما تفرق شمل المسلمين وسقطت خلافتهم، عاد الشعراء يلهجون بذكره، ويُذَكِّرون إخوانهم المسلمين بأهمية القرآن المجيد، ودوره العظيم في حياتهم، ويحثونهم على الالتفاف حوله من جديد؛ ليستعيدوا مجدهم ويستردوا ماضيهم العزيز.

من هؤلاء الشعراء الشاعر محمد مصطفى حمام^(١) الذي نظم قصيدة بعنوان "محمد إقبال"^(٢) ومطلعها:

روضي .. جني ثماره التبّيان والشعر ورد فيه أو ريحان

(١) محمد مصطفى حمام: شاعر مصري معاصر.

(٢) ديوان حمام.

حيث يستهلها بمناجاة المسلمين، وحثهم على الوحدة، والتمسك بأهداب الدين، لا سيما وأن هناك الكثير من القرائن الملموسة، والشواهد المحسوسة في حياتهم العامة التي تؤكد على هذه الوحدة، وتدعو إلى تمتين عراها وروابطها المادية والمعنوية، ألا وهو القرآن الكريم، ورسالة الإسلام الخالدة، والمساجد والمنابر، إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي تدعوهم ليل نهار إلى نبذ الخلافات، ودواعي الفرقة، والانقسام، والعودة إلى حرم الوحدة الشاملة المقدسة والتي سوف يستعيدون بها مجدهم القديم وسلطانهم العظيم .. يقول الشاعر:

يا أمة الإسلام .. عودوا إخوة يرجع إلينا العز والسلطان
ماذا يؤلف بيننا ويلمنا إن لم يؤلف بيننا القرآن
ماذا يؤلف قدسية ومساجد ومنابر ومآذن وأذان

وأخيراً يلخص الشاعر في خاتمة القصيدة إلى تذكير المسلمين بضرورة وحدتهم وتضامنهم وجمع شتاتهم، وسد الثغرات التي تسرب منها أعداؤهم وأوسعهم عذاباً وتنكيلاً، وهنا يلفت انتباههم بأنه أصبح عليهم لازماً وقبل فوات الأوان أن يتحدوا جميعاً، وأن يحيطوا هذه الوحدة بسور عظيم، وجدار منيع من التلاحم والتكاتف، وإلا فلن يبقى هناك بنيان ولا ديار يمكن أن تتحد في يوم من الأيام لا سمح الله.

كذلك وفي نفس الموضوع ينظم الشاعر / مأمون فريز جرار^(١) قصيدة بعنوان "النصر للإسلام"^(٢) ومطلعها:

كفكف دموعك فالإسلام منتصر ونوره في سماء الكون منتشر
هذي البشائر في الآفاق قد لمعت بروقها .. وجيوش الليل تتدحر

(١) مأمون فريز جرار: شاعر أردني معاصر.

(٢) ديوان: قصائد للفجر الطالع ص ٧.

حيث يلمس الشاعر بنظرته الثاقبة ويستشف بحدس المؤمن أن بشائر النصر للإسلام، وأنها تلوح في الأفق وقد آن أوانها، وإن بدا للبعض أن الظلام دامس والمخاض عسير، ولكن قدرة الله فوق كل شيء، ووعد بنصر المسلمين فوق كل اعتبار.

ولطمأنة المسلمين، وإشعارهم بقرب هذا النصر يلفت الشاعر انتباههم ويذكرهم بأهمية القرآن الكريم، وبدوره العظيم في حياة أمتنا الإسلامية، داعياً إياهم إلى العودة إلى منابع الدين الحنيف، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والأخذ بما جاء به القرآن الكريم، وترسيم طريق الوحدة، معتبراً أن ذلك هو النصر بعينه، وأنه السبيل الوحيد للمضي قدماً في طريق النصر والعزة والسودد .. فيقول:

قرآننا يا أخي دستور نهضتنا وحرز وحدتنا ما مثله الدرر
ودرب أحمد خير الخلق مسلكنا ونحن أتباعه نمضي ونأتمر
وعلى نفس المنوال وبمناسبة ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر،
والتي يجتهد المسلمون في كافة أنحاء المعمورة في إحياء هذه الليلة المباركة،
استغل الشاعر / محمد الأخضر السائحي^(١) هذه المناسبة الكريمة فنسج قصيدة
بعنوان "ليلة القدر"^(٢) ومطلعها:

رجعت وعادت من جديد بنا الذكوى لأيام ماضينا الذي شغل الدهرا
حيث أودعها تأملاته وتطلعاته واستشرافاته الوجدانية، ثم نظر في أحوال
المسلمين المعاصرة فرأى تعثرهم في سبل الحياة التي اقتادتهم إلى مهاوي الجاهلية
الجهلاء والضلالات العمياء، فهو لا يرى علاجاً ناجعاً لأدواء هذه الأمة إلا بالتعلق
بالقرآن الكريم والرجوع إلى حظيرة الدين الحنيف، هذا الدين المبارك الذي يدعو
إلى التضامن والوحدة ولا يقبل الفرقة والانقسام ..

(١) شاعر جزائري معاصر.

(٢) ديوان الإسلاميات.

يقول الشاعر :

وليس سوى القرآن يجمع شملنا ويعلي كما أعلى قديماً لنا قدرا
ومل نحن لولاه سوى جاهلية تصارع حتى لا تجوع ولا تعرى
وما الدين إلا العدل في كل نظرة وإلا كلاماً طيباً يشرح الصدر
والا اجتماعاً في الصفوف ووحدّة فلا يقبل الدين التفرق والنكرا

ومرة ثانية يؤكد الشاعر السائحى هذا المعنى، وخاصة فيما يتعلق بأهمية الدين الحنيف، ومدى أثره في توحيد دين المسلمين؛ وذلك بقصيدة أخرى له بعنوان "مناجاة هلال المولد النبوي الشريف"^(١) حيث يقول:

والدين وحدنا صفأ فأقعدنا حين اتحدنا به في أرفع الرتب
فلتقطعوا كل كف شذ أصبعها وكل فكر من الأفكار مغترب
ووحّدوا الصف إن الله وحده واقضوا على الخلف والإلحاد والريب

وهكذا يتضح ما للقرآن الكريم من مكانة بارزة ودور أساسي في حياة المسلمين، وما يتضمنه من معاني الوحدة الإسلامية الغراء.

أما الشاعر أحمد محمد الصديق^(٢) فهو من المؤمنين بأصالة ديننا الإسلامي الحنيف ودوره الكبير والمميز في حياة أمتنا، وهو أيضاً من الواثقين بمقدرات هذه الأمة وسعة مواهبها وعراقتها في عالم الخير والفضيلة، لذلك فهو يدعوها من خلال قصيدته "يا أمي"^(٣) إلى العودة إلى نبع الإسلام الصافي، والارتقاء في عالم المجد والكرامة، والتخلي عن سفاسف الأمور ومنكرات الأعمال، والابتعاد عن كل معاني الفرقة والتشتت والانقسام، ومن ثم التعلق بأهداب الوحدة والتضامن، وحينئذ فسوف نستلم دفة القيادة والريادة ونقود العالم من جديد .. يقول:

(١) ديوان الإسلاميات.

(٢) أحمد محمد الصديق: شاعر فلسطيني معاصر.

(٣) ديوان نداء الحق.

عودي إلى الإسلام عودي	وتسلمي عرش الوجود
عودي إلى النبع الأصيل	إلى نبوغك من جديد
عودي إلى الأمجاد بعد	متاهة الفكر الشرود
بعد ارتحال لاهـث	خلف السراب بلا حدود
بعد التمزق والتشتت	في الفيافي والنجد
يا أمـتي أنت العريـقة	حطمي ذل القيـود
ودعي المآتم وانـهضي	قد آن بعثك من جديد
يا أمـتي هل تجهلين	عظيم دورك في الوجود

وكذلك نراه في قصيدة أخرى نظمها عقب نكبة ٥ حزيران ١٩٦٧م بعنوان "يا مسلمون"^(١) مطلعها:

حق الجهاد فليس عنه خيار وغلت مراجل ما لهن قرار

نراه يعلن بكل ثقة وفخر، ويشيد بكل اعتزاز بدور الجهاد في حياة الأمة الإسلامية، وأن كلمة "الله أكبر" تفعل مفعولها في وجدان هذه الأمة، وما انتصاراتها العظيمة التي شهدتها التاريخ الإسلامي إلا وليدة هذه الكلمة التي اتخذها المسلمون شعاراً لهم في حروبهم مع أعدائهم وبها ينتصرون بعد نصر الله وتأبيده حيث يقول:

الله أكبر في الحياة نشيدنا	سيظل يخفق صوتها الهدار
في ظلها يتحقق النصر الذي	يعلو به للمؤمنين شعار
هل غير ربك ناصر ومؤيد	ترجى به للعالمين ثمار

وهذا الطريق طريق الجهاد المقدس هو سبيل عزتنا، ورمز فلاحنا، وفيه نحيا مقدساتنا، ونصون أعراضنا، ونجلوا نفوسنا وأفكارنا من أدران الهوى وأصداء الذنوب:

(١) ديوان "نداء الحق".

هي عزة الإسلام سر فلاحنا فيها تصان محارم وذمار
هي شعلة الإيمان والروح التي أبداً لها يتطلع المذمار
فعلام لا تصفو النفوس وينمحي صداً القلوب وتستوي الأفكار

ثم وبهمة المناضلين الشرفاء، وبعزيمة المجاهدين البررة الأوفياء نصون
وحدة هذه الأمة، لتبقى رايتها خفاقة محلقة في سماء العزة والكرامة:

وتَعَزَّ بالتوحيد رايتنا التي ثوارها حقاً هم الثوار

وبذلك يكون الشاعر قد ألهب حماسنا من خلال قصيدة صادقة العاطفة شديدة
التأثير دعا فيها المسلمين للانخراط في سلك الجهاد الإسلامي الذي لن تخبو جذوته،
ولن تنطفئ شعلته إلا بالالتفاف حول راية الإسلام الواحدة.

وكذلك فإن الشاعر بدوي الجبل^(١) قد استوحى من مناسبة وقوفه أمام الكعبة
المشرفة قصيدة بعنوان "الكعبة الزهراء"^(٢) دعا الله فيها أن يحفظ المسلمين ويؤلف
بينهم، كما دعا فيها المسلمين أنفسهم لجمع شتاتهم، ووحدة قلوبهم، والعودة إلى
منابع دينهم الذي فيه دواؤهم من كل ما ألم بهم فيقول:

ويا رب صن بالحب قومي مؤلفاً شتات قلوب لا شتات دروب
ويا رب لا تقبل صفاء بشاشة إذا لم يصاحبه صفاء قلوب
تداووا من الجلى بجلي وخلفوا وراءهم الإسلام خير طبيب
ويا رب في الإسلام نور ورحمة وشوق نسيب نازح لنسيب
فألف على الإسلام دنيا تمزقت إلى أمم مقهورة وشعوب
وكل بعيد حج للبيت أو هفا إليه وإن شط المزار قريب

(١) بدوي الجبل: شاعر سوري معاصر اسمه محمد سليمان الأحمد.

(٢) مجلة "المجلة العربية" الرياض العدد ١ آب ١٩٧٥ م.

في ثنايا هذه الأبيات التي استهلها الشاعر بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يجمع شتات هذه الأمة، ويؤلف بين قلوبها، نجد عاطفة دينية قوية، ورغبة صادقة في المودة والتراحم بينه وبين المسلمين كافة.

وفي سبيل تأكيد هذا المعنى أيضاً، وإبراز دور الدين الكبير في توحيد شمل هذه الأمة، يختتم الشاعر محمد مصطفى البلخي^(١) قصيدته الموسومة بعنوان "من وحي عرفات"^(٢) ويدعو أبناء الإسلام إلى لمّ الشمل، والعودة إلى منابع الدين الحنيف، وإذابة جميع الفوارق والاختلافات والحواجز بين صفوفهم وأفرادهم التي هي من صنع الأعداء والطامعين، وبذلك يتهيأ لهم النصر والغلبة فيقول:

أبناء هذا الدين لمّوا شملكم	وأنا أبشركم بنصر آت
عودوا إلى دين يوحد بيننا	فأواصر الإيمان خير صلات
إن اختلاف عروقتكم ولغاتكم	قد ذاب في يوم على عرفات
هذي الحواجز بين كل بلادنا	والله يا إخوان صنع عدائي

لا شك أن ما جاء في هذه الأبيات النالبة بالصدق هو لفظة ذكية من الشاعر الذي يعقد مقارنة لطيفة بين احتشاد المسلمين على جبل عرفات، وقد ذابت بينهم الفوارق، وتحطمت الحواجز، وظهروا بمظهر واحد من الألفة والمودة والأخوة، وبين تواجدهم في بلادهم وأقطارهم المصطنعة الذي يعكس هذا الوضع، ويظهرهم بمظهر العداء والشقاق والنزاع، فما الذي غيرهم وعكس حالهم يا ترى؟ لولا ما صنعه بهم العداء وما زرعوا بينهم من أسباب الفرقة حتى أوصلتهم إلى هذا الوضع المشين.

وفي مناسبة أخرى يركز الشاعر البلخي على ترسيخ أخوة الإيمان، وتمتين عرى المحبة بين المسلمين، مبيناً أنه لا فرق بين مسلم ومسلم مهما تباعدت الديار

(١) شاعر معاصر له ديوان "قنديل السعادة".

(٢) ديوان قنديل السعادة.

واختلفت الأمصار، ثم يوضح أن أقوى الطرق وأفضل الوسائل لضم شتات هذه الأمة، وجمع كلمتها هو العمل على توحيدها في دولة واحدة وتحت ظل راية واحدة، حيث يقول من قصيدة له بعنوان "توحيدها أقوى على توحيدها"^(١) :

فأخوة الإيمان .. أمتن عروة وعليّ أن أسعى إلى توطيدها
لا فرق بين ديار أمة أحمد فقريبها في الدين مثل بعيدها
قولوا لمن يسعى لضم شتاتها "توحيدها" أقوى على توحيدها

حقاً إن توحيد المساعي التي يبذلها الداعون لوحدة هذه الأمة، وانطلاقهم من نقطة واحدة، ورميهم عن قوس واحدة، هو أقوى لهذه الوحدة وأضمن نتائجاً من كل الجهود المبعثرة والارتجالية.

وعلى هدى هذه المعاني الإسلامية الخالصة تمتزج الأشواق الروحية بالمشاعر الوطنية الصادقة في قصيدة للشاعر / محمد هاشم رشيد^(٢) بعنوان "قي ظلال السماء"^(٣) التي نظمها في رحاب البيت العتيق أو ظلال السماء كما شاء أن يسميها، وقد استهلها بقوله:

بشارك يا قلب إننا هنا بظل السماء

وبعد أن حلق الشاعر في عالم دنياه وأحلامه الخاصة، وتلألأت في شعره المعاني السامية، والصور المترفة، يلتفت فيصف لنا أحوال المسلمين البائسة، وينعى عليهم فرقتهم وانقسامهم إلى دول عديدة ورايات شتى^(٤)، ثم نراه يخلص أخيراً بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى والدعاء إليه بأن يقلل عثرة المسلمين، ويجمع كلمتهم، ويوحد صفوفهم، مثلما هم اليوم متحدون من حول بيته العتيق وفي رحابه الطاهرة، ولا يعودون إلى أوطانهم إلا والوحدة تغمر كيانهم وأرواحهم فيقول:

(١) ديوان قنديل السعادة.

(٢) محمد هاشم رشيد: شاعر سعودي ماصر: رئيس نادي المدينة المنورة الأدبي.

(٣) محمد هاشم رشيد، الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٥٠.

(٤) أنظر الفصل الخامس ص .

فاجمع شتات القوى يا رب فهي قوى
ولم تسر في طريق الحق وانحرفت
فبعض إخوتنا يا رب ما برحوا
وبعضهم لم يزل يحيا على ظمأ
وأنت يا رب مولانا وناصرنا
فجوهر الدين توحيد ومبدؤه
وكم تألم عضو أو أزيل ولم
فلا تعدنا إلى أوطاننا مزقاً
تبددت حين تاهت عن خطا النور
بها المتاهات في أحلاك ديجور
نهباً بكل حديد الناب مسعور
ليرتوي كل أفاق ومأجور
وباسمك اليوم حول البيت نتحد
أنّا وإن بعُدت أوطاننا جسد
نشعر ورحنا عن الإسلام نبتعد
شتى على مذبوح الأهواء نحتشد

وتلتقي هذه المعاني التي ساقها الشاعر هاشم رشيد مع معانيه في قصيدته
"أمام البيت"^(١) (حيث أوجز فيها المعاني الإسلامية الكثيرة التي تتحقق من تجمع
المسلمين حول البيت العتيق، فيعرفون معنى الإخاء الحقيقي، وتزول الفوارق،
ويتذكرون وحدة أصلهم، وتذوب من بينهم فوارق اللون والجنس والعنصر، فلا
تفاضل بينهم إلا بالتقوى)^(٢) يقول:

لبيك يا رب إننا
جئنا إليك شعوياً
فزال حين التقينا
فلا تدعنا فريقاً
من كل فج عميق
من ألف ألف طريق
ما بيننا من فروق
لا ينتمي لفريق
فاليوم نحن عرفنا
معنى الإخاء الحقيقي

وهكذا فإننا نلاحظ في المقطوعتين الشعريتين السابقتين للشاعر هاشم رشيد
أن روحاً واحدة وهماً واحداً يسيطر على كليتهما، وهو هم الأمة الإسلامية المتشتتة
والمنقسمة على نفسها، ذلك الهم الذي يقض مضجعه ويشغل باله إلى جانب بال كل

(١) محمد هاشم رشيد، الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٦٤.

(٢) د / رزق داود / محمد هاشم رشيد. مرجع سابق.

مسلم غيور، ورأينا كذلك كم حملت هاتان المقطوعتان في ثناياهما من العاطفة الجياشة والإحساس المتوقد، الذي أشعله وجوده في ظلال بيت الله العتيق وفي رحابه الطاهرة، كما نلاحظ اندماجه التام في الجماعة الإسلامية، وذوبائه معهم في بوتقة واحدة هي بوتقة الإخاء الإسلامي الحقيقي.

وتمضي قافلة الشعراء مجسدة معنى الوحدة الإسلامية في قصائدهم، ومركزة على أن الإسلام ونبعه الصافي هو أساس هذه الوحدة التي اختارها الله لعباده المؤمنين.

وهذا هو الشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي^(١) الذي استغل مناسبة زيارة وفد جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، إلى جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، فنظم قصيدة بعنوان "الله أكبر"^(٢) ينادي فيها بالوحدة الإسلامية تحت شعار "الله أكبر"، ويدعو المسلمين ليتفيؤوا ظلال هذه الوحدة من دوحة ديننا الإسلامي الحنيف، ويحثهم على ترك الموبقات والترفع عنها، والركون إلى عمل الطاعات وتزكية النفوس فيقول:

يا أخوة الإسلام إنا وحدة	لا نرتضي للمسلمين سفاها
يا أخوة الإسلام إن طريقنا	صعب وهمتنا تحت خطاها
ما أجمل الإسلام منهل وحدة	زكى النفوس بهديه وسقاها
ما أجمل الإسلام دين عدالة	جمع النفوس على التقى وهداها
وإذا النفوس ترفعت عن غيها	فإنه جلّ جلاله يرعاها
الله أكبر رمزنا وشعارنا	فلترفعوها واعرفوا معناها

(١) عبد الرحمن صالح العشماوي: شاعر سعودي معاصر له العديد من الدواوين الشعرية.

(٢) ديوان: يا أمة الإسلام.

كذلك فإن الشاعر / عبد الرحمن سليمان رفته^(١) يجسد في شعره هذا المعنى الذي يعتمد الإسلام أساس وحدة المسلمين ورمز تضامنهم، ويتجلى ذلك في قصيدته "إنا بنو الإسلام"^(٢) التي نظمها في ذكرى حريق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٨م، وفيها ينبذ الدعوات المشبوهة التي تنادي بإحياء القوميات المتعددة للأمة الإسلامية، والذي لا يرى فيها سوى أنها مصدر لبعثرة الجهود والطاقات، وتبديد الشمل والغايات، ويؤكد على أن الشريعة الإسلامية وديننا الحنيف الذي نزل على سيد الخلق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام هو الأساس والمرتكز الذي تقوم عليه وحدتنا الإسلامية، وأن القرآن الكريم هو دستورنا ونظام الحكم فيما بيننا، ونحن كلنا أمامه سواء حيث يقول:

إنا بنو الإسلام وحد بيننا	وبه الفخار وحقه لا ينكر
فالدين دين محمد في ظله	يعلو التقى ومن به يتأثر
ونقول أنتم في الشريعة أمة	لم يعمل فيها فاسق أو يذكر
ولكم وشائج لا تفاضل بينها	إلا بما ذكر الحبيب الأخير
فحذار دعوى قد تبدد شملنا	وتعيد ماض بالمآسي يزخر
فالجهد داء للصفوف مفرق	وبه تسوء حياتنا وتكدر
إن العروبة أحرف لا مذهب	أبدأ وليس ملّة تستأثر
قرآننا دستورنا وإماننا	وبه نحاجج .. هل ترى من ينكر؟
وحديث من جاء البرية كلها	فهو الرسول محذر ومبشر
أنتم سواسي .. لا تفاضل بينكم	فالدين يحكم بينكم ويقدر

وهكذا نرى أن الشاعر في هذه الأبيات من قصيدته السالفة، وما ساقه في ثناياها من تلميحات وإشارات إسلامية مشهورة، إنما يستهدف من وراء ذلك تذكير

(١) عبد الرحمن سليمان رفته: شاعر سعودي معاصر / عضو نادي المدينة المنورة الأدبي: عمل مديراً للمطبوعات في المدينة المنورة.

(٢) ديوان: جداول ونبابيع / عبد الرحمن سليمان رفته ص ٤٣ ط ١٤٠١هـ.

إخوانه المسلمين باتخاذ الإسلام، والإسلام فقط ذون كل الاعتبارات الأخرى أساساً لوحدتنا المرجوة، وجعل القرآن الكريم وهدية الشرف دستوراً لهم ومنهاج حياة، وبذلك تتغشاهم السعادة في الدارين ويكونون أخوة متساوين متحدين.

ونمر ذكرى الإسراء والمعراج على الشاعر يوسف العظم^(١) فتلهمه هذه الذكرى العزيزة قصيدة بعنوان "في ذكرى الإسراء والمعراج"^(٢) وتنقله على جناح الشوق والمحبة إلى أرض الإسراء، إلى القدس الحبيبة - ضمير الأمة الإسلامية - التي طالما غناها أعذب أشعاره وأصدقها، ومنحها أسمى عواطفه وأغلاها، في الوقت الذي صب جام غضبه على أعدائها والمتاجرين بها، وكان سيفاً مصلتاً عليهم، حتى لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده الكثيرة من التعبير عن هذه المعاني سواء أكان ذلك تصريحاً أو تلميحاً.

وفي هذه القصيدة يدلل الشاعر على شدة تعلقه وحبه لمدينة القدس التي ينعتها بأنها استقبلت جنود الله الفاتحين بكل فرح وسرور، وارتفعت فيها راية التوحيد عزيزة مشرقة، وظل الأمر كذلك حتى سقطت راية الإسلام فساءت الأحوال وتغيرت الأمور وسقطت القدس والمسجد الأقصى بيد أعداء اليهود فيقول:

أنا للقدس خافقي ووريدي	وحياتي ومهجتي ووجودي
وعلى القدس قد قصرت حديثي	وقوافي شعري وبيت قصيدي
في رباها لله سارت جنود	تستحث الخطا بعزم شديد
وحديث الإسراء في كل واد	وعلى كل ربوة وصعيد
يتحدى الكفر الصراح ويعلي	في ذرا القدس راية التوحيد

(١) يوسف العظم: أديب وشاعر أردني معاصر له العديد من المؤلفات الأدبية والشعرية.

(٢) ديوان في رحاب الأقصى ص ٧٣ ط ١ ١٩٧٠ م.

بعد ذلك يستشعر الشاعر كل معاني الحزن والآسى والأسف على هذا
المصير الذي منيت به مدينته الأثيرة، وأصبحت تنن وتستغيث بأبطالها الميامين من
وظاة أعداء الله اليهود الذين دنسوا معالمها ومقدساتها برجسهم الأثيم:

لهف نفسي على عرين تهاوى فيه تحيا حثالة من قروود
وأنين الأقصى الجريح ينادي واصلاحي وارايتي واجنودي
وجدار البراق دنس بالعار وبالرجس من علوج اليهود

والشاعر وهو في غمرة هذا الحزن يتطلع بكل لهفة وشوق إلى أمل هذه
الأمة المتمثل في كتائب (فتح) الجهادية التي استبشر بها المسلمون كنواة للجهاد
الشامل الذي يجب أن تسلكه هذه الأمة:

يا سماء القدس أمطريهم لهيباً يا جبال القدس الشهيدة ميدي
واصنعي الفتح يا كتائب "فتح" وأعيدي رايات "بدر" أعيدي

ثم يلتفت الشاعر فيوجه الخطاب إلى الأمة الإسلامية داعياً إياها لإعلان
الجهاد والجود بأعز ما تملك من متاع الدنيا الزائل، وتسطير أسمى آيات النصر
الممهور بالدماء الغالية والنفوس العزيزة، وبعدها فلترفع علم العز والخلود، ولتنبؤوا
أعلى المناصب وأحظ الأدوار:

أمة المصحف الطهور أفيقي وبأعلى ما يملك الحر جودي
واكتبي النصر بالدماء عزيزاً وارفعي في الورى لواء الخلود

إن معاني الجهاد وبكافة أنواعه وأشكاله التي ساقها الشاعر في أبياته،
وذكرها أكثر من مرة، لدليل واضح على أهمية هذا الجهاد في حياة المسلمين
المعاصرة، وأنه السبيل الوحيد لنستعيد به حقوقنا المسلوقة وأرضنا المغتصبة،
والنصر على الأعداء، وتفيؤ ظلال العز والخلود.

وكذلك تطرق الشاعر/عبد القدوس أبو صالح^(١) في شعره لإقامة دولة الإسلام، وذلك من خلال قصيدته "شاعر الإسلام"^(٢) التي نظمها سنة ١٤٠٦هـ بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول لرابطة الأدب الإسلامي في لكنو بالهند، والذي استطاع أن يوضح فيها مهمة الشاعر الإسلامي في الحياة، ويبرز أهمية وضخامة دوره تجاه قضايا دينه وأمته، ومن خلال هذا التوجيه يستشعر الشاعر الفراغ الكبير الذي يعيشه ويحسه هو ومن معه من كافة أبناء الإسلام بعد سقوط الخلافة الإسلامية، واختفاء دولة الإسلام من مسرح التاريخ، فلم يغفل وهو يوجه النداء في ختام القصيدة إلى رمز من رموز حضارتنا الإسلامية الحديثة، فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي^(٣) - الذي ألقى القصيدة تحت رعايته - ويدعوه إلى استنهاض همم دعاة المسلمين، ودعوتهم إلى جمع كلمتهم، وتجديد عهد الإسلام والنهوض به من كبوته، ودفعهم إلى إقامة دولة الإسلام التي طال الانتظار لها ... يقول:

إيها "أبا حسن" أتينا	نقبس الإرشاد وقد
فاحشد دعاة المسلمين	وكن لهم علماً وبنداً ^(٤)
وادفع بنا نخض الغمار	وكن لنا سيفاً وغمداً
لنهيب بالإسلام .. جدد	عهدك الميمون عهداً
ونقيم للإسلام دولته	التي تزداد مجداً

في هذه الأبيات يتبادر للأذهان أهمية العلماء - الذين هم ورثة الأنبياء، وضخامة الدور الذي يضطلعون به في حياة هذه الأمة، والذي به يستطيعون أن ينفخوا في عزم أبنائها، والدفع بهم في غمار الصعاب لتحقيق أسمى الأهداف والغايات.

(١) شاعر سوري معاصر ولد في حلب / نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي.

(٢) من الشعر الإسلامي الحديث / منشورات رابطة الأدب الإسلامي.

(٣) من علماء الإسلام في العصر الحديث: رئيس رابطة الأدب الإسلامي في الهند.

(٤) بنداً: علم

والشاعر هنا يشير إلى أهمية هذا الدور للعلماء بأن يكونوا قادة ووقوداً للأبناء شعبهم، ورمزاً لجهادهم ونضالهم، لا مجرد أن يكتفوا بالإرشاد والتوجيه أو السكوت عن البهتان والأباطيل، والتفوق في أبراجهم العاجية، وذلك هو الدور الجدير بهم والذي فضلهم الله من أجله.

ومع كثرة الدعوات إلى إقامة الوحدة الإسلامية، وعلى كثرة ما فاضت به قرائح الشعراء لاستنهاض همم إخوانهم المسلمين لجمع الشمل وتوحيد الكلمة فيما ذكرناه آنفاً، إلا أن الدكتور / عدنان علي رضا النحوي^(١) في قصيدته "ملحمة التاريخ"^(٢) التي نظمها سنة ١٤٠٦ هـ عندما وقف على آثار مدينة استامبول، ورث فيها الخلافة الإسلامية الغابرة، وذكر بعض أسباب هذا السقوط والآثار التي ترتبت عليه، نراه ينتهج في خاتمة القصيدة خطأ آخر في الدعوة لوحدة هذه الأمة حيث يشترط على المسلمين إقامة هذه الوحدة الإسلامية ورص الصفوف وتوحيد القلوب والأهداف، والالتفاف حول كتاب الله الكريم، وتطبيق السنة الشريفة في حياتنا، وإلا فإن حياة بائسة سوف تسود حياتهم، ومصيراً قاتماً ينتظرهم، وسوف لن ينفع عندها تجرع غصص الندم واجترار الحسرة وسوء العافية، وذلك في قوله:

إن لم تقم أمة الإسلام واحدة	فأي رب كريم النصر مرتقب
إن لم نرص صفوف الحق صادقة	لله من كل قلب غير منشعب
على كتاب من الرحمن أنزله	وسنة جمعاً وحيأً وهدي نبي
فرجعي يا دار المسلمين أسى	ورجعي للحن من شكوى ومن نصب

ولا شك أن ما ألمح إليه الشاعر في أبياته السابقة من سوء العاقبة، والمصير الذي ينتظر هذه الأمة إن لم توحد أهدافها وتجمع كلمتها و صفوفها، هو منتهى الحق وعين الصواب، فالأوضاع التي تعيشها هذه الأيام والظروف التي تكتنفها لهي من

(١) شاعر معاصر له العديد من الدواوين الشعرية المطبوعة.

(٢) ديوان جراح على الدرب.

السوء والشؤم والهوان مالا مزيد عليه، خاصة وأنها تعيش في عصر العلم، وعهد التنوير، وقرب المسافات وإمكانية التواصل والتشاور، وتملك مجتمعة من الثروات والقدرات والإمكانات ما لا تملكه أمة مثلها، ولكن للأسف هذه الثروات تذهب أدراج الرياح، وتتفق في سبيل الغواية والضلال والإستهلاك الذي لا جدوى منه، أو عن طريق الحروب، والحروب المتقابلة التي لا طائل من ورائها إلا الدمار والخراب وسوء المصير والعياذ بالله، قال رسول الله (ﷺ) "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" ويبلغ الحنين مداه والترقب غايته إلى إقامة دولة الإسلام وإحياء الخلافة الإسلامية، والتطلع إلى ذلك بكل صراحة ووضوح، وذلك في أبيات من قصيدة للشاعر يوسف إبراهيم^(١) بعنوان "الكوكب الأقل في ذكرى ماتم الخلافة"^(٢) التي نظمها عام ١٤١٠هـ وقدم لها بقوله (إلى الأمة التي ترقب فجر الخلافة المنتظر، إلى الشباب الذين حملوا راية التحرير بيقين المؤمنين وعزيمة المجاهدين؛ ليعيدوا دولة الخلافة في ظل رسالة الإسلام الخالدة) وقد خصص الشاعر قصيدته الطويلة هذه التي تجاوزت السبعين بيتاً في الحديث عن الخلافة الإسلامية فرثاها، ورسم صورة زاهية لها، ووقف على مدائنها وآثارها ورموزها، وبيّن أسباب سقوطها ونتائجها، وقد ذكرنا ذلك في مواضعه من الفصول السابقة، إلى أن يخلص في ختام القصيدة إلى التطلع والحنين إلى إقامة هذه الخلافة التي طال الانتظار لها، والحاجة لممارستها، وإخراجها إلى حيز الوجود، حيث يعتبرها مطلباً أساسياً وهدفاً جوهرياً في حياة أمتنا الإسلامية، خاصة بعد ما ساء وضع المسلمين واستبد بهم أعداؤهم وجلادهم، وأذاقوهم الأمرين، لذلك فهو من المتحمسين لإحياء الخلافة، بل واثق ومتأكد من عودتها التي سوف يعم نورها ويزغ فجرها وتزفر أعلامها عما قريب في ديار المسلمين بفضل الله وقوته، ثم

(١) يوسف إبراهيم: شاعر سوري معاصر.

(٢) مجلة الوعي / رمضان ١٤٠١هـ.

بعزم المجاهدين والساعين إلى تحريرها وتخليصها من رق المستعمرين والجلادين، وسوف تعود دولة الإسلام شامخة كسابق عهدها وسالف مجدها، وما ذلك على الله ببعيد حيث يقول:

يا راية التحرير تاه الركب في ظلماء حالكة وطال بها الشرود
والأعين الظمأى تحن إلى الضياء وترقب الفجر الجديد
وكتائب التحرير دائبة الجهاد الظافر المنصور في درب الخلود
لا لن يظل بأرضه الإسلام تحت سياط جلاديه كالصيد الطريد
ستبيد آلهة الضلال ودولة الأصنام في وطني تبديد
وتعود رايات الخلافة والجهاد ودولة الإسلام شامخة تعود

نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات يتفاعل بعودة الخلافة الإسلامية، وقيام دولة الإسلام الكبرى وسقوط كل العوائق والعراقيل من أمامها، وهو إذ يقرر ذلك لا يلقي بذلك جزافاً، بل إنه يجزم عليه من قبيل الأمر الواقع المتمثل في الجهاد المتواصل، والعمل الدؤوب الذي تتولاه وتتشرف بحمله كتائب الحق والتحرير، التي وضعت نصب أنظارها تحقيق هذه الغاية التي لا تغفل عنها أبداً وتعتبرها حبها الأكبر وشغلها الشاغل حتى تتحقق بإذن الله.

وقد عرض الشاعر لنا هذه الأبيات في لوحة فنية رائعة بسيطة الألفاظ قريبة المعاني مليئة بالصور البيانية وبخاصة الاستعارة والتورية، وعبر عن معانيها تعبيراً جميلاً ومؤثراً.

وتمر الأيام والسنون وهاجس الخلافة كما ذكرنا، لا يزال يراود مخيلة الشعراء ويسيطر على أفكارهم ووجدانهم، ويستغلون أي مناسبة للتعبير عن هذا الهاجس، وإبرازه إلى حيز الوجود والعيان.

ومن هذا القبيل حادث سقوط المجاهد الدكتور عبد الله عزام^(١) شهيداً - إن شاء الله - على أرض أفغانستان، الذي اغتالته يد الغدر والخيانة من أعداء الإسلام، بعد حياة حافلة بالبطولة والجهاد وأواخر سنة ١٩٨٩م وعلى أثر ذلك انبرى الشعراء يرثونه ويعددون مناقبه وبطولاته الجهادية في خدمة الإسلام والمسلمين، ودعوته المتواصلة لوحدة هذه الأمة وإحياء خلافتها الغائبة.

من هؤلاء الشعراء: الشاعر الإسلامي/عمر بهاء الدين الأميري^(٢) الذي نظم قصيدة بعنوان "شهادت الخلافة الراشدة"^(٣) ومطلعها:

قالوا قد اغتالوه لا ألف لا بل خصه الله بأعلى العلا

حيث نلاحظ أن الشاعر بدأ القصيدة بأسلوب تقرير استنكاري يثبت فيه اغتياله ثم ينفي ذلك بداعي أن الله سبحانه وتعالى قد اختصه بشرف الشهادة، ورفع له إليه في أعلى عليين، بعد ذلك يأخذ الشاعر في سرد بطولات الفقيه وجهاده الطويل في سبيل الله مقتحماً شتى الصعوبات والأخطار، غير مبال ولا هيب، ما دام ذلك يحقق المبادئ التي نادى إليها والمتجلية في الدعوة إلى جمع شتات هذه الأمة، وبعث خلافتها بعد غيابها الطويل الذي جر عليها الكثير من المآسي والمصائب، وأبعدها مسافات طويلة عن تسلم قمة المجد والقيادة فيقول والحديث ما زال عن الشهيد عزام:

وتقفه الأعباء في غمراتها	فيقتحم الهول الضروس ولا يعيا
يطوف بأرجاء البلاد محرضاً	صبوراً حسوراً في مكابدة يحيا
ينادي إلى بعث الخلافة أمة	مشتة عن مجدها أبعدت نأيا

(١) مناضل وشهيد ومربي / اشتهر في أفغانستان ١٩٨٩م.

(٢) شاعر سوري معاصر.

(٣) أحمد أبو بكر "ديوان الوداع المر"، ١٤١٠هـ.

نلاحظ في هذه الأبيات التي تمتاز بالسهولة والسلاسة، والتي يرثي فيها الشاعر أحد شهداء الأمة الأبرار، كيف أنه استغل هذه المناسبة ليبرز من خلالها معنى كبيراً ويجسد غاية عظمى يسعى لها كل مجاهد وعامل من أبناء هذه الأمة وهي إقامة وحدتها وإحياء خلافتها.

وفي نفس المناسبة تطالعنا قصيدة ثانية للشاعر محمد ضياء الدين الصابوني^(١) بعنوان " قد كان عبد الله ليثاً ثائراً "^(٢) ومطلعها:

دعني أرق يا صاحبي عَبراتي أظفي لهيب الحزن في زفراتي

وقد رثى الشاعر في بدايتها الشهيد عزام، وبكاءه بكاء مرأً، وأراق عليه عبرات الأسى والحزن، وبعد ذلك يخلص إلى مناجاة إخوانه المسلمين الذين أحزنهم الحدث وأثر في وجدانهم، فيدعوهم إلى نبذ الخلافات من بينهم، وترك عوامل الفرقة والانقسام، تلك العوامل التي بددت وحدتهم ومزقت رايهم، ووزعت جهودهم ومقدراتهم، وينصحهم بالعودة إلى رحاب القرآن الكريم ومنابعه الصافية، وحماية دينهم ومعتقداتهم من كل الأفكار المضللة والمبادئ الزائفة، وأن يجمعوا شملهم في وحدة شاملة تخولهم حماية هذا الدين من كل دعاة الهدم والتضليل فيقول:

يا قوم لا تهنوا وكونوا وحدة أنتم أباء الضيم خير كفاة
مذ دبّ بينكم الخلاف تأخر النصر المبين ومزقت راياتي
مذ حلّ بينكم الشقاق توزعت تلك الجهود لفرقة وشتات
عودوا إلى القرآن واحموا دينكم من كل تضليل وكيد سعاة

نلاحظ أن هذه الأبيات وبرغم بساطتها وأسلوبها الخطابي المباشر تحمل بين ثناياها معان كبيرة وتفاصيل كثيرة، بل إنها تكاد تلخص جلّ تاريخ المسلمين

(١) شاعر سوري معاصر يلقب بشاعر طيبة.

(٢) أحمد أبو بكر / المرجع السابق.

الحديث الذي بدا بالتقهقر والانتكاس بعد سقوط الخلافة مباشرة، ولن تستقيم خطاهل إلا بالعودة إلى الوحدة الشاملة التي تستقي مبادئها وأهدافها من النبع الرباني العظيم، من كتاب الله الكريم.

ومن هذه النماذج الشعرية التي يبدي فيها الشعراء تطلعاتهم تجاه الوحدة الإسلامية من خلال قصائد قيلت في مناسبات خاصة، قصيدة لكاتب هذه السطور^(١) الذي يشارك إخوانه الشعراء في "مهرجان النصر الثقافي" الذي أحياه نادي المدينة المنورة الأدبي في ١٢/١١/١٤١٢هـ وذلك تضامناً مع انتصار المجاهدين الأفغان في حربهم الطويلة والمريرة مع الإتحاد السوفييتي، وسقوط هذه الأخيرة، وتفكك دولها، وانسحابها مرغمة من أفغانستان وذلك في قصيدة بعنوان "في مهرجان النصر" ومطلعها:

النصر يكفل صنعه الرحمن فابذل جهودك أيها الإنسان

حيث يبارك الشاعر فيها إخوانه المجاهدين الأفغان بانتصارهم الرائع على أعدائهم من الروس الشيوعيين.

وكان الشاعر لم يطمئن لما صنعه هؤلاء الأعداء ومن لف لفهم إزاء هذا الانسحاب، فشك في نواياهم، واعتقد أن وراء الأكمة ما وراءها، وذلك لما يعرفه من مكرهم ودهائهم وأسبقياتهم الطويلة في تدبير المكائد لبلاد المسلمين، فهو يحذر من مكرهم ودهائهم وخداعهم، ثم إنه لا يقف عند هذا الحد من التنبيه والتحذير، بل يتعدى ذلك فيدعو المسلمين إلى اليقظة وتعبئة النفوس بروح الإيمان، وتوحيد الصفوف في وحدة مقدسة شاملة تستمد طاقتها ومعنوياتها من مبادئ الإسلام الحنيف، ومنابع القرآن الشريف حيث يقول:

يا مسلمون تتبها لدهائس يلقى بها الأعداء والأعوان
الكفر مجتمع على إذلالنا والشمل يقطع نسجه الهجران

(١) ماجد إبراهيم العامري، ولد في رحاب الأردن عام ١٩٤٤م.

والحال فيما تبصرون مهلهل فبكل دار دولة وكيان
 قد أن أن نجتاز قبو ضلالتنا قد أن أن يرقى بنا الإيمان
 أن نستجيب لوحدة قدسية عنوانها الإسلام والقرآن

وبانتصار الأفغان على أعدائهم، وتحررهم من رق الاستعمار الشيوعي،
 يعتبر الشاعر أن هذا الانتصار إنما هو مرحلة أولى من مراحل انتصار المسلمين
 المقبلة بإذن الله، حيث لا تزال أقطار عديدة من بلادنا تئن تحت نير الاحتلال،
 وهنا يلتفت الشاعر فيرنو ببصره وبصيرته إلى قلب الوطن الإسلامي إلى أولى
 القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، إلى القدس الشريف وفلسطين السليبية، فيرى أن
 الاحتلال الصهيوني الغاشم ما يزال مسيطراً عليها، ومتسلطاً على أهلها الذين
 رفضوه وقاوموه بالحجارة والسواعد، بينما هناك جهود تبذل، وترفع أغصان
 الزيتون من أجل سلام ذليل هزيل، فيندد الشاعر بهذا السلام كافة إلى إعلان الجهاد
 المقدس تحت ظلال وحدة إسلامية عزيزة الجانب، يعنو لها العالم أجمع وذلك
 بقوله:

اليوم دور القدس نبذل دونها مهج النفوس وترخص الأثمان
 لا سلم والإسلام تسلب أرضه وتحوم في قدساته الغربان
 لا سلم والإسلام يسفح عرضه وتجوس بين ربوعه الذؤبان
 الله أكبر حين يخفق عالياً علم الجهاد وينطق البركان
 ويعود للإسلام مشرق وجهه في وحدة تعنو لها الأكوان

نهم لقد أن للقدس الشريف أن يحشد لها جميع المسلمين في كل بقاع الدنيا
 فهي لهم جميعاً ومن حقهم جميعاً، فأرض فلسطين، أو أية أرض إسلامية محتلة،
 هي أرض تهم كل المسلمين، وشرف الجهاد في سبيل استردادها من يد المحتل
 واجب على كل مسلم ومسلمة، وليس مقتصراً على فئة دون أخرى.

وهذه قصيدة أخرى للشاعر يوسف إبراهيم^(١) بعنوان "تحت الثلج والصقيع والخيام"^(٢) والذي نظمها في ١٩٩٠م ومطلعها:

أصبحت في وطني غريباً ومشرداً ضلّ الدروباً
وسياط إسرائيل تلهيني على ذل وتوسعني ندوباً

حيث يصف فيها واقع المسلمين المرير، وحاضرهم المؤلم، فيقوده هذا الوضع، إلى تذكر أمجاد الخلافة الإسلامية، فيرسم لها صورة زاهية، ثم يخلص في ختام القصيدة إلى مخاطبة الغافلين واللاهين من أبناء أمتنا الذين ما زالوا يجرون ويلهثون خلف الأمانى الكاذبة والوعود البراقة التي يطلقها المسيطرون في الهيئات الدولية المختلفة من أجل حلول القضايا الإسلامية، ولا سيما قضية القدس الشريف، والمسجد الأقصى المبارك، وحيث أنه لا يعتقد بصدق هذه الوعود، ويشك في مصداقيتها، بل يندد بها ويرفضها، فإنه إزاء هذا الموقف يطرح حلاً آخر يراه كفيلاً بحل كل مشاكلنا وقضايانا، وجديراً باسترداد مقدساتنا وكرامتنا، ألا وهو إعلان الجهاد المقدس، وإشعال الثورة الإسلامية العارمة، التي سوف تتجلى برفع رايات النصر الإسلامي فوق الأقصى المبارك بقيادة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين حيث يقول:

يا راقيدين على يد الأحلام في سكر الوعود مخدريين
اللهثين بمجلس "الرعب" الصليبي الذي في قبضة المستعمرين
ماذا وراء القدس .. غير المسجد النبوي والحرم الأمين
أنا صيحة من صوت تاريخي تهز ضمائر المتمردين
أنا ثورة جنت فلم تعرف طريقاً للكفاح سوى الجنون
لا سلم حتى تخفق الرايات في الأقصى لتمحو من حماه الغاصبين
ويقود جيش النصر في ظل الخلافة نحو غايته .. أمير المؤمنين

(١) يوسف إبراهيم.

(٢) مجلة الوعي. عدد ٧٢ شوال ١٤١٣هـ.

من هذه القصيدة والقصيدة السابقة "الكوكب الآفل" للشاعر يوسف إبراهيم يتضح لنا مدى تعلقه القوي وحماسه الشديد للجهاد المقدس والخلافة الإسلامية، وأنهما هاجسه الأول والأخير، ويتضح أيضا أنه من العاملين من أجل هذه القضية، ذلك أن هذا الشعر القوي النبرات الصادق اللهجة، والبالغ في التعبير والتأثير لا يأتي من فراغ، بل يدل على أنه صادر من شاعر ملتزم مشبع بالأفكار الإسلامية البناءة، ومنفعل بقضايا أمتنا الإسلامية ومتفاعل معها.

وبهذا القدر نكتفي من إيراد ما سطره الشعراء من أشعار في الحنين للخلافة الإسلامية والدعوة إلى وحدة المسلمين، وذلك خشية أن يطول بنا البحث آمليين أن تعطي الأشعار التي استعرضناها في هذا الفصل فكرة شاملة عن الموضوع.

الباب الثالث

الظواهر الفنية والبلاغية في شعر الأصداء

• توطئة

الفصل الأول: الظواهر الفنية والبلاغية من حيث:-

أ - المعجم الشعري

ب- البناء الفني

ج- الوحدة الموضوعية

د - الموسيقى

هـ - الظواهر البلاغية

الفصل الثاني:- السمات العامة والخصائص المشتركة من حيث:-

١- الصدق في التعبير

٢- الموقف والالتزام

٣- التقريرية والخطابية

٤- المعاني الإسلامية

الباب الثالث

الظواهر الفنية والبلاغية في شعر الأصداء

توطئة:

بعد سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية سنة ١٩٢٤م كان الشعراء المعاصرون لهذا الحدث قريبين منه بأجسامهم وأرواحهم، لذلك جاء شعرهم أقرب إلى واقعهم، وأكثر حماساً وأشد تأثيراً من الأشعار التي تلتها، وكذلك كان أعظم فنية وأكبر تجربة وإحساساً بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم.

ولما تباعد العهد به، أحس الشعراء بعد ذلك بالفراغ الكبير الذي تدور فيه أمتنا الإسلامية، والمتاهات الكبيرة التي تتخطب فيها، فكان هذا حافظاً لهم ودافعاً لاحتذاء خطأ سابقهم، فعلا صوتهم محذرين ومنذرين من هول الواقع المؤلم الذي يكتنف أمتنا والمصير البائس الذي ينتظرها، فجاء شعرهم كذلك ناطقاً بالصدق ونابضاً بالحركة، ومعبراً عن هذا الواقع المؤلم والحاضر التعيس.

لذلك لا غرو إذا لمسنا في شعر هذه الأصداء، حرارة العاطفة والصدق الفني والإحساس العميق، في كافة أشكالها وظروفها، ونراه يعتمد في أغلب الأحيان المذهب الواقعي الذي يتسم بالتقريرية والسرود المباشر.

وفي نظرة متأنية واستغراق شامل في هذا الشعر الذي بين يدينا، نستطيع القول: إنه صور واقع المسلمين وما آلت إليه أحوالهم وحياتهم، ولوثها بعواطف ملتية وشعور عميق وانفعال صادق، نابعا من ذواتهم وأعماق نفوسهم.

هذا وسوف ندرس في هذا الباب الجانب الفني لشعر الأصداء، من حيث تقويمه والوسيلة التي عبر فيها عن نفسه.

ونظراً لكثرة عدد الشعراء الذين تناولوا هذا الشعر، ونظراً لاختلاف مذاهبهم الشعرية وطريقة تناولهم للشعر؛ فمن الطبيعي أن لا يستوي أدأؤهم الفني أو يأتي على نمط واحد، بل لابد من التفاوت البسيط بين شاعر وآخر أو بين قصيدة وأخرى، غير أن ذلك لن يمنعنا من أن نذكر السمات العامة والخصائص المشتركة والظواهر الفنية له، وخشية أن يطول بنا المقام إذا استعرضنا جميع الأشعار التي يظهر فيها الأداء الفني جلياً وواضحاً، فسوف نعمل إلى اختيار النماذج التي تؤدي الغرض، وتقف بنا بصورة تقريبية على أهمية هذا الشعر وقيمته الفنية وذلك وفقاً لما يلي:-

أولاً: الظواهر الفنية من حيث

أ- المعجم الشعري.

ب- البناء الفني.

ج- الوحدة الموضوعية.

د- الموسيقى.

هـ- الظواهر البلاغية.

ثانياً: السمات العامة والخصائص المشتركة من حيث:-

١- الصدق في التعبير.

٢- الموقف والالتزام.

٣- التقريرية والخطابية.

٤- المعاني الإسلامية.

الفصل الأول

الظواهر الفنية والبلاغية

الظواهر الفنية والبلاغية

أ- المعجم الشعري:

الشعر تعبير عن الحياة بخيرها وشرها، وتصوير للنفس الإنسانية بفضائلها ورذائلها، وقيمها وجمالها، وللشعر لغته وتعبيره ومعجمه، وقد اختلفت لغة الشعر المعاصر عن لغة الشعر التراثي لاختلاف العصر وتغيير مقاييسه. ونتيجة لهذا الاختلاف يسعى كثير من الشعراء لتكوين معجم شعري خاص بهم، ولكن هذا الصنيع لا يمنعهم من النسيج على منوال الشعر العربي قديمه وحديثه، واستعمال ألفاظ ومصطلحات مشتركة، طالما طرقها الشعراء من قبل وتقننوا في عرضها، دون أن نعتبر هذا مجرد تقليد سواء كان هذا في الأداء أو في المضمون، حيث إن لكل شاعر مبدع طريقته وأسلوبه الخاص به، ونظرته المنطلقة إلى آفاق التحرر والتجديد، واستخداماته الخاصة للألفاظ التي قد تحمل في ثناياها شحنات دلالية وإيحائية تختلف عن الاستخدام الذي درج عليه السابقون.

وفي شعر الأصداء، سوف نعثر عن أساليب متعددة تتسم بالرفقة والعذوبة، وأخرى تتصف بالقوة والجزالة، وسنجد مفردات متشابهة أحياناً، وأخرى مختلفة أحياناً أخرى وذلك "لأن المفردات اللغوية في الشعر لا تختلف من عصر إلى عصر فحسب، بل هي كذلك تكاد تختلف بين شعراء الجيل الواحد^(١). وذلك معنى التفرد والامتنياز بين كل شاعر وآخر.

ومن النماذج الشعرية في شعر الأصداء، التي تمتاز بالرفقة والانسيابية هذه الأبيات من قصيدة "أذان الزحف" للشاعر عمر بها الدين الأميري، إذ يقول:

(١) د / عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياها الفنية والمعنوية.

يا شباب الإسلام أمتنا في	خطر الموت أين من يشفيها
فتتبع لها بدينك علما	ومضاء وأسلك هدى باريها
ليس إلا "القرآن" بادر إليها	بعلاج من آية يحييها
وتسلم سفينها بسداد	ورشاد فذ وكن مجريها

وكذلك نرى هذه الرقة في الأبيات التالية من قصيدة: "الراية الإسلامية"

للشاعر إبراهيم أحمد عبد الفتاح، في قوله:-

لهفي على علم مال الزمان به	إلى الرغام .. ذليل الشأن متضعا
داست على راية الإسلام حاقة	أقدام أعدائه حتى غدت قطعا
متى نرى دولة الإسلام شامخة	بين الأنام .. وشمل الشرق مجتمعا

فهذه الأبيات على رقتها وسلاستها يتحكم فيها عاملان رئيسيان ساعدا على هذه الرقة والسهولة والوضوح، هما: ظروف الشاعرين الحياتية، وثقافتها العصرية، إضافة إلى طبيعة الموضوع الذي يتحدثان عنه ويخاطبان فيه جماهير أمتنا الإسلامية والذي يقتضي سهولة الألفاظ وبساطة الأساليب، دون تعقيد أو غموض ليكونا قريبين منهم سواء في الألفاظ أو في المعاني والأفكار.

ومن النماذج الجزلة الألفاظ، القوية التراكيب، والتي تمتاز بالصور الأدبية الفخمة المتدفقة: قصيدة للشاعر / أحمد محرم / بعنوان "الخلافة الإسلامية ونكبة آل عثمان" ومنها:

أعن خطب الخلافة تسألينا	أجبي يا (فروق) فتى حزينا
هوئى العرش الذي استعصمت منه	بركن الدهر، واستعليت حينا
فأين البأس يفتح المنايا	ويلتهم الكتائب والحصونا؟
وأيمن الجاه يغمر كل جاه	وإن جعل السمك له سفينا؟
تدفق يأخذ الأقطار طرا	وينتظم القياصر أجمعينا

فانظر إلى هذه الألفاظ الجزلة والصور الأدبية الرائعة التي استمدتها الشاعر من معجمه الشعري المتميز الذي استوحاه من هول المناسبة وطبيعة الحدث. إضافة إلى الرصيد الكبير من الكلمات الشعرية السلسة الألفاظ والعذبة المعاني من ألفاظ السابقين، فقد طعمها الشعراء المعاصرون بألفاظ مستحدثة، واستطاعت أن تؤدي دورها في الحياة نظرا لما يمتاز به الشاعر المعاصر من الثقافة الشاملة المتعددة الروافد، ومن الاطلاع الواسع والبحث العميق الذي يقوده بالتالي إلى التعبير الفني ذو الشكل الرائع والمضمون الشامل:-

انظر إلى قصيدة "الزحف المقدس" للشاعر / عمر بهاء الدين الأميري حيث يقول:

شمري يا شعوب نبني الكيانا	وطدي باسم ربنا الأركاننا
وأقيمي قواعد الدين صرحا	مشمخرا واسئلهمي الدياننا
منهج الفتح للغد المتمني	وأعدي الجهاد والإيماننا

وكذلك إلى قصيدة "النصر للإسلام" للشاعر مأمون فريز جرار حيث يقول:-

كفكف دموعك. فالإسلام منتصر	ونوره في سماء الكون منتشر
هذي البشائر في الآفاق قد لمعت	بروقها. وجيوش الليل تندحر

وهكذا تتناسب الألفاظ والتراكيب والصور سهلة قوية وقريبة التناول في تصوير أدبي يأسر القلب ويأخذ باللب، حيث تظهر فيه الألفاظ فصيحة سهلة النطق بعيدة عن الوحشي والغريب من القول، وهي بحق تلائم ألفاظ العصر الحديث التي قيلت فيه، وهو ما يسمى بعصر البحث والإحياء.

ب- البناء الفني:

اهتم الشعراء الأقدمون ببناء القصيدة وإحسان بنائها، وأعملوا الفكر والحواس في هندستها وإقامة هيكلها، وخاصة فيما يتعلق بالقصائد الطويلة أو المطولات،

وتعدد الأغراض في القصيدة الواحدة، وقد اتسم الكثير من هذه القصائد بوحدة الموضوع والتمازج التام بين الشكل والمضمون.

وعلى كل حال فقد حذا شعراء الأصداء حذو القدماء في كثير من أسس البناء الفني للقصيدة العربية التقليدية والذي يتكون من:-

١- بناء الفكرة:

ويقصد بها المعاني التي تدور حولها القصيدة، وطبيعة هذه الأفكار، ومدى تسلسلها وانسجامها في وحدة موضوعية أو فكرية أو عدم انسجامها.

٢- البناء الشكلي:

وهو نوعان:

أ- البناء الشكلي الخارجي:

ويقصد به كيفية ربط هذه الأفكار في تسلسل أبياتها وتناسق معانيها وترتيب الوحدة الفنية التي تكون محصورة في إطار قوالب الأبيات وترابطها.

ب- البناء الشكلي الداخلي:

ويقصد به ما في داخل القصيدة من علاقات تجسم المعاني التي تشع من التكرار والتوازن والتقابل بين الألفاظ والعبارات، فإنه يعطي نوعاً من الإيقاع الموسيقي، فيعني التصوير بمعان جديدة تضاف إلى معاني الألفاظ وإحياءاتها ويضاف إلى معاني الأسلوب واستدعاءاته. (١)

كما حرص الشعراء المحدثون على القديم من الشكل، وأعرضوا عن كثير من عناصر القصيدة القديمة مثل المقدمات، وعدم الالتزام بالاستهلال بالأطال أو التشبيب، متميزين بالبناء الفكري المنظم الذي يقوم على الحجة والبرهان، الزاخر

(١) ب / محمد إبراهيم المطرودي / الشريف الرضي وأدبه.

بالثراء الفكري والمعنوي والمعاني السامية، المستلهم من أعماق القلب والوجدان،
المسخر في أغلب نماذجه لخدمة المجتمع وقضاياها.

ولقد اتسم شعر الأصدااء الذي بين أيدينا بمثل هذه السمات التي ذكرناها،
ولعل في النماذج التالية منه، خير ما يدل على هذا البناء الفني لجزل الألفاظ
والقوي التراكيب، الملى بالصور البيانية والبديعية المجنحة.

ففي قصيدة "وقفه على طلل للشاعر / محمود غنيم يقول:-

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه	أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
إنني تذكرت والذكرى مؤرقة	مجدا تليدا بأيدينا أضعنناه
ويح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى في زواياه
أنى اتجهت إلى الإسلام في بلد	تجده كالطير مقصوصا جناحاه

ثم يقول:

أنى لأعتبر الإسلام جامعة للشرق .. لا محض دين سنة الله

فأنت تلمح في هذه الأبيات، كما ذكرنا، قوة الألفاظ والتراكيب، وروعة
التصوير والتجسيم، والإيقاع الداخلي الذي يهز النفوس ويثير انتباه القارئ
والملتقي.

وكذلك الأمر في قصيدة "الإسلام دين ودولة" للشاعر محمد الأنبي حيث

يقول:-

أفكر طول الليل .. والليل كالح	وأرخي زمام الفكر والفكر جامع
معاقلنا قد أصبحت أثرية	فيسخر من أطلالها الفقر سائح
مساجدنا تبكي الشباب من الجفا	وغصت بهم دور الخنا والمسارح
مدارسنا ماجت بكل ملوث	يصاب بعدواه الحجا والجوارح
أيرجى صلاح والمدرس فاسد	أصلح جيل والمعلم طالح

ومن قراءة هذه النماذج، يتضح لنا تميز هذا الشعر ببناؤها الفني، وخلوه من التعقيد اللفظي والمعنوي، مع الوضوح والنهج على سنان القصيدة الحديثة، والتي تخلو كما ذكرنا من المقدمات والالتزام بالاستهلال بالأطال والتشبيب، علاوة على أن اللغة التي استعملت فيه هي اللغة المألوفة والبعيدة عن المحسنات اللفظية والبديعية المتعمدة.

ج- الوحدة العضوية والموضوعية:

تتمثل الوحدة العضوية للقصيدة في وحدة المشاعر التي تستقطبها، وفي كيفية ترتيب الصور والأفكار ترتيباً متنامياً تتخلق من خلاله القصيدة تخلقا عضوياً طبيعياً، يفضي كل جزء إلى وظيفته إفشاء متسلسلاً، بحيث نصل في النهاية إلى بنية حية للقصيدة تتشابه تماماً ببنية الكائن الحي في انسجامها وتشكيلها الطبيعي، والوحدة العضوية قد تقوم على أساس من الوحدة الموضوعية، إلا أنها تتجاوز وحدة الموضوع إلى وحدة البناء العضوي الذي لا يستقل فيه بيت عما سبقه وما لحقه، ومع ذلك فينبغي أن نفهم الموضوع فهماً شعرياً بعيداً عن جفاف الفهم النثري المحدد للموضوع، لأنها أي الوحدة الموضوعية - توضح إحساسات من جنس واحد، وتثير أفكاراً من نوعية واحدة وتحدث آثارها في المتلقي على نحو متقارب، مما يؤهل بالفعل، في ظلال هذه الأبعاد الثلاثة، لميلاد الوحدة العضوية التي تصبح نتاجاً طبيعياً لوحدة الإحساس ووحدة التعبير ووحدة الأثر .. أي وحدة الربط الموضوعي والنفسي بين موجات القصيدة في مدها وانسياقها جميعاً .. (١).

وعلى هذا القياس فإن في قصائد شعر الأصداء على كثرتها وتنوعها تبدو لنا الوحدة الشعرية والموضوعية جليلة وواضحة، كما وأنها قد طرحت مواضيعها بشكل واقعي ملتزم، وتدور حول محور واحد: هو محور الخلافة الإسلامية

(١) د / محمد أحمد العزب / عن اللغة والأدب والنقد / رواية بلاغية ورؤية فنية.

والوحدة الإسلامية، وتبدو كأنها قصائد متكاملة ذات موضوع واحد، حيث إن المؤثر في التجربة عامل واحد، كما أن المعاني في الأبيات تدور حول محور واحد أيضاً، ومع ذلك تبقى أوجه المفاضلة بين الشعراء، تابعا للأسلوب الفني وطريقة التصوير فيما بينهم. "والاهتمام بالوحدة العضوية في القصيدة له دلالة نفسية، إذ يعكس هذا الاهتمام نفوسا ناضجة ذات عواطف وخوارج مركبة، الشعر القائم على وحدة الموضوع له سمات متميزة عن سائر الشعر، وأول هذه السمات: طول نفس الشاعر، وقدرته على ملاحقة المعنى وتتبعه بالاسترسال فيه، وإن ذلك من شأنه أن يزيد المعنى وضوحاً ويوفر للنص وحدته الموضوعية والنفسية، والسمة الثانية التي تطبع هذا الشعر: أنه لا يقبل التقديم والتأخير في الأبيات، وأنه يخضع للتسمية والعنونة ضمن غرض واحد.

والوحدة العضوية بما أنها الوحدة المعنوية في النص تعني "أطراف الخواطر والمشاعر في جميع أبيات القصيدة"^(١).

وعن الوحدة العضوية في القصيدة أيضاً يقول العقاد "إن القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه، والصور بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها"^(٢).

ونحن لو رجعنا لنلقي الضوء على شعر الأصداء، ونكشف عناصر الوحدة العضوية المتمثلة فيه، فسوف نجد أن الوحدة العضوية والشعرية متوفرة سواء في القصيدة الواحدة أو في مجموع هذا الشعر بشكل عام، وهي من الواضوح والظهور بحيث لا تحتاج إلى بيان، نظراً لأن هذا الشعر قد تم اختياره بالأصل ليمثل هذه الوحدة التي تدور حول محور الخلافة الإسلامية بشكل واضح وجلي.

(١) د / إبراهيم الحاي / حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي.

(٢) د / بدوي طبانة / قضايا النقد الأدبي.

فعلاوة على الوحدة العضوية التي جاءت في المقطوعات القليلة الأبيات، فإنك تجد هذه الوحدة أيضاً في القصائد الطويلة متعددة الأغراض، وتستطيع أن تلمحها في مثل قصيدة "الخلافة الإسلامية ونكبة آل عثمان"^(١) للشاعر أحمد محرم والتي مطلعها:-

أعن خطب الخلافة تسألينا أجيبني يا (فروق) فتى حزيناً
وكذلك في قصيدة "خلافة الإسلام"^(٢) للشاعر أحمد شوقي، ومطلعها:-

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
ونرى هذه الوحدة أيضاً في قصيدة "إسطمبول" أو إسلامبول للشاعر / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .. ومطلعها:-

يا ذا الجناحين حط الرحل مزدانا إذا وصلت إلى اسطمبول نشوانا
إلى غير ذلك من القصائد، التي تشهد بالوحدة الموضوعية في شعر الأصدقاء، ونلمح فيها التسلسل والترابط الشديدين، والتي أودعها منشئوها كل ما يشغل مجتمعهم ويهم عالمهم الإسلامي الكبير.

د- الموسيقى:-

تلعب الموسيقى دوراً أساسياً كأداة من أدوات التشكيل في البناء الشعري، وهي خاصية عظيمة من خصائص اللغة، وذلك لما لها من أثر عميق في التأثير على روح الإنسان وأحاسيسه، وقدرتها على مخاطبة عواطفه وجذب مشاعره. والشعر عادة لا يتطلب عاطفة وخيالاً جميلاً فحسب، بل يتطلب إلى جانب ذلك تلك الموسيقى المؤثرة، وذلك لأهمية الجانب الصوتي في البنية العامة له.

(١) أنظر / الباب التالي / الفصل الأول /:

(٢) أنظر / الباب التالي / الفصل الأول / ص:

ومما هو جدير بالذكر فإن الموسيقى الظاهرية تتشكل من عدة عناصر أهمها:

الأوزان والبحور والقوافي والروي وغير ذلك، فبالنسبة للأوزان والبحور في شعر الأصدقاء، فإن الشعراء قد داروا على معظم الأوزان الشعرية المعروفة، ونسجوا قصائدهم على أساسها، ولم يخرجوا على أعاريض واحد منها، وذلك لأن "الوزن يعتبر أهم مصدر لموسيقى الشعر، والذي ينشأ من تحرك الحروف وسكونها في البيت الشعري، فيجري منساقاً على نظام خاص ناشئ من تكرار الوحدة العضوية الناشئة من الحركة والسكون، وهذه الوحدة تسمى "تفصيلات" وكل التفصيلات في نسق خاص بالمقطوعة الشعرية الواحدة تسمى الوزن، والمعول عليه في هذا الوزن هو النطق لا الكتابة"^(١).

ونحب أن نشير هنا إلى أن بعض النقاد والباحثين قد درسوا العلاقة بين الوزن الشعري والحالة النفسية للشاعر، ومدى انعكاس ذلك على اختيار الشاعر للبحر الذي يتناسب مع حالته النفسية" وفي الحقيقة بأن الراصد للشعر العربي قديمه وحديثه يجد أن الشعراء قد نظموا على البحر الواحد جميع الأغراض الشعرية المعروفة، لذلك فإنه لا يمكننا أن نحدد البحر أو الوزن الشعري من خلال ارتباطه بحالة الشاعر النفسية، غير أنه يمكن القول بأن الملكة الشعورية، وصدق المعاناة لدى الشاعر، قد توحيان بالتناسب بين الأوزان الشعرية والمعاني المنظومة، وتشكلان علاقة متناغمة فيما بينهما.

وحين نلقي نظرة على الأوزان الشعرية في شعر الأصدقاء فسوف نرى - وكما سبق ذكره أن الشعراء قد نظموا هذه الأشعار على معظم البحور والأوزان الشعرية المعروفة، واختاروا مفرداتها وألفاظها بحيث تتفاوت بين الرقة والجزالة وذلك بحسب الموضوع الذي يطرقونه، ولكن ما يجمع بينها أنها قد سلمت من تنافر

(١) د / إبراهيم الحادي / حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي ص ٢٤٢.

الحروف، وخلت من الغموض والتعقيد اللفظي والمعنوي، كما أنه لا يخفى علينا ما في هذه الأشعار من الإحياءات والموسيقى الداخلية المثبوتة من خلال الأبيات، انظر إلى هذه الأبيات من شعر الأصدقاء، التي تذوب رقة عذوبة وسلاسة موسيقية ظاهرة، وذلك في قصيدة "سقوط الحضارة" للشاعر عبد الرحمن لعبيد:-

أشرق بنورك يسري في دياجيتها	فضلمة الجهل والإلحاد تشقيها
عد بي دولة الإسلام شامخة	إن مات صانعها ما مات راويها
هزت عروشا لكسرى في تجبره	وسفحت دولة الرومان تسفيها
واستسلمت أمم للحق طائعة	وإن أبت فهي مولى من مواليتها

فهذه الأبيات من البحر البسيط ذي السلاسة الخلابية والوسيقى الظاهرة المثبوتة داخل الأبيات والتي اكسبتها تلويحاً صوتياً خاصاً، وانظر كذلك إلى هذه الأبيات من قصيدة "يا رب" للشاعر / محمد مصطفى حمام:-

يا من يجيب التائبين دعاك من	صدق المتاب فهل تجيب سؤاله
المسلمون ودينهم في محنة	لم يخف حالهم عليك وحاله
وأراهموا متفرقين كأنهم	جسم سوي مزقت أوصاله
وأراهموا قد مكنوا لعدوهم	فتملكت أعناقهم أغلاله
صال العدو عليهم متجبراً	واشد فيهم بطشه ونكاله
يا رب ألزمتنا طريقك تتصرف	عنا مآسي يومنا ووباله

هـ- الظواهر البلاغية:-

في شعر الأصدقاء الذي يمتد إلى مساحة زمنية واسعة تقدر بحوالي سبعين سنة من ١٩٢٤ - ١٩٩٤م، والذي شارك فيه العديد من الشعراء بمختلف مذاهبهم الفنية والبلاغية.

يطول بنا المقام إذا رصدنا جميع الظواهر البلاغية فيه ولذلك فسنحاول إلقاء الضوء على بعض هذه الظواهر والأساليب مما يدل على القيمة الفنية لهذا الشعر بشكل عام وذلك من حيث:

أولاً: الصور الشعرية والأخيلة.

ثانياً: المحسنات البديعية والصنعة اللفظية.

أولاً: الصور الشعرية والأخيلة:-

من المعروف أن الصور هي الوسيلة التي ينقل بها الأديب عواطفه ومشاعره إلى المتلقين فتجعلهم يحسون بنفس مشاعر الأديب، والصور إما صور خيالية تقوم على عنصر الخيال، كالتشبيه والاستعارة والكناية، وإما صور شعرية.

وقد ظلت الصورة القديمة تسيطر على الكثير من الشعراء المحدثين وتأسرهم، ومعينا لهم يغترفون منه صورهم، غير أن العديد منهم، استطاع أن يرتقي بهذه الصور ويطورها فركبوا فيها صوراً أخرى جديدة، بدت فيها أكثر إشراقاً ولمعاناً.

"والصورة الشعرية هي ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر ويبرز تمكنه من الصنعة، وهي الصيغة الأدبية التي يقدم فيها الأديب فكرته ويصور تجربته" (١).

وهي أيضاً قيمة فنية بكل معانيها وعنصر حيوي في تناول الشعري وصياغاته الأسلوبية.

وقد عرفها الدكتور زكي مبارك بقوله "هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف (المرئيات) وصفا يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة شعر أم يشاهد منظرًا من مناظر الوجود، والذي يصف (الوجدانية) وصفا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه،

(١) د / عبد الفتاح صالح نافع / لغة الحب في شعر المتنبي ص ٢٩٠.

ويحاور ضميره، لا أنه يقرأ قطعة ممتازة لشاعر مجيد"^(١) . وذكر الدكتور مبارك أيضا أن شرط الصورة الشعرية هو الإحاطة بالموصوف، وتسجيل جميع جوانبه.

وإذا بحثنا في شعر الأصداء فسوف نجد أن الكثير منه يزخر بالصور المشرقة والخيال المجنح ومعظم الظواهر والألوان البلاغية المتنوعة، تلك الألوان التي تأتي مما تستدعيه التجربة الصادقة والرغبة الجامحة، لا من قبيل التكلف والصنعة، وفي هذا الشعر لا يقتصر الخيال على التشبيهات والمجازات الحسية فقط، بل نراه يشمل روح القصيدة وخواطرها، وينقل إلينا تجربة عميقة وشعورا قويا، وينقلنا إلى جو يسيطر عليه صدق الانفعال وقوة الخيال.

وفي ما يلي من النماذج سوف نرى العديد من الصور الفنية الراقية التي تؤيد ما ذكرناه فلننظر إلى هذا المقطع من قصيدة "النصر للإسلام" للشاعر / مأمون فريز جرار الذي يقول فيها:-

أعداؤنا أحكموا يا صاح خطتهم	لكنهم في الذي قد خططوا فشلوا
سرنا وراءهم كالشاة إذ تبعت	جزارها لا ترى ما يرسم القدر
حتى انتبهنا على صوت يحذرنا	إن الطريق ظلام كله حفر

فسوف نرى أن الشاعر يصور حال المسلمين الذين يسيرون خلف أعدائهم على طريق الغواية والضلال بحال الشاة التي تتبع جزارها وقاتلها بغير هدى وبصيرة، ولا شك فإن هذا المقطع يقوم على الصورة الواضحة الجميلة، ورغم أنها تقليدية وغير مبتكرة، فإن صياغتها جاءت قوية وحافلة بالعديد من عناصر الجمال والفنية.

ولنتأمل كذلك في هذا المقطع من قصيدة "وقف على طلل" للشاعر / محمود غنيم الذي جاء فيه:-

أن اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصا جناحاه

(١) د / زكي مبارك / الموازنة بين الشعراء ص ٦٤.

فالصورة كما يبدو هنا حسية بصرية، صور الشاعر فيها أحوال الدول الإسلامية العديمة الحول والقوة بسبب الأوضاع السيئة فيها وهيمنة الإستعمار عليها، وشبهها بحال الطائر الذي لا يقوى على التحليق والطيران بسبب فقدانه لجناحيه، ولا شك أن الصورة كانت موفقة وواضحة وقد لامسها الخيال برفق وتؤده.

وإذا ما تبعنا الصور والأخيلة في شعر الأصدقاء، فإننا ما نزال نعثر على الكثير من الصور الجميلة والأخيلة المجنحة.

ففي قصيدة "كنا لها لا روم لا ساسان" للشاعر / محمد كامل الآني، الذي جاء فيها.

وسفينة الإسلام تمخر لجة	يحدو سراها الأمن والإيمان
صاغت خلافتها السماء وأشرفت	منها الدنيا وتحرر الإنسان
هي ملة الإسلام تجمع بيننا	حبا وإن بعدت بنا الأوطان
هي دوحة كبرى تقيأ ظلها	وتمايلت بفروعها الأفنان
نشرت لها علما يرفرف عاليا	والكل تحت لوائه إخوان

سوف نجد أنفسنا أمام لوحات من الصور المتنوعة والمتحركة، التي استعان بها الشاعر بالتوضيح التشبيهي والتقريب الاستعاري، والتقت مع القناعات الذهنية له، بمعنى أنه أتاح للسامع قراءة الصور الحسية والذهنية معا.

ومن هذه الصور الجميلة ذات الجزيئات المتكاملة والأجزاء المتضامنة، التي تبدو وكأنها لوحة شعرية مميزة، هذه الأبيات من قصيدة "يا أمّتي" للشاعر أحمد محمد الصديق الذي يقول فيها مخاطبا أمة الإسلام:-

عودي إلى الإسلام عودي	وتسلمي عرش الوجود
عودي إلى النبع الأصيل	إلى نبوغك من جديد
عودي إلى الأمجاد بعد متاهة	الفكر الشررود

بعد ارتحال لاهـث	خلف السراب بلا ورود
بعد التخبـط في الدجـى	الحيران ضائعة الجهود
بعد انحسار الليل	عن صرخات مقرر شريد
بعد التمزق والتشـتت	في الفيافي والنجدود
يا أمـتي هـلا صحـوت	على الصواعق والرعود
عجبا كأنك لعبـة	في قبضة الخصم اللدود
لك صبغة الرحمن	أشرف ما اكتسبت من البرود

حقا فإن هذه الاستعارات والتشبيهات والكنيات، التي تتجمع جزئياتها لتكون لوحة متكاملة كما ذكرنا، جاء تصوير الشاعر لها نابضا بالحياة والحركة، وصور لنا صورة جميلة تتفرع منها صور جزئية كثيرة يسلم بعضها إلى بعض في تسلسل قوي واضح.

ويرسم أيضا الشاعر / محمد الخضر حسين صورة موحية نابضة بالحياة والخلود، ندب فيها الخلافة الإسلامية حيث يقول فيها:-

ما خطب قوم طالما وصلوك	واعتر باسمك عرشهم هجروك
حرسوك أحقابا .. وحلق صيتهم	في الخافقين لأنهم حرسوك
كنت الوقار على وجوه غزاتهم	والأمن إن نظروا بعين ضحوك
كنت البطولة تزدري نار الوغى	والنصر يعقد بالقنا المشبوك
ما زالت سمط قلادة خزائنها	أمم بأعلى فدية تفديك

فهذه الصورة المشعة للخلافة، الغنية بالتفاصيل المتلاحقة والتي تحفل بعناصر عديدة من الجمال الفني، هي صورة نفسية متكاملة الخطوط والألوان، وليست معقدة ولا مغرقة في الإحالة والخيال، وتعكس نفسية الشاعر وانطباعه عن هذه الخلافة التي تمثل قمة الافتخار والعز والكرامة للمسلمين.

ومثل هذه الصور المتكاملة، نجدها كثيرة مبثوثة في شعر الأصدقاء، وسنكتفي هنا بهذا القدر الذي قدمناه من هذا النوع من الصور.

أما فيما يتعلق بالصور الجزئية الغير متكاملة من تشبيه واستعارة "وكناية"؛ فهي كذلك متوفرة في شعر الأصداء بشكل طبيعي، قريب المأخذ وبقدر ملحوظ، حيث تم استخدام هذه الألوان بجميع محاسنها وفنيتها للتعبير عن الموضوعات الشعرية المطروحة في هذا البحث؛ تجاوبا مع الروح العصرية الحديثة التي يمثلها شعراء الأصداء ذووا الثقافة المتميزة والاطلاع الواسع.

وسوف نذكر بعض هذه الأساليب ذات الصور الجزئية فيما يلي:-

أ- التشبيهات :

التشبيه هو: بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدرة تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه^(١).

والتشبيه لسهولة إدراكه يحدث أثرا في النفس يختلف عن الآثار التي يحدثها غيره من الأساليب البلاغية، وفي هذا المعنى يقول أبو هلال العسكري "التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً"^(٢). والتشبيه أسلوب مهم من أساليب البلاغة في جميع ميادين القول؛ لأنه أداة سهلة لإيصال المعنى إلى المتلقي بكل سهولة ويسر، وقد أكد على أهمية ذلك الناقد عبد القاهر الجرجاني بقوله "إذا جاء التمثيل في أعقاب المعاني كساها أبهة ورفع من أقدارها".

وفي شعر الأصداء سوف نعثر على العديد من أساليب التشبيه المختلفة. من ذلك: هذا البيت من قصيدة "الزحف المقدس" / للشاعر عمر بهاء الدين الأميري بقوله:-

نحن في يومنا بغاث إذا لم نتخذ هدى ديننا فرقانا

(١) د / أحمد أبو عجمة / علوم البلاغة.

(٢) أبو هلال العسكري / كتاب الصناعاتين.

ففي قوله "نحن في يومنا بغاث" تشبيه بليغ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه.

- ومنه البيت التالي من قصيدة "الوداع" للشاعر / محمد الحسناوي
فإذا العروبة راية معقودة لله للتوحيد للفرقان

ففي قوله: العروبة راية معقودة تشبيه بليغ

- ومنه هذا البيت من قصيدة "سلاما فروق" للشاعر جميل علوش
وشمرت للدين الحنيف مغلبا فواعبجا أنت الاجم وتنطح

في قوله: أنت الأجم تشبيه بليغ أيضا

- أما التشبيه الذي نلمحه في قصيدة "روح وريحان" للشاعر / وليد الأعظمي
في قوله :

"قرآنكم" يا مسلمون سناؤه كالبدر في كبد السما يتألق
فهو: تشبيه تمثيلي.

أما أساليب التشبيه المفرد فهي من الكثرة بمكان، ومن أمثلة ذلك قوله:-
المسلمون على الدروب بلا هوى متفرقون كتائه القطعان
وقوله من قصيدة "الفوز بالقرآن" للشاعر بهاء الدين الأميري.

الشرق والغرب كالقرطاس في يده فلا يرى فيه مملى الخط عصيانا
وقوله من قصيدة "اسطمبول" للشاعر عبد الرحمن الميداني.

كأن الذي يمشي على الأرض هاللك من الحذر والسكران
وقوله من قصيدة "ملحمة القسطنطينية" للشاعر / عدنان النحوي

هذا الشموخ كأنه أسطورة خفيت وراء جلالها الأشعار

إلى غير ذلك من أساليب التشبيه المختلفة والذي تكسب هذا الشعر جلاء ووضوحاً، وقد وردت فيه عفو الخاطر ودون أدنى تكلف ومعاناه.

ب- الاستعارة

الاستعارة بشكل عام هي ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهي فن بلاغي تداوله العرب في ملثورهم الأدبي، وقد عرفها الجاحظ بقوله "إنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"^(١).

وأسلوب الاستعارة أيضاً من الأساليب البلاغية التي تؤثر في النفس، وركيزة من ركائز الأسلوب الأدبي، وتتجلى بلاغتها في أنها تجمع بين الحقائق المتباعدة، وإنها تعطي المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهي مع هذا تجسد الانفعالات، كما أنك تلمس في الاستعارة الجدة التي تأنس بها النفس، وتجد أن الكلمة الواحدة تصاغ في أكثر من قالب، وتصور بأكثر من ريشة واحدة، ومع هذا فكل صورة جمالها الخاص وأسباب حسنها.

والاستعارة ملازمة للأدب الخالص شعراً ونثراً، وهي الأداة السحرية التي تخرج الحشود النفسية المزدخرة، وتخلق بأجنحة رفاقة من الصور المعبرة، وقد حفل شعر الأصدااء بالعديد من الاستعارات النابعة من انفعال الشعراء بموضاعاتهم انفعالاً خصباً، جعل المعنى يتغلغل في إدراكنا تغلغلاً روحياً دافقاً، وسوف نذكر فيما يلي وعلى سبيل المثال جملة من الأبيات الشعرية التي تحمل مثل هذه الاستعارات والصور الجزئية ومثال ذلك:-

قال الشاعر / معروف الرصافي في قصيدة " ما بال قومي "

ثم اغتدوا بعد حين في جوانحهم نار التخاذل بالشحناء تضطرم

(١) الجاحظ / البيان والتبيين ح ١ ص ١٥٣.

الاستعارة في نار التخاذل

وقال الشاعر معروف الرصافي أيضاً في قصيدة "نحن والحالة العالمية"

فاعتصمنا منها بحبل وثيق هو حبل الإخاء والإيمان

الاستعارة في حبل الإخاء

وقال الشاعر / أحمد محمد الصديق

فعلام لا تصفو القلوب ويمحى صدأ القلوب وتستوي الأفكار

الاستعارة في صدأ القلوب

وقال الشاعر الدكتور / عدنان على رضا النحوي في قصيدة "ملحمة التاريخ"

تلقني رصاص الغدر من كل جانب وردّي سهام الموت عن لَهجات

يوجد استعارتان في رصاص الغدر، وسهام الموت.

وقال الشاعر / محمد مصطفى البلنخي في قصيدة "من وحي يوم عرفة"

قطعوا حبال الدين فيما بينهم وعرى العقيدة أوثق العزوات

يوجد استعارتان في حبال الدين، عرى العقيدة

وقال الشاعر عبد الرحمن العبادي بمناسبة انتهاء القرن الرابع عشر الهجري

يا سيد الرسل قد باتت عروبتهم سيفاً به هتكت للدين أستار

الاستعارة في هتكت للدين أستار

وقال الشاعر أحمد محمد الصديق في قصيدة / حمامة الحرم الشريف

في رحاب الطهر قلب خاشع يجلو الهموم ويغسل الآثام

الاستعارة في يغسل الآثام.

والمستمعين للأبيات السالفة وغيرها مما لم نذكره في هذه الدراسة، يجد أن حظ الاستعارة فيها كان مقبولا، والتكوين الاستعاري يستأهل منا الوقوف، وذلك نظرا لأهمية أسلوب الاستعارة بين أساليب الأدب العربي بشكل عام، وأثرها القوي على النفوس، لذلك لا نستغرب إذا ما لجأ إليها شعراء الأصداء، وذلك لأنها عنصر جوهري لتشخيص وتجسيم مظاهر الطبيعة، والتعبير عن مشاعرهم إزاء مظاهر السلوك الإنساني، تسمو بالمعنى العام الذي نتحدث عنه وتوظفه^(١).

ج- الكناية:

يقصد بالكناية : كل لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته.

وهي تكون إما كناية عن صفة، أو كناية عن موصوف، أو كناية عن نسبة، والكناية تقوم على التلميح لا على التصريح، تعتبر أعم من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل، والفرق بين الكناية والمجاز هو جواز إرادة المعنى الأصلي اللغوي للكلمة في الكناية، وعدم جواز ذلك في المجاز.

هذا وقد زخر شعر الأصداء بالعديد من أساليب الكناية، مثلها مثل غيرها أساليب البلاغة المختلفة وفي الأبيات المختارة التالية، دليل على وجود هذه الأساليب.

- وقال الشاعر: د/ يوسف القرضاوي، في قصيدة "إليك يا ابن الإسلام:

والزم طريق رسول الله في ثقة وفي اعتدال وجانب خلط من خلطا

ففي قوله: الزم طريق رسول الله: كناية عن الاستقامة والاعتدال واتباع السنة وهي كناية عن صفة.

(١) أنظر / علوم البلاغة / مرجع سابق.

- وقال الشاعر: إبراهيم أحمد عبد الفتاح، في قصيدة "الرأية الإسلامية"
لهفي على علم مال الزمان به إلى الرغام ذليل الشأن متضعا
ففي قوله: علم مال الزمان / كناية عن السقوط والهوان، وهي كناية
عن صفة.

- وقال الشاعر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، في قصيدة "اسطمبول"
يا ذا الجناحين حط الرحل مزادنا إذا وصلت إلى إسطنبول نشوانا
ففي قوله: يا ذا الجناحين، كناية عن الطائرة، وهي كناية عن موصوف.
- وكذلك في قوله بنفس القصيدة

قواعد الحق أرست مجدها حقباً قرونها قبضة لم تخش أقراناً
ففي قوله: قرونها قبضة "أي مدة خمسة قرون .. وهي كناية عن موصوف.

- وقال الشاعر محمود غنيم في قصيدة "وقفة على طلال"
مالي وللنجم يرعاني وأرعاه أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
وفي قوله: يعاف الغمض جفناه، كناية عن عدم النوم والقلق وهو كناية عن
نسبة.

وكذلك قوله في نفس القصيدة :

ويح العروبة كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياها
في هذا البيت كنایتان: الأولى: كان الكون مسرحها كناية عن الاتساع والغلبة
وهي كناية عن صفة.

الكناية الثانية في قوله: تتوارى في زواياها، كناية عن صغر الحجم وقلة الشأن
وهي كناية عن صفة أيضاً.

- وقال الشاعر / محمد كامل الآني في قصيدته "كنا لها روم لا ساسان" صاغت خلافتها السماء وأشرقت منها الدنيا وتحرر الإنسان ففي قوله: صاغت خلافتها السماء: كناية عن القديمة والأهمية هي كناية عن موصوف.

- وقال الشاعر: معروف الرصافي، في قصيدته "نحن والحالة العالمية" وحدة جاءنا من الله فيها مرسل بالكتاب والفرقان ففي قوله: مرسل بالكتاب والفرقان، كناية عن سيدنا محمد (ﷺ) وهي كناية عن موصوف.

- وقال الشاعر: د / جميل علوش في قصيدته "سلاما فروق" يرون مساجدنا تستباح ولا يسهمون بعود ثقاب ففي قوله: ولا يسهمون بعود ثقاب: كناية عن عدم الإغاثة والمساعدة وهي كناية عن نسبة.

وهكذا يتضح لنا كيف وظف شعراء الأصداء الكناية في شعرهم بطريقة عفوية وبعيدة عن التكلف والمعاناه.

ثانيا: المحسنات البديعة والصناعة اللفظية:

الأسلوب أحد عناصر العمل الأدبي المهمة، وهو لا يكتفي بالدقة والوضوح، كما لا يكتفي بمعاني الكلمات الحرفية وذلك نظرا لأن الكلمات كما هو معروف تعبير طبيعي عن الأفكار ورموز للأغراض لا المشاعر، لأن غاية الأدب تصوير الإحساس الراقى وبعثه، لذلك يستعين الأديب فيه بحسن التأليف والموسيقى ليبلغ به أوجا من القوة والجمال فيستجيب إلى مرتقبات الذوق والوجدان، فإنه لا بد

للأسلوب الأدبي من صنعة^(١) . وهذه الصنعة تدخل تحت مسمى علم البديع، الذي يمكن تقسيمه من حيث:

١- المحسنات المعنوية:- وهي التي يكون التحسين بها راجعا إلى المعنى أولا وبالذات مثل الطباق.

٢- المحسنات اللفظية:- وهي التي يكون التحسين بها راجعا إلى اللفظ أصالة، وإن حسنت المعنى تبعاً، إذ ينتقي حسن اللفظ ويصبح مرذولاً إذا لم يتطلبه المعنى وإذا لم يكن ذا أثر في النفس، وعلامة المحسنات اللفظية أن تغيير اللفظ بما يرادفه يفسد حسنه، وذلك مثل الجناس.

وهذه المحسنات المعنوية أو اللفظية تقبل لدي المتلقي إذا كانت بعيدة عن التصنع، قريبة من السليقة، أما إذا قصد بها الزخرفة والبهرجة الزائفة فهو يحبط من قيمة النص الفنية، ويبعد الكتابة عن الذوق الصافي والتعبير السليم، وشعر الأصدقاء يحفل في بعض جوانبه بالكثير من أساليب علم البديع دون قصد منه أو تكلف، وسنكتفي هنا بدراسة أسلوبين من أساليبه وهما:-

١- الطباق ٢- الجناس

١- الطباق: ويعرف بأنه: الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، والمتفحص لشعر الأصدقاء سوف يعثر على العديد من الأبيات الشعرية التي يتغلغل فيها ثنائياها مثل هذا الأسلوب، وبين يدينا مجموعة من هذه الطباقات نختار منها ما يلي:-

قال الشاعر / د / عدنان علي رضا النحوي / في قصيدة "ملحمة التاريخ"

حبست الهوى أمسكت حبل شكاني وأرخت للأيام .. حبل أناتي

(١) د / محمود أحمد أبو عجمية وآخرون / علوم البلاغة ص ١٤٣.

نلاحظ في البيت طباقين:- أحدهما بين الفعلين أمسكت وأرخت والآخر بين الاسمين شكاتي وأنايتي:-

- وقال الشاعر / محمد مصطفى البلخي / في قصيدة "توحيدها أقوى على توحيدها"

لا فرق بين ديار أمة أحمد فقريبها في الدين مثل بعيدها
الطباقي هنا بين الاسمين قريبها وبعيدها.

- وقال الشاعر / معروف الرصافي:-

قد أنهضتهم إلى العلياء وحدتهم واليوم أقعدهم عنها أن انهزموا
الطباقي بين الفعلين أنهضتهم وأقعدهم

- وقال الشاعر محمد الشاذلي الخزنة دار في قصيدة "الانقلاب الكمالي".

ما كنت مادحهم إلا لما صنعوا ما كنت هاجبهم إلا لما ارتكبوا
فالطباقي هنا بين اسمي الفاعل: مادحهم وهاجبهم

- وقال الشاعر: محمد الأخضر السائحي في قصيدة "ليلة القدر"

وإلا اجتماعا في الصفوف ووحدة فلا يقبل الدين التفرق والنكرا
الطباقي هنا بن الاسمين:- الاجتماع والتفرق

- وقال الشاعر / د / أمجد الطرابلسي في قصيدة "أيا صوفيا"

"أيا صوفيا" تذري الدموع وتسفح وتمسي على مر الأنين وتصبح
الطباقي بين الفعلين: تمسي وتصبح

ونكتفي بهذا القدر من ذكر أسلوب الطباقي في شعر الأصدقاء.

٢- الجنس: وهو ما اتفق فيه الفطان المتجانسان في أربعة أشياء:

وهي: نوع الحروف، وعددها وهيئاتها الحاصلة عن الحركات والسكتات، وترتيبها مع اختلاف المعنى، وهو إما تام تتفق فيه اللفظتان كما ذكرنا في عدد الحروف ونوعها وترتيبها، أو غير تام تتجانس فيه بعض المقاطع لا كلها:

ويزخر شعر الأصدا بالعدد من أساليب الجناس وتختار منها

قال الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في قصيدته "من وحي المهرجان"

يا بن زيدون والقرون توالى والدواهي وكلها دهياء
الخلافات بالخلافة أودت واقتسمنا وسادنا الدخلاء

يوجد جناس ناقص بين: الدواهي ودهياء، وكذلك بين الخلافات والخلافة.

- وقال الشاعر: محمود غنيم في قصيدة "وقفه على طلل"

راع يعيد إلى الإسلام سيرته يرعى بنيه وعين الله ترعاه

يوجد هنا جناس ناقص بين راع ويرعى

- وقال الشاعر / محمد مصطفى البلخي: في قصيدة "توحيدها أقوى على توحيدها"

قولوا لمن يسعى لضم شتاتها توحيدها .. أقوى على توحيدها

يوجد هنا جناس تام بين توحيدها الأولى كمصدر لتوحيد ضم الجهود، وبين توحيدها الثانية التي تعني توحيد هذه الأمة

- وقال الشاعر / أبو الفضل الوليد في قصيدة البغدادية

شدوا وشيدوا دولة عربية يرجى لها بعد الفناء معاد

حيث يوجد جناس ناقص بين شدوا وشيدوا

- وقال الشاعر أبو الفضل الوليد أيضا في قصيدة "الجهادية"

يا عكفا حول الحطيم تحطموا غيظا .. وكل في الوغى حطام

يوجد جناس ناقص بين الحطيم وتحطموا وحطام. هذا إلى غير ذلك من المحسنات البديعية الماثرة هنا وهناك في النصوص المختلفة من شعر الأصدااء، التي تشكل الإيقاع الداخلي في موسيقى البيت، وجاءت عفو خاطر، وصدرت عن طبع من غير تعمل وكد فكر، فأعطت للتصوير الأدبي ما جعله يهز الوجدان ويحرك العواطف.

وخلص القول : إن شعر الأصدااء يزخر بالألوان البلاغية المختلفة، وهذه الألوان كما ذكرنا تتأثر بما تستدعيه التجربة لا من قبيل التكلف والصنعة، ويتضح أيضا أن توظيفهم للأساليب البلاغية المصطلح عليها، يقترب من توظيفهم للقصائد، ولا يبتعد عن استخدامات عمود الشعر العربي التقليدي، وبشكل عام فإن أهم مميزات شعر الأصدااء ما يلي:-

- ١- أغلب هذا الشعر نبضات شعورية تنطق عن إرادة الشعور في موقف حماسي حار.
- ٢- تحققت فيه الوحدة الموضوعية، حيث قام هذا الشعر على موضوع واحد تقريبا يتعلق بالخلافة الإسلامية.
- ٣- سلامة فطرة قائلية وصفاء جوهرهم وبعدهم عن خبث الطوية.
- ٤- بعده عن التكلف ومستكرة الألفاظ، مع سهولته وترابطه..
- ٥- غناه بالصور واللوحات الشعرية، وتنوع الخيال الشعري فيه من تشبيه واستعارة وكناية.
- ٦- يمثل هذا الشعر الوجه الناصع والصورة المشرقة للأدب الدعوي الإسلامي، حيث نلمح فيه الدعوات الصريحة والمباشرة، إلى إعلان الجهاد المقدس وتطبيق الشريعة الإسلامية، وإلى قيام الوحدة الإسلامية والخلافة

الإسلامية، إضافة إلى أن الكثير منه قد دار على استنهاض الهمم، وإيقاظ النفوس من أجل قضايا أمتنا الإسلامية المصيرية.

٧- وأخيراً فإن هذا الشعر كان خير نموذج لهؤلاء الشعراء، الذين أنطقهم سقوط الخلافة الإسلامية، ووقعه المؤلم على أبناء أمتنا الإسلامية. ومن ثم التعبير عن هذا الحدث الجلل بكل اقتدار.

الفصل الثاني

السمات العامة والخصائص المشتركة

لشعر الأصداء

الفصل الثاني

السمات العامة والخصائص المشتركة لشعر الأصداء

من خلال شعر الأصداء الذي ندرس له يتبلور لنا أن هذا الشعر - وكما ذكرنا أكثر من مرة يختلف أحيانا في معجمه اللفظي، تركيبه السياقي والدلالي، ويتفاوت جماله الفني، ويبرز للعيان الفروق الفنية بين قصيدة وأخرى حسب شاعرية الشاعر وأدواته ومقدرته الفنية.

غير أن هناك بعض السمات العامة والخصائص المشتركة التي يتحد فيها الكثير من هذا الشعر - ولا أقول معظمه أو جميعه - حيث إنه ينبض من قلوب انتفضت للمعاناة من واقع التجربة الشعرية، ويصدر عن شعراء عابثين بأنفسهم مصائب هذه الأمة وجاراتها، فوظفوا إبداعاتهم في سبيل الأغراض التي درسناها في هذا البحث والمتمثلة في رثاء الخلافة الإسلامية والحنين إلى إحيائها، أو الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وغيرها من الأغراض التي تناولوها في أشعارهم، منافحين ومدافعين عن قضايا هذه الأمة الشائكة ومصائبها المتعددة، فجاءت هذه الأشعار التي صاغوها بكل وضوح وسلاسة لتقرر المعاني والمضامين الإسلامية الرفيعة التي تهم عامة المسلمين قبل خاصتهم.

وقد آن لنا أن نتعرف على بعض هذه السمات والخصائص المشتركة لهذا الشعر، متعمدين في ذلك على بعض النماذج المختارة والتي هي رائدنا في الحكم عليها، وذلك حسب المواضيع التالية:-

- أ- الصدق في التعبير.
- ب- الموقف والالتزام.
- ج- التقريرية والخطابية.
- د- المعاني الإسلامية.

أ- الصدق في التعبير

تمتاز أغلبية القصائد التي بحثناها في شعر الأصداء بالصدق في التعبير، وبالعاطفة الحارة القوية، والشعور العميق المتدفق الذي ينم عن الانفعال الصادق، يؤدي دوره وتأثيره على أكمل وجه، ذلك أن معظم هذه القصائد عبارة عن مشاعر حميدة وأحاسيس صادقة، سيما وأنها تعالج في معظمها غرضين من أغراض الشعر العربي هما: الرثاء والحنين، حيث لا سبيل هنا إلى التكلف أو المبالغة والغلو، لأنها تجربة صادقة.

وبقراءة سريعة لعدد من النماذج الشعرية فيه، نستطيع أن نلمح هذا الصدق بكل سهولة ويسر، وسوف نكتفي بالإشارة إلى بعض هذه النماذج التي تدل على هذا الصدق وتكون برهاناً عليه.

ففي قصيدة "إليك يا ابن الإسلام" للشاعر الدكتور / يوسف القرضاوي الذي يقول:-

- تقول ما لبني الإسلام قد هزموا ولم يسيروا إلى العلياء قيد خطأ

كأنما جعل الإسلام متهماً	والحق أبلج لا يحتاج كشف غطا
الذنب ذنب بني الإسلام مذ بعدوا	عن منهج الله أضحى أمرهم فرطا
تفرقوا شيعاً شتى وأنظمة	إذ لم يعد حبهم بالله مرتبطا
عقد "الخلافة" قبلاً كان ينظمهم	واليوم عقدهم قد بات منفرطا
استوردوا من ديار الغرب فلسفة	أشقت بنيه .. وحلت كل ما ربطا

لا شك أنك واجدٌ في هذه القصيدة صدقاً في التعبير وتبياناً للحقائق، علاوة على أن تراكيبه جاءت بعيدة عن التكلف والمعاناة، ولا تجد فيها غموضاً أو اضطراباً.

ونقرأ كذلك الصدق والتعبير في نموذج آخر: في قصيدة بعنوان "ألوان من وحي المهرجان" للشاعر عمر بهاء الدين الأميري: بقوله:-

يا ابن زيدون والقرون توالى
 الخلافات بالخلافه أودت
 وادعوا قوميه ثم نادوا
 ساسة الحكم نابذوا شرعة الله
 كم أضاعوا باسم الشعوب شعوباً
 وأبدوا من الرجال فحولاً
 أسلموا لليهود مسجداً الأقصى
 أي ضير تضيع مناً فلسطين

والدواهي ... وكلها دهياء
 واقتسمنا .. وسادنا الدخلاء
 بأعادي قد عم منها البلاء
 فحفت ديارنا بالبأساء
 طحنتها المكائد الهوجاء
 لن يموتوا .. فإنهم شهداء
 وكانت طريقهم صنعاء
 لبقى حكماها الزعماء

فأي شعر أصدق من هذا في التعبير، وأجراً في الرأي، إنه شعر يفيض بالصدق، وينبض بالحقائق المجردة عن أي غرض، ودون مغالاة في الأفكار علواً يذهب بجمال المعنى ورونقه.

وكذلك يتمثل صحة ما ذكرناه من الصدق في التعبير في قصيدة "الجهادية" للشاعر / أبي الفضل الوليد، الذي يقول فيها:

المسلمون تساقطت أعلامهم فكأنهم بين الشعوب سوام
 لا دولة فيهم ولا ملك لهم إن الممالك بالملوك ضخام

إلى غير ذلك من القصائد والمقطوعات المختلفة، وبالجملة فإنني أعتقد، أن هذه القصائد وما شابهها من شعر الأصداء جاءت صادقة في التعبير، وعبرت بكل دقة عن الأغراض الشعرية التي عالجتها، بعيدة عن التكلف والمغالاة.

ب- الموقف والالتزام

يحمل الكثير من شعر الأصداء الذي بين يدينا موقفاً متميزاً يكاد لا يحيد عنه، خاصة فيما يتعلق بالحنين لإحياء الخلافة الإسلامية، وهذا الموقف الملترزم هو خاصية ثابتة لهذا الشعر وقاسماً مشتركاً له، ونظراً للدور الكبير الذي يلعبه الشعر في حياة الأمة، فإنه لم يعد ترفاً وبضاعة للخاصة وامتحاناً للذاكرة، بل أصبح ابن

عصره وبيئته وظروفه، ولا بد أن يكون معبراً عن ذلك كله ومصوراً له، وذلك لما له من أهمية في مسيرة الأمم والشعوب، وقيمة كبيرة في معركة الصراع بين الحق والباطل، وأثر بالغ في وجدان الناس ومشاعرهم.

وقد استطاع شعر الأصدقاء أن يقدم لنا مجموعة من الأهداف والغايات، وأن يتناولها تناولاً جاداً ومؤثراً لسمو هذه الأهداف وشرف مرماها، واستطاع كذلك أن يعبر عن أفكار هذا العصر وما يحيط به من أحداث.

"والالتزام" كلمة قديمة في أصل اللغة، يقال "ألزمه" الشيء "والتزمه" والالتزام أيضاً الاعتناق، ثم خصص المعاصرون هذه الكلمة في استعمالهم الفنية والأدبية وأصبحت مصطلحاً من المصطلحات يعني : المشاركة في قضايا الجماهير، والعمل على حل مشكلاتهم^(١).

وما أكثر النماذج في شعر الأصدقاء، التي يمكن أن نستشهد بها للدلالة على هذه الخاصية، وسنكتفي بإيراد بعضاً منها، لأن مرادنا التمثيل وليس الحصر والاستقصاء.

ففي قصيدة "الفوز بالقرآن" للشاعر / مأمون فريز جرار يقول فيها:-

والمسلمون على الدروب بلا هدى	متفرقون كتائه القطعان
هذا يميل إلى اليمين مغرباً	والغرب عادتنا مدى الأزمان
وإلى اليسار ترى فريقاً مهطعاً	فتنته دعوات بلا إيمان
ما باليمين ولا اليسار فلا حنا	ما الفوز إلا منهج القرآن

فنرى أن الشاعر هنا يحدد موقفه ملتزماً بمبادئ القرآن الكريم وهديه الشريف، حيث لا تستميله المذاهب والمعتقدات الغربية، أو الشرقية، وعبر عما يعتنقه ويؤمن به برؤية شعرية واضحة وبموقف إيجابي ملتزم.

(١) د / بدوي طبانه / قضايا النقد الأدبي ١٩٨٤م.

وتتضح هذه النزعة الالتزامية أيضاً في قصيدة "عالم الإسلام" للشاعر محمد

محمود الزبيري. في قوله:

يا وفود الإسلام تاريخكم ضخم	ولكن هل فيكم من يعيده
ألف عام مرت عليه ألا يكفيه	هجو عهده وهموده
أنتم عالم من المغرب الأقصى	إلى الشرق خافقات بنوده
علم واحد وإن زعمته	ألف شعب تغوره وحدوده
عالم مسلم عنيد لا تهنيدة	ممكن ولا تهويده
سوف يبقى حقيقة تملأ الأرض	ويفنى عدوه وحسوده

فهذا الشعر الذي يفيض بالحماسة، لا شك أنه يشكل موقفاً صلباً وقضية مصيرية تعني الالتزام التام بوحدة المسلمين وصمودهم أمام أعدائهم الطامعين بهم.

وكذلك نستطيع أن نلمح هذا الموقف الالتزامي في قصيدة "المسجد الأسير" للشاعر عبد الرحمن العبادي، الذي يتحدث فيها عن موقف السلطان عبد الحميد الثاني، الصامد برفضه للاغراءات اليهودية بغية السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، فيقول:

ما ساوم الأوغاد قد عرفت	صلايته إليه اليهود
ففضى شهيد القدس من	للقدس بعدك يا شهيد؟
قد جدت بالنفس التي	في الله لا تخشى الوعيد
إيه أيا عبد الحميد	بكتك رايات الأسود
بكت الخلافة والخلافة	كنت ملهمها الرشيد

وهكذا نرى تجسيد الشاعر لموقف الخليفة الحازم أمام أطماع اليهود، وفي وجه الظلم والطغيان، حتى دفع ثمناً لهذا الموقف الملتمزم.

وفي ظل الصراع القائم بين أمة الإسلام من جهة وبين أعدائها من كل جنس ولون من جهة أخرى، ورغم الشتات والتمزق الذي لحق بهذه الأمة، نرى الشاعر/ عبد الرحمن صالح العثماوي، في قصيدته "حوار مع التاريخ" يؤكد على ثبات موقفه منها، وأنه لا يزال فخوراً بها رغم جراحاتها، وأن الأمل لا يزال يملأ قلبه، ويغمر شريعة الله التي هي مصدر عزتها وكرامتها ودليلها إلى الرفعة وعلو الشأن: وذلك بقوله:

وإن نك أوطاني تشتت جمعها	فعما قريب سوف تمضي بهمة
أيا أمة الإسلام .. لا زلت صامدا	ولا زلت رغم الصد والهجر أمّتي
لك الله ما زال الزمان مغردا	على قمة الإسلام .. أعظم قمة
هنا وقف التاريخ .. يعصف بالأسى	ويهتف مسرورا بعزمي ويقظتي
بني أمّتي .. إن الحياة رخيصة	إذا لم نقم فيها .. بإحياء شرعة
أفيقي .. فما للذئب يا قوم ذمة	وأكبر عار أن أضيع ذمتي

وبهذا التناول الشعري الأخاذ، نجد أنفسنا في موقف ملتزم استطاع الشاعر أن يؤكد فيه على صلابة هذه الأمة وثباتها رغم الصعوبات التي تكتنفها والأخطار التي تحيط بها.

وهكذا وفي الكثير من نماذج شعر الأصدقاء نجد أمثلة لهذه المواقف الملتزمة، التي يشعر قائلوها بما تشعر به أمّتهم من الآم، ويتصورون ما تتصوره من أهداف وأحلام.

ج- التقريرية والخطابية:

الحنين إلى الخلافة الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، يستدعي حملي الفكر والمضامين الوجدانية في صراحتها ووضوحها، ويستوجب إحالة المبدع إلى مثل هذا الاتجاه، ونظرا للصلة الوثيقة للأدب في الحياة في عصرنا الحاضر، ولأهمية الشعر في حمل رسالة الأدب، فقد انغمس شعراء هذه الحقبة التي

ندرسها لها بالقيم السامية والفكر النير المشرق، وتفاعلوا مع المجتمع ومالوا بشعرهم إلى الوضوح والصراحة والتقرير، وذلك لكي يكونوا أكثر قرباً والتصاقاً مع أفراد أمتنا ويدوروا في فلك تلك القيم الإسلامية الراقية.

والمتمعن لشعر الأصدقاء، يجد أنه يجمع أشتات الجمال وأفئافه، وأنه يختلف عند كل شاعر وشاعر، تبعاً للتجربة والوسائل الفنية لدى هذا الشاعر أو ذلك، ويبدو على الكثير منه صفة الحماسة والخطابة، حيث يقوم الشعراء باستثارة حماسة الجماهير بمعانيهم الوجدانية الملتهبة وعواطفهم المتأججة.

ولعلنا لا نعدو الصواب إذا اعتبرنا أن معظم قصائد الأصدقاء التي بين يدينا، تنحو منحى النزعة الخطابية والتقريرية، جراء ما تدعو إليه من أهداف وما تحمله في ثناياها من مضامين دعوية إرشادية وحدوية.

وتتضح مثل هذه النزعة جلية في قصيدة "النصر للإسلام" للشاعر مأمون فريز جرار في قوله:-

قرآنا يا أخي دستور نهضتنا	وحرز وحدتنا ما مثله الدرر
ودرب أحمد خير الخلق مسلكنا	ونحن أتباعه نمضي ونأثر
فقاوموا كل طاغوت ومعتسف	يظن أن ليس يعصي أمره القدر
وأعلنوها على الأشهداد داوية	صريحة أننا بالله نأتمر

في هذه الأبيات تبدو لنا النزعة الخطابية واضحة، وفي نفس الوقت تتضح لنا فيها الصياغة البسيطة والبعيدة عن كل محاولات الزينة والزخرفة.

وفي أبيات من قصيدة أخرى بعنوان "قصة مأساة أمتي" للشاعر / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني تظهر النزعة الخطابية التقريرية السردية واضحة وذلك بقوله:

هذه روح القضيّة	نحن والله الضحية
هل وعينا .. هل رأينا	هل سننصحو للبليّة؟

هل سيأتينا رشيد العقل	ذو نفس أبيــــة
زانه الإيمان بالله	وأخلاق زكيــــة
قائد يرجع مجد الأمة	الكمبرى العليــــة
بكتاب الله والسنة	والأيدي القويــــة
بجيوش تهزم الباغي	وتسقيه المنــــة
هل نعم .. فالصبح آت	والبلايا زمنيــــة!!

وكما ذكرنا يبدو هنا الأسلوب الخطابي واضحاً، حيث تتنوع العبارات والجمل بين التقرير تارة والاستفهام والتعجب تارة أخرى.

وكثيرة هي تلك النصوص التي تمثل هذه النزعة الخطابية والتقريرية، ففي قصيدة "شاعر الإسلام" للشاعر الدكتور / عبد القدوس أبو صالح، تقف على هذه النزعة بكل وضوح، وذلك حين يخاطب الشيخ أبا الحسن الندوي بقوله:

إيها "أبا حسن"	أتينا نقبس الإرشاد وقد
فاحشد دعاة المسلمين	وكن لهم علما وبندا
وادفع بنا نخض الضمار	وكن لنا سيفاً وغمدا
لتهيب بالإسلام	جدد عهدك الميمون عهدا
وتقيم للإسلام دولته	التي تزداد مجدا

ففي هذه الأبيات التي تتسم بصدق العاطفة ومصادقية الهدف، تبرز لنا النزعة الخطابية في أبرز صورها نظير ما تحمله في ثناياها من المعاني المباشرة والأفكار الجليلة الواضحة، ونستطيع أن نلمح مثل هذه النزعة في شعر الأصدقاء في كثير من القصائد والمقطوعات. ولكننا سنكتفي بهذا القدر الذي قدمناه خشية الإطالة والتشعب.

د - المعاني الإسلامية:-

يتردد في شعر الأصداء الكثير من المعاني الإسلامية والعواطف الدينية الموحية بالفكر الإيماني، والتي صاغها شعراء استوعبوا المضامين الإسلامية بكل وضوح وسلاسة، وانطلقوا في عطائهم من خلال نفوس صادقة، مؤثرة للخير والرشاد، ومن الثابت أن الحافز الأساسي لمثل هذه المعاني الإسلامية التي تناولها شعر الأصداء هذا التتبع الشديد لأحداث الأمة الإسلامية، والشتات الذي تعانيه، والواقع المؤلم الذي تعايشه، فلا غرو إذن أن يؤكد الشعراء أصالة انتمائهم لهذه الأمة والظهور بمظهر المتفاعل مع أحداثها والناصح الأمين لها، وتطعيم إبداعاتهم الشعرية بالمعاني الإسلامية التي تذكر أبناء المسلمين بسيرتهم الغابرة وأمجادهم وتذكيرهم بالسير على نهج أجدادهم وخطا أسلافهم والخروج من النفق المظلم الذين يعيشون فيه، كما لم يفتهم مدح أبطال الإسلام ورجالاته الخالدين الذين قدموا له كل تضحية وفداء، ومن ثم الإشادة بهم وبمنجزاتهم العظيمة في سبيل سعادة أمتهم وكرامتها.

ولو رحنا نستعرض شعر الأصداء لوجدنا الكثير من القصائد أو الأبيات التي تحمل هذه المعاني وتتغلغل في ثناياها، حيث أن حادث إلغاء الخلافة قد دفعهم لصياغة مثل هذه المعاني وأوجد لديهم حافزا قويا ومعينا ثرا، أسعفهم بالكثير من المضامين التي تساهم في معالجة الأوضاع الإسلامية التي تعترض مستقبل حياتهم. ويمكن أن تقسم المعاني الإسلامية التي وظفها الشعراء في شعر الأصداء إلى ثلاثة محاور وذلك على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر والاستقصاء وهي:-

المحور الأول: المعاني التي تحمل مضامين الوحدة الإسلامية.

المحور الثاني: معاني تطبيق الشريعة الإسلامية.

المحور الثالث: معاني الجهاد والتضحية والفداء.

وهذه المعاني نستطيع أن نلحمها ونتبينها في شعر الأصداء بسهولة، وحسبنا أن نستطيع بعضاً منها تدليلاً على وجودها سواء جاءت بشكل منفصل أو وردت مشتركة مع غيرها من المعاني والمضامين.

وها نحن نستعرض لهذه المحاور في شيء من الإيجاز:-

أولاً:- محور الوحدة الإسلامية:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ويقول عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم"

من هذه النصوص فهم المسلمون حقيقة الوحدة وعملوا بها وعاشوا أفراداً وجماعات، فحرصوا أن تكون جماعتهم واحدة ودستورهم واحد، وإمامهم واحد ولغتهم واحدة، وجيشهم واحد ليس بينهم حدود تفصلهم عن بعض يجمعهم جميعاً كلمة التوحيد التي أمر بها ربهم وخالقهم.

ولما كانوا كذلك لم يستطع الأعداء أن ينخروا عدوهم أو يهدموا بناءهم أو ينالوا منهم شيئاً، بل وقفوا حائرين ومستسلمين أمام وحدة المسلمين وعزتهم.

من أجل ذلك لا نستغرب إذا ارتفع صوت شعراء المسلمين عالياً، منادين بالوحدة الإسلامية، ومنبهين على أهميتها ودورها العظيم في حياة الإسلام والمسلمين.

وبالبحث في شعر الأصداء سوف يعثر على العديد من المقطوعات والأبيات التي تنادي بالوحدة الإسلامية أو بالحنين إلى الخلافة الإسلامية سواء كان ذلك تلميحاً أو تصريحاً، من هذه الأشعار قصيدة "الراية الإسلامية" للشاعر إبراهيم أحمد عبد الفتاح، إذ يقول:

لهفي على علم مال الزمان به إلى الرغام ذليل الشأن متضعا

داست على راية الإسلام حاقدة أقدام أعدائه حتى غدت قطعاً
متى نرى دولة الإسلام شامخة بين الأنام وشمل الشرق مجتمعاً
وكذلك نلمح هذا المعنى في قصيدة "الأخوة الإسلامية" للشاعر عبد الرحمن
العبادي بقوله:-

وطني كل بلاد المسلمينا وأخي كل أخ في العالمينا
قد دعينا أمة لا أمماً في خطا الخير إلى الصف دعينا
جمعتنا لحمة الإسلام صفاً فعن الفرقة في الأمر نهينا
إنه التوحيد للناس مناراً وحّد القوم قروناً وقروناً
وتتمثل معاني الوحدة الإسلامية أيضاً في قصيدة "الله أكبر" للشاعر / عبد
الرحمن صالح العثماوي / إذ يقول:-

يا إخوة الإسلام إنا وحدة لا ترتضي للمسلمين سفاها
ما أجمل الإسلام منهل وحدة زكى النفوس بهديه وسقاها
الله أكبر رمزنا وشعارنا فلترفعوها واعرفوا معناها
وكذلك تتجلى معاني هذه الوحدة في قصيدة "نحن والحالة العالمية" للشاعر /
معروف الرصافي بقوله:-

فلهذا نعم لهذا لهذا نحن دنا بوحدة الديان
وحدة لا يفلقها المتوالي من صروف الدهر والأزمان
وحدة من الله جاء فيها مرسل بالكتاب والفرقان
وأخيراً وليس آخراً نلمح هذه المعاني الإسلامية بصور تلميحية في أبيات من
قصيدة "في دار الخلافة" للشاعر م أحمد محمد الصديق وبقوله:-

يا من يقود الركب إن طريقنا عصفت به الأهوال والأخطار
إن شئت نهجاً للفلاح وخطّة فيها يشع الحق نهار
فأعز منارتنا التي فقدت فما تجلى بغير ضيائها الأكرار

يتضح لنا أن هذه الأبيات التي تصور لهفة الشعراء إلى الوحدة الإسلامية، والعودة إلى الماضي المجيد للأمة الإسلامية، مليئة بالصور الطريفة التي أحسن الشعراء اختيار أوضاعها وألوانها، وترسم ببراعة ممتازة جانباً دقيقاً من المعاني الإسلامية والعواطف الدينية التي نهم الإسلام والمسلمين.

ثانياً: محور تطبيق الشريعة الإسلامية:

الإسلام هو رسالة الله تعالى الخالدة إلى العالمين عن طريق الوحي إلى سيدنا (ﷺ)، لذلك تلقاه المسلمون بالقبول والتسليم والرضا، وعلموا أن عزتهم به وأن ذلهم بغيره، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله".

ولذلك كان الإسلام دستور المسلمين ومصدر شريعتهم، يتحاكم إليها الحاكم والمحكوم وكل من هو في ظل دولة المسلمين.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى كل من تحاكم إلى غير شريعة الله فقال:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ (النور: ٦٣)

وقال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)

وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(المائدة: ٤٥)

وفي تاريخ الإسلام الطويل، لم يتخل المسلمون عن تطبيق شريعة الله إلا مرتين، حين احتل الصليبيون بعض بلاد المسلمين، وفي أيامنا هذه التي نحياها، بعد سقوط الخلافة الإسلامية وتقسيم بلاد المسلمين إلى دويلات عديدة.

لذلك هبّ العلماء والشعراء يستنقذون هذه الأمة بمواعظهم وأشعارهم من
هوة الخطر المحيط بهم، ويهيبون بالمسلمين ويحذرونهم من خطورة الابتعاد عن
شرع الله.

لهذا فقد شاعت في شعر الأصداء العديد من القصائد الموحية التي تحمل هذه
المعاني الإسلامية الرفيعة. وتنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية في حياتنا العامة
والخاصة، والاعتراف من منهل كتاب الله الكريم وسنة نبيه الطاهرة، ومن ذلك ما
جاء في قصيدة: "أذان الزحف" للشاعر عمر بهاء الدين الأميري الذي يقول:

نحن في يومنا بغيث إذا لم نتخذ هدى ديننا فرقانا
واعتقنا شريعة الله نهجاً وحثنا إلى الجهاد خطانا

وكذلك في قصيدة "الحكم بالقرآن" للشاعر إبراهيم أحمد عبد الفتاح الذي
يقول:

متى نرى عزة الإسلام شامخة والحكم في الناس من شرع وقرآن
متى نرى شرعة الإسلام مالكة زمام حكامنا في كل ميدان
أو في قوله:

إذا أردنا سعادة وفلاحاً وانتصاراً على الزمان أكيدا
فسبيل القرآن خير سبيل فلنحكم فينا الكتاب المجيدا
ليس يرضى الرسول عنا إذا ما ظلَّ حكم القرآن عنا بعيدا
هو شرع من ربكم فاحفظوه وأقيموا أحكامه والحدودا

وبعد هذه الدعوات الصريحة لتطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بما أنزل الله
في كتابه العزيز، يطرق أسماعنا الشاعر / مصطفى حيدر زيد الكيلاني بقصيدته
"متى الإسلام في الدنيا يسود" المججلة التي تنادي بالعودة إلى منابع الإسلام
الصافية والتقيؤ بظلاله الوارفة حيث يقول:

متى الإسلام في الدنيا يسود ويشرق بيننا الفجر الجديد

متى نستأنف الإسلام حكماً سماوياً .. تُقام به الحدود
ثم يقول :

ولا ترضوا سوى الإسلام ديناً وبالإسلام قد عز الجود
ونلمح هذا المعنى أيضاً في قصيدة "الوداع" للشاعر محمد الحسناوي في
قوله: لا حكم إلا شرعة الدين الحنيف ولا انقياد لشرعة الأوثان وهكذا استطاعت
هذه الأشعار، التي امتازت بمستواها الفني الرفيع، أن تسجل أحاسيس المسلمين
المعاصرين الذين يتطلعون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بما أنزله الله في
كتابه الكريم، والمناداة بهذا التطبيق بكل صراحة ووضوح.

ثالثاً: محور الجهاد:

الجهاد نزوة سنام الإسلام، ومصدر عزة المسلمين على مر العصور، وما
تركه المسلمون في يوم من الأيام إلا سلط الله عليهم كيد الأعداء فنالوا منهم، وقد
ورد في الأثر "ما ترك قوم الجهاد إلا سلط الله عليهم عدوهم فأخذ بعض ما
بأيديهم".

لذلك تغنى الشعراء المسلمون بهذا الواجب الإسلامي الكبير، وابتدروا يهيبون
بالمسلمين في كل وقت يحق بالمسلمين شر.

وكثيراً ما سرت فكرة الجهاد في الشعر العربي منذ بزوغ الإسلام وكان
غرضاً من الأغراض البارزة في الشعر، وطالما تغنى الشعراء بأشعارهم الحماسية
الملتهبة بمصطلحات الجهاد المقدس، وتجسيد روحه السامية، والتي صادفت تأثيراً
حسناً وقبولاً كبيراً لدى كافة أبناء المسلمين.

وكثيرة هي النصوص في شعر الأصدقاء التي تلالأت فيها معاني وقيم
إسلامية رفيعة تحث على الجهاد وتحض المسلمين على الدفاع عن الإسلام تنافح
عن مقدساته وحرماته.

ومثالاً على ذلك نذكر الأبيات التالية من قصيدة "الجهادية" للشاعر / أبو الفضل الوليد / الذي يقول فيها:

يا عكفاً حول الحطيم تحطموا غيظاً وكل في الوغى حطام
هلا بطشتم بطشة كبرى لها تتحرر الأوطان والأحرام
فإلى الجهاد إلى الجهاد تصارخ وعلى الجهاد على الجهاد زحام

فهذه النزعة الحماسية لدى الشاعر والتي تحض على الجهاد، تمثل هذا المنحى أجمل تمثيل حيث التصريح بالجهاد فيها واضح وجلي، وكذلك نجد مثل هذه النزعة الجهادية في قصيدة "لا تحسبن الله مخلف وعده" للشاعر / مروان الحديد، حيث يقول فيها:-

هيا فعودوا للجهاد فإننا بجهادنا نرضي الإله ونأمل
ونعيد أرضاً قد رواها قبلنا أجدادنا بدمائهم وتحملوا
قوموا لنرفع راية خفاقة لمحمد .. إسلامنا لا يأفل

فهذه الأبيات بأسلوبها الخطابي والحماسي أيضاً، تقرر معاني الجهاد وتحث المسلمين على رفع راية الإسلام خفاقة عالية، وهكذا يبدوا في هذا النص والنص السابق له الدعوة المباشرة للجهاد دون اللجوء إلى التلميح أو التعريض، وقد يأتي ذكر الجهاد تعريضاً دون إعلان الدعوة له وذلك كما جاء في قصيدة "الكوكب الأقل" للشاعر / يوسف إبراهيم الذي يقول فيها:

لا لن يظل بأرضه الإسلام تحت سياط جلاديه كالصيد الطريد
ستبيد آلهة ودولة الأصنام في وطني تبيد
وتعود رايات الخلافة والجهاد ودولة الإسلام شامخة تعود

وكذلك الحال في قصيدة "في مهرجان النصر" للشاعر ماجد العامري بقوله:

الله أكبر حين يخفق عالياً علم الجهاد .. وينطق البركان
ويعود للإسلام مشرق وجهه في وحدة تعنو لها الأكوان

ففي هاتين المقطوعتين الشعريتين، يعرض الشاعران بالجهاد ويوظفانه في قصيدتيهما بأسلوب تقريرى كما ذكرنا دون اللجوء إلى دعوة المسلمين وحثهم على الجهاد كما في النصين السابقين لهما.

وهكذا يتضح لنا هذا التناول الشيق للمعاني الإسلامية والقيم الرفيعة والعواطف الدينية بشكل عام، والتي صاغها الشعراء وشحنوها بعواطفهم المتوهجة التي تألأت في أشعارهم المليئة بالصور الطريفة والظواهر الفنية الرائعة من الاستعارات والمجازات والكنيات المختلفة، والمتكاملة الخطوط والألوان، والدقيقة التلوين والتظليل إلى حد كبير.

وقد لا حظنا كذلك أن استعمال الشعراء لهذه المعاني والمصطلحات الإسلامية، كانت لها دلالاتها وإحياءاتها المميزة وجاءت متلائمة مع المعاني التي حملتها من غير نبو ولا غرابه. ولا إسراف، كما كان أسلوبها متميزاً، فيه من المباشرة والتكرار والجمل الإنشائية المختلفة التي تدل بمجموعها على حدة الانفعال وحرارة العاطفة وسمو القصد الشيء الكثير.

وبعد فهذه النماذج والأشعار البليغة التعبير والبالغة التأثير، ذات القيم الفنية العالية، والتي صاغها شعراؤها ممزوجة بعواطفهم المتوهجة ومشاعرهم النبيلة، ذات الخصائص المتميزة التي تجمع بين سهولة اللفظ وعذوبته، وفخامته وقوته، وبين وضوح المعنى وعمقه، وتناسب مع جلال الحدث وخطورته، وتمتاز كما ذكرنا بالصدق في التعبير والالتزام في المواقف المشرفة، الطافحة بالمعاني الإسلامية والقيم والمضامين الإنسانية الخالدة، والتي جاءت لتعكس إضافة إلى مشاعرهم مشاعر المسلمين كافة تجاه واقعهم السياسي الممزق، وقيمهم الاجتماعية المنهارة، ومنحهم المقدرة على الانفعال بها، وإثارة الحنين والأمل في نفوسهم، وتهئية الأجواء المناسبة لهم، للانتصار على أنفسهم ورصد أعدائهم والطامعين بهم، وتوحيد كلمتهم ووحدة صفهم وكيانهم بإذن الله.

الخاتمة

أحمد الله سبحانه وتعالى على ما يسره لي ووفقني إلى إكمال هذا البحث الذي أرجو أن يكون خالصاً لوجهه الكريم وبعد:-

فإنني أحب أن أنوه في بداية هذه الخاتمة أن الغرض الأهم من هذه الدراسة كان تجسيد حدث إلغاء وسقوط الخلافة الإسلامية من خلال الشعر الذي تطرق لهذه الخلافة سواء في الرثاء أو في الحنين، حيث قمت بجمع ما تفرق من هذا الشعر في بطون الكتب والدواوين الشعرية المختلفة، وعمدت إلى اختيار الملائم منه، ومن ثم دراسته دراسة أدبية مستوفاة، كانت مادة هذا البحث الذي أضعه بين يدي المتلقي ليسهل الرجوع إليه والإطلاع على مضمونه خاصة في مثل هذه الظروف التي تمر بها امتنا الإسلامية وما يعتورها من عوامل الضعف والتمزق والشتات، الأمر الذي يعيقها عن استرداد مكانتها وفرض هيبتها في العالمين.

هذا وقد بنيت هذه الدراسة وأقمتها على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة:-

وقد المحت في المقدمة الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا البحث، والعقبات التي اعترضتني في سبيله والدراسات السابقة عنه ثم الطريقة التي اعتمدتها في تقسيمه إلى أبواب وفصول:-

أما الباب الأول:- فقد خصصته لدراسات المقدمات التاريخية المتعلقة بالخلافة الإسلامية بصورة موجزة وذلك من حيث تعريفها وشروطها وواجباتها ومراحل تطورها منذ بدايتها حتى نهايتها مع التركيز بشكل خاص على أسباب سقوط هذه الخلافة في مراحلها المختلفة.

وفي الباب الثاني:- وهو أوسع الأبواب فقد خصصته لدراسة شعر الأصدااء الذي تم اختياره من بين الشعر الذي تطرق للخلافة الإسلامية والوحدة الإسلامية، وقد قسمته إلى ستة فصول يتعلق من أغراض الشعر الذي يدور حول الخلافة وذلك فيما يختص برثاء الخلافة والوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار، ورسم

صورة زاهية لها، وبين أسباب سقوطها، وذكر آثار ونتائج هذا السقوط، وأخيراً الحنين إلى الخلافة والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وكل ذلك من خلال النصوص الشعرية التي تحمل هذه المعاني.

أما الباب الثالث:- فقد خصصته لدراسة أهم الظواهر الفنية والبلاغية، إذ جعلت من مادة الفصول الستة لشعر الأصداء في الباب الثاني، أساساً تقوم عليه دراستي النقدية في هذا الباب، وقد استرعى انتباهي أن الطابع العام لشعر الأصداء قد اتصف بالسهولة والرقّة والوضوح في المفردات والعبارات والصور الشعرية انطلاقاً من أن هذا الأسلوب مقصود به التأثير وتيسر الذيوع والتنقل والتفهم وذلك ليحدث أثره ومفعوله في العامة والخاصة بغير اضطرار إلى إجهادهم في التفهم والتفكير.

وحيث إن سقوط الخلافة الإسلامية كان صدمة قوية أثرت على الثوابت والجذور المتعارف عليها في حياة أمتنا الإسلامية، فإنني استطعت من خلال مضامين شعر الأصداء ومن الإحياءات التي تدور حولها، أن استخلص النتائج التالية:-

- إن الخلافة كما عرفها المؤرخون: هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وقد ظلت هذه الخلافة طوال أكثر من ألف وثلاثمائة عام تظل المسلمين وتقيم شرع الله، وهو أول الواجبات وأعلى الضرورات.

- إن الفساد على نظام الخلافة لم يطرأ إلا منذ أن أصبحت هذه الخلافة وراثية، فخضع أصحابها لعصبية الدم والقوة، لا لأهل الحل والعقد الممثلين للأمة الإسلامية، فبعد بذلك عن تطبيق القواعد التي سنّها الكتاب والسنة.

- إن المستشرقين والمؤرخين الغربيين ومن دار في فلهم، قاموا معتمدين وعن سوء نية بتشويه تاريخ الدولة العثمانية آخر ووصفها بأبشع الصور والصفات، خاصة فيما يتعلق بسيرة السلطان عبد الحميد الثاني، ذلك

التشويه الذي كان مدبراً ومقصوداً، والذي وقفت وراءه القوى الصليبية والصهيونية والماسونية، والتي ساهمت مجتمعة أو منفردة مع غيرها من العوامل والأسباب في إسقاط الدولة العثمانية.

- إن قوة العرب ومجدهم يتحقق بتطبيق قواعد الإسلام والوحدة الإسلامية، ونشر اللغة العربية في جميع ديار الإسلام، وإن الدعوة إلى القومية العربية إذا استطلت براية الإسلام كانت دعوة طيبة ومقبولة لدى كافة أبناء المسلمين، وإذا لم تعرف بتلك الراهية أو تستظل بها فلن يكون لها شأن يذكر، ولن تورث العرب إلا مزيداً من اليأس والشقاق.

- إن الصفة الغالبة على شعر الأصدااء هي الوضوح والصراحة والبعد عن الغموض والتكلف، كما إنه يمتاز بالعاطفة الصادقة والوجدان الحار، وتسود فيه النزعة التقريرية والخطابية، وتتمثل فيه الوحدة العضوية والموضوعية، وتسري بين ثناياه المعاني الإسلامية التي تتناسب مع حدث سقوط الخلافة من الحث على الجهاد، واستنهاض الهمم والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، إلى غير ذلك من المعاني والمضامين، وكل ذلك بأسلوب أدبي رائع وحافل بالظواهر الفنية والبلاغية الراقية.

وأخيراً فإنني لا أزعم أنني قد أتيت بالجديد المعجز في هذه الدراسة، ولكنني أؤكد أنني قد بذلت قصارى جهدي، وقصدت وجه الحق والصدق في تقديم ما يميله عليه واجبي وضميري في سبيل خير هذه الأمة وقضاياها المصيرية، والله أسأل أن يكون هذا البحث حافزاً ومشجعاً للباحثين على تناول هذا الموضوع من جوانب أخرى أشمل وأكثر عمقا وسد الثغرات التي غفلت عنها.

وبهذا أكون قد أتيت على نهاية هذا العرض الموجز لأبواب هذه الدراسة والمعالن البارزة فيها ونتائجها، فإن حققت بعض أهدافها فهو ما قصدته وعملت من أجله، وإن جانب الصواب فما أنا إلا طالب علم أخطئ وأصيب والكمال لله وحده والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

• كتب التاريخ والدراسات التاريخية

- ١- عبد الرحمن بن خلدون / مقدمة بن خلدون ج ١.
- ٢- الماوردي / الأحكام السلطانية.
- ٣- الجرجاني / كتاب التعريفات.
- ٤- ابن حزم / الفصل في الملل والنحل.
- ٥- محمد بن علي طباطبا / الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية.
- ٦- محمد حرب عبد الحميد / تاريخ الدولة العلية العثمانية.
- ٧- محمود شاكر / التاريخ الإسلامي ج ٣+٤+٩.
- ٨- محمد ضياء الدين الريس / النظريات السياسية الإسلامية.
- ٩- د. صلاح الدين دبوس / الخليفة توليته وعزله.
- ١٠- محمد كاظم حبيب / مؤامرة فصل الدين عن الدولة.
- ١١- د. عبد الرحمن العبادي وآخرون / الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها.
- ١٢- د. سليمان أحمد العمري / نظام الحكم في الإسلام هل هو الخلافة.
- ١٣- د. محمد الصادق عفيفي / المجتمع الإسلامي وأصول الحكم.
- ١٤- أنور الرفاعي / تاريخ العرب والإسلام.
- ١٥- محمد علي ضناوي / الطريق إلى حكم إسلامي.
- ١٦- د. حسن ريان ومحمود الطوالبة / مذكرة في تاريخ العرب الحديث.

- ١٧- د. عبد الحليم عويس / أوراق ذابلة من حضارتنا.
- ١٨- السيد أبو الحسن الندوي / ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
- تابع: كتب اللغة والدراسات الأدبية.
- ١- ابن منظور / لسان العرب.
- ٢- الفيروز أبادي / القاموس المحيط.
- ٣- د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم / دولة الخلافة وشعر الوطنية.
- ٤- د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان / الوحدة الإسلامية للشعر العربي الحديث.
- ٥- د. إحسان حقي / آراء في محاضرات مؤسسة الرسالة، طبعة ١، ١٩٨٥م.
- ٦- د. محمد محمد حسين / الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.
- ٧- أحمد الشايب / أصول النقد الأدبي ط٧، ١٩٦٤م.
- ٨- ناصر بن عبد الرحمن الخنين / الالتزام الإسلامي في الشعر.
- ٩- جبور عبد النور / المعجم الأدبي.
- ١٠- د. يوسف عز الدين / التجديد في الشعر الحديث، بواعثه النفسية وجذوره الفكرية.
- ١١- أحمد عبد اللطيف الجدع، وحسني أدهم جرار / شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ج ١ / ١٠.
- ١٢- أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربي.
- ١٣- د. ويليام الخازن / الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية.
- ١٤- محمد إبراهيم المطرودي / الشريف الرضي وأدبه.

- ١٥- د. محمد أحمد العزب / عن اللغة والأدب والنقد رؤيا بلاغية ورؤية فنية.
- ١٦- د. إبراهيم الحاوي / حركة النقد الحديث والمعاصر في الشعر العربي.
- ١٧- د. بدوي طبانة / قضايا النقد العربي.
- ١٨- خليف سعد خليف / الاتجاه الإسلامي في الشعر السعودي الكمعاصر.
- ١٩- د. عبد الفتاح صالح نافع / لغة الحب في شعر المتنبي.
- ٢٠- د. أحمد محمود أبو عجمية وآخرون / علوم البلاغة.
- ٢١- الجاحظ / البيان والتبيين .
- ٢٢- أحمد بسام ساعي / حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سوريا - دار المأمون.
- ٢٣- محمد علي الهاشمي / أثر الإسلام في الشعر العربي الحديث.
- ٢٤- د. عمر موسى باشا / تاريخ الأدب العربي في العصر العثماني.
- ٢٥- د. بكري شيخ أمين / مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني.

• دواوين الشعر

- ١- أحمد شوقي / الشوقيات.
- ٢- أحمد شوقي / الشوقيات المجهولة.
- ٣- حافظ إبراهيم / ديوان حافظ إبراهيم.
- ٤- محمد عبد المطلب / ديوان محمد عبد المطلب.
- ٥- أحمد محرم / ديوان محرم السياسيات ج ٢ مكتبة الفلاح الكويت ط ١
- ٤٠٤هـ.

- ٦- محمد الشاذلي الخزنة دار / ديوان الخزنة دار / الدار التونسية للنشر.
- ٧- محمود غنيم / ديوان صرخة في واد.
- ٨- عمر بهاء الدين الأميري / ديوان الزحف المقدس / دار الضياء للنشر والتوزيع عمان الأردن ط١ ١٩٨٩ / وديوان آذان الزحف.
- ٩- مأمون فريز جرار / قصائد للفجر الآتي / دار مكة / ط١ ١٩٨١م.
- ١٠- يوسف القرضاوي / ديوان نفحات ولفحات / دار الضياء للنشر / ط٢ ١٩٨٨م.
- ١١- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / أقباس في منهج الدعوة وتوجيه الدعوة / دمشق / ط١ ١٩٨٦م.
- ١٢- د. عدنان علي رضا النحوي / ديوان جراح على الدرب / دار النحوي للنشر / ط٢ ١٤٠٧هـ.
- ١٣- د. عدنان علي رضا النحوي / ملحمة القسطنطينية / ط١ ١٩٨٨م.
- ١٤- محمد الصديق / ديوان نداء الحق / دار الضياء للنشر / ط٢ ١٤٠٤هـ.
- ١٥- د. جميل علوش / ديوان مواكب الربيع / منشورات وزارة الثقافة الأردنية / ١٩٨٥م.
- ١٦- أبو الفضل الوليد / ديوان أبو الفضل الوليد.
- ١٧- وليد الأعظمي / ديوان أغاني المعركة / ط١ ١٩٦١م.
- ١٨- محمد ناصر المزني / ديوان القائد الشهيد مروان حديد / ط١ ١٩٨٣م.
- ١٩- أحمد أبو بكر / ديوان الوداع المر / ١٤١٠هـ.

- ٢٠- يوسف العظم / في رحاب الأقصى.
- ٢١- عبد الرحمن صالح العشماوي / ديوان يا أمة الإسلام.
- ٢٢- محمد هاشم رشيد / ديوان الأعمال الشعرية الكاملة / منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي.
- ٢٣- عبد الرحمن سليمان رفة / ديوان جداول وينابيع / ط ١ ١٤٠١هـ / منشورات نادي المدينة.
- ٢٤- محمد مصطفى البلخي / ديوان قنديل السعادة / دار المعراج للنشر والتوزيع / ١٩٨٩م.
- ٢٥- محمد كامل الآني / ديوان عصارة الفؤاد.
- ٢٦- د. عبد الله أحمد قادري الأهدل / ديوان هتاف العزة والمجد / دار المجتمع للنشر ط ١ ١٤١١هـ.
- ٢٧- محمد الأخضر السائحي / ديوان الإسلاميات / المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر / ١٩٨٤م.
- ٢٨- محمود مفلح / ديوان شموخا أيتها المآذن.
- ٢٩- صالح عبد الله الجيتاوي / ديوان صدى الصحراء.
- ٣٠- الشيخ محمد المجذوب / ديوان آلام وأحلام.
- ٣١- محمد مصطفى حمام / ديوان حمام.
- ٣٢- معروف الرصافي / ديوان معروف الرصافي.
- ٣٣- رابطة الأدب الإسلامي / من الشعر الإسلامي الحديث / مختارات من شعراء الرابطة / ط ١ / دار النشير للنشر والتوزيع.
- ٣٤- عبد الكريم الكرمي / ديوان الشيخ سعيد الكرمي وحياته.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	- الإهداء
٥	- المقدمة
٩	- الباب الأول
١١	- تمهيد
١٣	- الفصل الأول : الخلافة والخليفة تعريفات وشروط وواجبات.
٢٩	- الفصل الثاني : مراحل وأطوار الخلافة الإسلامية.
٣٢	- المرحلة الأولى : الخلافة الراشدة.
٣٥	- المرحلة الثانية : الخلافة الأموية.
٤١	- المرحلة الثالثة : الخلافة العباسية
٥٢	- الباب الثاني : شعر الأصداء
٧٧	- تمهيد
٨٩	- الفصل الأول : رثاء الخلافة الإسلامية والتحسر عليها
٩١	- توطئة
١١٩	- الفصل الثاني : الوقوف على مواقع الخلافة والمدائن والآثار
١٢١	- توطئة
١٤٣	- الفصل الثالث : الصورة الزاهية للخلافة ورمزها
١٦٥	- الفصل الرابع : أسباب سقوط الخلافة
١٦٧	- توطئة
١٩١	- الفصل الخامس : آثار ونتائج سقوط الخلافة
٢٢٩	- الفصل السادس : الحنين إلى إحياء الخلافة والدعوة إلى الوحدة الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٢٧٩	- الباب الثالث : الظواهر الفنية والبلاغية في شعر الأصداء
٢٨١	- توطئة
٢٨٣	- الفصل الأول : الظواهر الفنية والبلاغية من حيث :
٢٨٥	أ- المعجم الشعري
٢٨٧	ب- البناء الفني
٢٩٠	ج- الوحدة الموضوعية
٢٩٢	د- الموسيقى
٢٩٤	هـ- الظواهر البلاغية
٣١١	- الفصل الثاني : السمات العامة والخصائص المشتركة من حيث :
٣١٤	١- الصدق في التعبير
٣١٥	٢- الموقف والالتزام
٣١٨	٣- التقريرية والخطابية
٣٢١	٤- المعاني الإسلامية
٣٢٩	- الخاتمة
٣٣٣	- المصادر والمراجع
٣٣٩	- فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أصلاء سقوط الخلافة الإسلامية

في الشعر العربي الحديث



دار الكتاب النمامي

الأردن، إربد، شارع الجامعة

هاتف: ٠٩٦٦٩٧٢٦٦٦٦٦

فاكس: ٠٩٦٦٩٧٢٦٦٦٦٦

